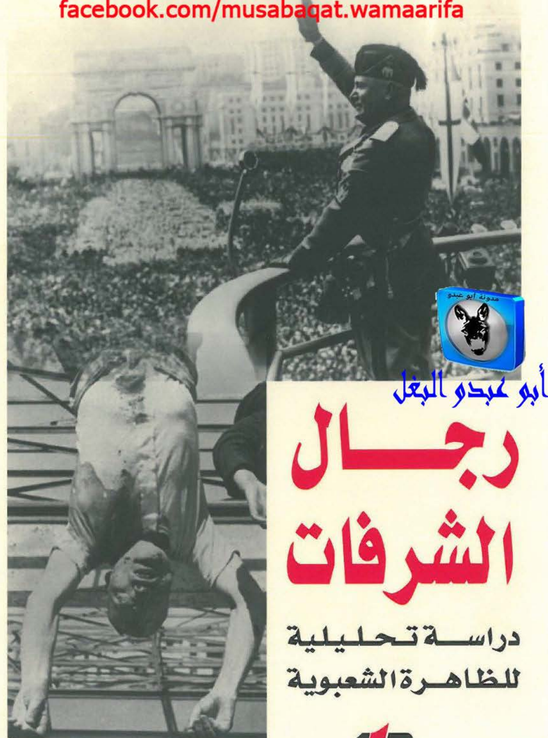
منى خويص



رجال الشرفات

دراسة تحليلية للظاهرة الشعبوية

الفارابي

الفارابي

منى خويص

رجال الشرفات

دراسة تحليلية للظاهرة الشعبوية

دار الفارابي

الكتاب: رجال الشرفات
المؤلف: منى خويص

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2012
ISBN: 978-9953-71-734-0

المقدمة

يشهد العالم منذ ثمانينيات القرن الماضي يقظة للشعبوية.

كالمارد خرج هذا المصطلح من القمقم، وكأنه يؤشر لظهور مرحلة جديدة في الحياة السياسية، أو لنقل لحدوث تغيير في المشهد السياسي داخل المجتمعات إن لم نقل قاطبة ففي معظمها، بحيث باتت الحركات الشعبوية واسعة الانتشار وتغطي مساحة كبيرة من الخريطة السياسية العالمية.

وتتفق مجمل النخب الثقافية على اختلاف مشاربها وإلى أيّ بقعة من بقاع الأرض انتمت، على اعتبار هذه الظاهرة آفة تصيب المجتمعات وخطراً يتهدد استقرارها مهما كان شكل الحكم فيها.

والظاهرة الشعبوية ليست وليدة ثمانينيات القرن العشرين، بل إنَّ العالم قد عرفها من قبل؛ ففي فرنسا مثلاً، وإبان الجمهورية الثالثة، كان الجنرال جورج بولانجيه نموذجاً فاقعاً للقائد الشعبوي، وفيما بعد عرفتها إيطاليا من خلال موسوليني ونظامه الفاشي، كما عرفتها ألمانيا مع هتلر ونظامه النازي، كذلك عرفها الاتحاد السوفياتي مع حكم ستالين، وتجلت

بأبهى صورها في حقبة ماوتسي تونغ وحركته الثقافية في الصين، كما أنها تمددت فوق مجمل أراضي أميركا اللاتينية من كوبا في ظل حكم كاسترو، إلى الأرجنتين إبان حكم خوان بيرون، وصولاً إلى فنزويلا في عهدة هوغو تشافيز اليوم. كذلك كان للعالم العربي حصته فيها. فلطالما وصفت الناصرية بالشعبوية كما تتجلى تلك الظاهرة بأصفى حالاتها في جماهيرية معمر القذافي الليبية، وهي تتخذ من مجتمعات القارة السوداء مرتعاً لها بحيث يتميز القسم الأكبر من أشكال الحكم فيها، وكذلك معظم قيادييها، بالشعبوية.

ويرى بعض المفكرين أنَّ أوروبا عرفت الشعبوية في تلك الحقبة التي تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، إلا أنَّها، وبعد أن حطَّت الحرب أوزارها لم تضعف الشعبوية فحسب، بل انكفأت لتصبح جزءاً من ماضي تلك البقعة من العالم، في حين أنه بعد الحرب العالمية الثانية، شهدت صعوداً لنجمها في مجمل دول العالم الثالث.

بمعنى أنه، ومنذ الحرب العالمية الثانية، انكفأت الشعبوية في أوروبا، وانتعشت في دول العالم الثالث.

هذا في الماضي، أما اليوم فإن عدداً كبيراً من المفكرين يعتبرون أنّ الشعبوية عادت إلى واجهة العمل السياسي في الغرب، وهم يحذرون من خطرها على الديمقراطية هناك، في

حين توجد شريحة أخرى من المفكرين الغربيين الذين لا يوافقون على ما يسمى بعودة الشعبوية إلى الساحة السياسية في المجتمعات الحديثة، ويتطلعون إلى الحركات التي يصفونها بالشعبوية كحركات نشأت عن أزمة في الديمقراطية التمثيلية، وهي تهدف إلى انتزاع المزيد من المطالب التي يشعر المواطنون أنهم بحاجة إلى تحقيقها. كما وأنّ هناك تياراً آخر يرى أنّ الغرب يعاني اليوم بالفعل من عودة للشعبوية إلا أنَّها عودة غير مقلقة، ولا تنذر بأي مؤشرات خطرة، ولا تستدعي كل هذه المخاوف، لا على الديمقراطية ولا على الحياة السياسية.

إذن هناك جدل في الغرب حول عودة الشعبوية كظاهرة في الحياة السياسية.

لماذا هذا الجدل في الغرب؟ وهل أنّ الحركات التي تصنف هناك على أنها حركات شعبوية هي فعلاً كذلك، بحيث أنّ هناك خلافاً حتى بالنسبة إلى هذا التصنيف. وماذا عن هذه الظاهرة في مجتمعات العالم الثالث، فهل هي فعلاً منتعشة، وتحتل المشهد السياسي داخل تلك المجتمعات؟

هذا إضافة إلى أنّ الشعبوية لم تنل، حتى اللحظة، تعريفها المحدد في البحث التاريخي. فقد بقي تعريفها عاماً، ولم ينفذ إلى كنهها الخاص. إنَّ هذا النقص يحفّز على بذل

جهد إبداعي للمؤرخين لإدراك سبل غير نمطية تساعد على لحظ تعريف محدد للشعبوية، تعريف إيجابي، وليس سلبياً يشوبه الخلط بينها وبين تعريفات ظواهر أخرى.

يقود هذا التفكير لطرح منهجية التأمل التاريخي، لتوّسل إيجاد التعريف الإيجابي والواضح لهذا المصطلح أو المفهوم. فالمنهجية البحثية التاريخية التقليدية هي مسار من الربط والمقاربة وإيجاد صلات العِبَر التاريخية بين الأحداث، مع أنّ ما نسميه اصطلاحاً، بالمنهجية التأملية التاريخية، يعني الانقياد المتأني وراء الحدس التاريخي. ووفقاً لهذه المنهجية الأخيرة، يصبح للظاهرة التاريخية جانبان اثنان، جانب علمي في النظر إليه، وجانب تأملي في قياس خاصياته.

لكن مجرد أنّ البحث التاريخي اكتفى بوضع تعريف سلبي من ناحية، وملتبس من ناحية ثانية للشعبوية، فهذا يعني أنّ المنهج التاريخي العلمي المجرد، قاصر، وحده، عن النفاذ إلى ماهية أو خاصية الشعبوية، ولذا بقي تعريفها عاماً وضبابياً.

وبخلاصة أكيدة يمكن القول إنه طالما أنّ الشعبوية، هي ظاهرة مركّبة يتداخل فيها الإنساني بالسياسي والثقافي بالوجداني، وتداهمها ملامح ديكتاتورية وفاشية، فهذا يعني أنها ليست ظاهرة داخل التاريخ فقط، بل هي حياة داخل

التاريخ، وعليه فلا يزال في لدنها متسعات للتأمل الفكري بها، وليس مجرد البحث المنهجي فيها وعنها فقط.

أولى خلاصات اتّباع منهج "التأمل التاريخي" بواقعة أنّ الشعبوية تكرر نماذجها اليوم في العالم الثالث، وأيضاً في الغرب، بعد أن ساد يقين بعد الحرب الكونية الثانية أنّ نجمها قد أفل هناك؛ فهذا يقود للاعتقاد أنه لو كان البحث التاريخي توصل إلى صياغة تعريف محدد للشعبوية، لكان بالإمكان التوقع بكثير من الثقة، أن نماذجها لن تتكرر في عصرنا الجديد. لنلاحظ أنّ الفاشية هجرها حتى القادة الشموليون من أبناء القرنين العشرين والحادي والعشرين. وسبب ذلك، أنّ البحث التاريخي، حدد بوضوح قاطع ولا يقبل اللبس، مفهوماً دقيقاً للفاشية، بحيث لم يعد بإمكان أي زعيم معاصر التستر على فاشيته واستغلال وجود فراغات في تحديد مفهوم الفاشية، ليعمد إلى تأويله، خدمة لممارسة فاشية مقنّعة.

والخلاصة الأساسية، الممكن استنتاجها هنا، هي أنّ قصور البحث التاريخي عن صياغة تحديدات تعريفية حاسمة للظواهر الشمولية، لا يؤدي إلى خطأ منهجي فقط، بل إلى اعتلال الفعل التاريخي الجاري والمستقبلي، وإلى تكرار الأخطاء التاريخية. بكلام آخر، إنّ البحث التاريخي، هو أكثر

من عملية قراءة للواقع الإنساني وجعله متصلاً ومحل مراجعة إنسانية وحضارية. إنّ البحث التاريخي، له، أيضاً، وظيفة قمع تكرار الأخطاء، وإنتاج "حصانة حضارية مستديمة" تضمن أنّ التاريخ يتقدم إلى الأمام، وأن فعله حضاري، وليس ماضوياً مستنسخاً، أو نمطياً جامداً.

وضمن هذا السياق المفهومي لموقع "البحث التاريخي" في تصويب "فعل التاريخ"، يظهر أنّ البحث التاريخي، في جزء هام من مساره، يبدو أشبه بعملية بناء متصلة لهياكل الذاكرة الإنسانية الحضارية التي تصوّب التاريخ، وتحقن ذاكرة البشرية بالقيم التي تقاوم عودة مجتمعاتها إلى نماذج سياسية واجتماعية وثقافية، مسؤولة عن تخلف العقل وتعطيله.

والملاحظة الأهم في هذا المجال، هي أنه حينما ينتج البحث التاريخي تعريفات حاسمة للظواهر السياسية، فإن ذلك يتبعه إنتاج للقيم الإنسانية والإصلاحية التاريخية التي تمنع تكرّر الظواهر التاريخية المريضة.. والعلاقة بين البحث التاريخي وإنتاج القيم التاريخية، هي عملية متصلة تقوم على معادلة تحاكي المعادلة الاقتصادية حول أنّ لكل إنتاج جدواه الإيجابية، وكذلك هو الحال بالنسبة لارتباط البحث التاريخي بجدواه الإنسانية الحضارية. ومن دون الاتصال بين هاتين

المعادلتين يصبح التأريخ رواية للتاريخ، وليس فعلاً اصلاحياً في التاريخ، كما يجب أن يكون أصل غايته.

وما تقدم يحتّم أن يكون البحث في التاريخ حاسماً في مجال تحديد تعريفات ظواهره، لأن إبقاءها ناقصة التحديد وملتبسة ومحل خلط بينها وبين ظواهر أخرى، هو ليس مجرد فعل تأريخي منهجي خاطئ، بل هو فعل تاريخي يحمي الأخطاء الماضية، ويجعلها قادرة على البقاء والظهور مجدداً، ويجعل عملية نجاح "ظواهر الأمس البائد" باختراق "العصر المتنور الجديد"، ممكنة.

على هذا، فإنّ المسؤولية عن تجدد بروزملامح للشعبوية في زمننا الراهن، تعود، في جزء كبير منها، إلى أنّ البحث التاريخي لهذه الظاهرة، ترك وجهها التعريفي ملتبساً، وعرضة للخلط بينه وبين ظواهر وأيديولوجيا أخرى شمولية. وبغياب التعريف الواضح للشعبوية، غاب أيضاً إنتاج المفهوم التاريخي الإنساني الذي يؤبد إدانتها، ومن هنا نجد أن نماذجها تتكرر من دون وجل من قبل قادتها الحديثين من أن يصيبهم اللوم التاريخي الإنساني في حال بدت عليهم أعراض هذه الظاهرة المرضية المتخلفة في سلوكهم السياسي والاجتماعي والثقافي. وهذه بحق قضية هامة، والمأساة فيها

أنها غير مطروقة في النظرة الحديثة للعلاقة بين "البحث التاريخي والجدوى الإنسانية الحضارية منه".

كما وأنّ الدراسات الباحثة عن تعريف للشعبوية تظهر أنها وصلت لتقديم تحديد سلبي لماهيتها، بدليل أن هذه التعريفات:

أولاً- لم تزلِ الالتباس بينها وبين ظواهر أخرى تشبهها.

ثانياً- أبقت تعريفها قاصراً عن تحديد كنهها الخاص، واكتفت بتحديد ظواهرها العامة. فالشعبوية بهذه المواصفات العامة تبدو وكأنها شيئ من الشمولية وليست حالة خاصة بداخلها.

ومن خلال دراسة نماذج الشعبوية، يمكن إضافة محددات لم يلحظها كل البحث التاريخي الماضي، في مجال تعريفه السلبي للشعبوية.

إنَّ المحدد الرئيس الأول للشعبوية، هي أنها أعلى مراحل الشمولية، ولأنها كذلك، فهي تثير لدى الباحث التاريخي عنها سمة "الاستذكارية التاريخية"؛ بمعنى أنَّ مقاربتها تستدرج الذاكرة التاريخية، لاستحضار معظم الظواهر الاجتماعية والسياسية المسؤولة عن اغتيال يقظة العقل وظهور القيادات الشمولية والمجتمعات المغلقة.

إن السمتين الآنفتين (أعلى مراحل الشمولية والاستذكارية التاريخية) هما تعريفان سلبيان تضيفهما هذه المقدمة، إلى الجهد البحثي عن الشعبوية، وأهميتهما أنهما ينطبقان على ظاهرة الشعبوية من دون غيرها من الظواهر الشبيهة بها، وعليه فهما سمتان تقتربان من أن تكونا سمات تعريف إيجابي للشعبوية.

واستدراكاً لجهد البحث عن سمات تعريف حصرية بالشعبوية، تحاول هذه المقدمة، إيراد مواصفات لها تشترك فيها مع حالات شمولية تشبهها، كمدخل لاستبيان مواصفات تنفرد بها هذه الظاهرة.

مواصفات للشعبوية تشترك فيها مع ظواهر شمولية أخرى

أ - الشعبوية تسود حيث المجتمع يتحول إلى نظرية "رجل الزحام" حيث الملايين تتشابه، داخل مفهوم واحد للثقافة والسياسة والاجتماع، ولا يعود الإبداع علامة فارقة، بل هو تكرار ممل لما يتفوه به الزعيم القائد، وأي خروج عن هذا المضمون، هو خروج عن الإجماع الذي له سمة القدسية التي يحميها الغوغاء، وهؤلاء هم النواة الصلبة في القاعدة الاجتماعية الشعبوية.

ب- الشعبوية طريق باتجاهين: قائد أوحد ملهم، ومجتمع منغلق يتبعه.

ج - الشعبوية هي مظهر عن الانقياد الأعمى الثقافي والسياسي والاجتماعي، للفكرة الدعائية التي تصبح هي القائد.. ويصبح القائد هي.

ضمن هذه المواصفات الآنفة، تبدو الشعبوية لصيقة التشابه بحالات الفاشية والديكتاتوريات الحزبية. فكيف نخلص إذن لتحديد كنهها الخاص الذي يميزها عن ظواهر شمولية أخرى؟

ثمة ظلال من الفوارق، ولكنها حاسمة في تحديدها: القائد في الظاهرة الشعبوية، ليس دكتاتورياً فقط، بمعنى أنه يرمز إلى خوف الشعب منه، بل هو يرتقي إلى مرحلة قيادة الوجدان التاريخي لشعبه. إنّ ترهيبه يطال وجدان الشعب وليس خوفه المادي فقط. وعادة ما يكون هذا الوجدان المستثمرمن القيادة الشعبوية، هو ديني أو قومي، أو كلاهما في آن معاً. ودائماً - وهنا خصوصيتها المميزة- ما تطرح الشعبوية قضية على صلة بالماضي، انطلاقاً من أنَّ أبرز سماتها، تكمن في أنها تبحث عن قيادة ذات ثلاثة أقانيم: مقدسة، وجدانية وشاملة. والمقدس يوجد غالباً في الماضي. ستالين لم يكن قائداً شعبوياً، بل ديكتاتورياً عقائدياً بفكرة

جديدة (الماركسية). تشاوشيسكو كذلك الأمر. والصفة نفسها تنطبق على صدام حسين الديكتاتور بفكرة حديثة (القومية العربية). أما هتلر، فكان فاشياً وديكتاتورياً في آن معاً. فهو جمع بين ذاكرة عنصرية قديمة (العرق الأزرق)، وهو مفهوم ماضوي، وبين القوة الطموحة، وهي مفهوم متجدد على أساس رؤية جديدة للطموحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وما يميز الشعبوية، عن الفاشية والديكتاتورية، هو أنها لا تطرح شعاراً جديداً، بل تكتفي بالشعار القديم. وأي جديد تطرحه هو تجديد للقديم. ظاهرة الأمس، هي الأكثر حضوراً في الشعبوية واكتفاءً بذاته، بعكس الفاشية (التي تخلط بين شعار الأمس واليوم) والديكتاتورية (التي تلغي كل شيء حتى الأمس لمصلحة الفكرة الجديدة الاحادية).

.. غالباً ما يكون القائد الديكتاتوري هو القائد الجديد..

وغالباً ما يكون القائد الفاشي هو قائد الأمة الافضل..

وغالباً ما يكون القائد الشعبوي، هو القائد الآتي من الماضي.. من المقدس في الوجدان وحتى في الميثولوجيا..

صحيح أنّ الشعبوية، تتجمع ضمن ممارساتها ملامح من الفاشية، ومن الديكتاتورية، ولكنها تذهب أبعد منهما في تحقيق وحدانية انقياد المجتمع لقائده، عبر جرّه إلى الانقياد الاعمى عن طريق جعل الوجدان الماضوي، هو الحاضر

وكل المستقبل. بكلام قليل: الشعبوية، هي قيادة تكررالتاريخ، وقاعدتها الاجتماعية هي مجتمع يستنسخ جيناته التاريخية والاجتماعية القديمة. الشعبوية هي الأمس الذي تتمّ استعادة عيشه بكل معانيه، وتنتظر أيضاً الماضي. ما تقدم يشكل نقاط تمايزها الأساسية وعلاماتها الفارقة، مقارنة بغيرها من الظواهر الشمولية المشابهة لها، وهو يشكل خطوة على طريق الخروج من الاكتفاء بالمفهوم السلبي للشعبوية، باتجاه أن نتلمّس تعريفاً إيجابياً محدداً لها، ولجوهرها. وبكلام أخير: الشعبوية هي أعلى مراحل الشمولية، على وزن ما يقوله لينين عن أنَّ الإمبريالية هي أعلى مراحل الراسمالية.

كذلك يحضر في هذا المجال سؤال آخر منهجي إشكالي حول مفهوم الشعبوية، ويتعلق بأسباب هذا الخلط وهذا اللبس في تعريف هذه الظاهرة، وهذا التداخل غير الواضح بينها وبين ظواهر أخرى شمولية مشابهة لها؟؟

والإجابة عن هذا السؤال قد تجد تعبيراً لها من خلال إدراج الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: أغلب الظن أنّ الأسباب التي أعاقت تحديد مفهوم واضح للشعبوية، وقادت إلى هذا الخلط بينها وبين حالات أخرى تشبهها، تعود إلى كون الشعبوية، تمارس حقبتها السياسية والثقافية والاجتماعية، بصخب إلغائي. وهذه

سمة (الإلغائية)، تعلق بكل الحالات السياسية الشمولية، ولذا برز الخلط الشديد.

الملاحظة الثانية: وهي تتسم بمغامرة مندفعة في رحاب ما أسميناه آنفاً، بالتأمل التاريخي لهذه الظاهرة، ومفادها أنّ ثمة نزعة إنسانية، غاب عن المؤرخين لحظ اعتبارها، قد تكون مسؤولة عن تشويش مسار التأريخ لظاهرة الشعبوية. وقوام هذه النزعة أنه حينما تنقاد مراحل من التاريخ بظواهر شمولية عاصفة، فإن مؤرخيها، يصبحون ضحايا الكتابة عنها، كما كان مواطنو تلك الحقب الشعبوية أو الشمولية ضحايا أيضاً.

وهذا نوع من الإحساس بسمة الضحية ناتج عن الانحياز الإنساني الحضاري للمؤرخ ضد فظاعة الخطأ الذي مورس بحق مسار تطور الإنسانية. لنلاحظ أنّ مراجعة التاريخ ليست عملاً مجرداً، بل هي تأصيل للأحاسيس الإنسانية بمفعول رجعي. وهذا ينطبق على كل أنواع المراجعات الفنية للأحداث والمواقف (سينما- كتابة). حتى ستالين مفرط الشمولية، يحكى أنه حينما شاهد فيلماً يراجع بطولاته، دمعت عيناه، وتعرض لأن تنال تأثيرات "الانحياز الإنساني الحضاري"، من حديديته. الفن، بمفهوم الصورة السينمائية أو النص الكتابي التأريخي، هو فعل يخالطه الانفعال الحضاري

الإنساني، وذلك بالاتجاهين، أي بالنسبة لمتلقيه أو لملقنه. والمؤرخ، بوصفه محكمة إبداعية للتاريخ، لا يستثنيه هذا النوع من التأثيرات عليه، حتى لو كانت العلمية مقصده في المنهج والتحليل والخلاصات.

ما قد نخلص إليه في هذا المجال، ولو بصفة أولية، هو أن الشعبوية، لفرط بشاعة فعلتها ضد تطور المجتمع، تستدرج المؤرخ الراصد لها، إلى حالة نافرة من الانحياز الحضاري الإنساني ضدها، ويصبح ميالاً لتأكيد استهجانه لها، عبر لصق كل ما توافر من مشابهات تعريفية مكروهة بها.

إنّ الأعراض الآنفة تظهر أنّ المؤرخين معرضون لأن يخالط مشاعرهم، بدرجة عالية، انفعال "التأصيل الحضاري الإنساني" لدى مقاربتهم ظاهرة الشعبوية، وذلك على نحو يعزز زعمنا بأنها "أعلى حالات الشمولية"، وليست مجرد ظاهرة منها. ويؤكد زعمنا، أيضاً، عن أنَّ الحديث عنها يستدرج عملية "استذكار" كل الآفات المشابهة لها، خصوصاً وأنّ هذه السمة الاستذكارية لا نجدها حاضرة بهذه القوة خلال الحديث عن ظواهر أخرى تاريخية مكروهة ومسؤولة عن تخلف العقل الإنساني السياسي والاجتماعي والثقافي، الخ.

ومن ثم هناك سؤال عن طبيعة هذه الظاهرة، مكوناتها

ومعناها. أي، ماذا يعني مصطلح الشعبوية بدقة. بحيث إن الكتابة الباحثة عن ظاهرة الشعبوية، لا يزال في لدنها متسعات للتأمل الفكري بها وليس البحث المنهجي فقط. كما وأن الوجه التعريفي لمصطلح الشعبوية لا يزال ملتبساً بمعنى: هل هي أيديولوجيا شاملة، أم غوغائية شعبية يمتطي ظروفها رجل عيَّن نفسه قائداً ملهماً، وجمع بين قبضتيه مفاتيح استثارة جينات الغرائز في مجتمعه، على حساب يقظة العقل ولمصلحة تعطيله، أم هي مجرد خطاب، يصادر اللحظة، ويشد بمفرداته الغيبية أو العصبوية، ناصيتها إلى ماضٍ سحيق يجدد، على صورته، العلاقة بين القائد والجماهير، فتتبدد المواطنية بمعناها الحديث، ويصبح الحاكم نصف إله، أو شخصاً يشبهه على الأرض.

قصارى القول إن ثمة مساحة لا تزال خاوية في مجال إنتاج تعريف محدد للشعبوية. فالذين قاربوا قضية الشعبوية وما الذي تمثله- أهي القائد، أم خطابه، أم ايديولوجيا غوغائية، أم جميعهم-، لم يلبّوا مطلب إكمال سيرتها التعريفية العلمية، ولم يضعوا التعريف الخاص بها الذي يصمت بازائه الالتباس، ويبدد الخلط بين حالتها وحالات أخرى تشبهها أو مصطلحات تلازمها لإيضاحها، كالديمقراطية المباشرة أو الديماغوجية أو الفاشية أو الدينية الخ. ... والأهم من ذلك،

لم ينتج حتى الآن المفهوم التاريخي الإنساني الذي يدينها، ومن هنا نجد أنّ نماذجها تتكرر من قبل الكثير من القادة الحديثين دون خوف من أن يصيبهم اللوم التاريخي الإنساني في حال بدت عليهم أعراض هذه الظاهرة المرضية المتخلفة في سلوكهم السياسي والاجتماعي والثقافي. وهذه بحق قضية هامة، والمأساة فيها أنه لم يتم التطرق إليها من قبل البحث التاريخي، ولا تزال خارج وعيه الحديث، بحيث إن عملية التعرية لمفهوم ما يجعل عملية تكراره دونها عقبات كثيرة؛ فعلى سبيل المثال لا يمكن للفاشية كتجربة أن تتكرر في أوروبا، ويصعب على أي نموذج حاكم أو قائد أن يكرر السلوك الفاشي، لأنّ هذا المفهوم لم يعد ممقوتاً تاريخياً وسياسياً فقط، بل أيضاً إنسانياً. وكذا الحال بالنسبة لظواهر أخرى شبيهة. فوضوح التعريفات بشأنها جعلها عارية من شبهات التستر والتمويه، وبالتالي يمنع تكرارها. أما الشعبوية فلا تزال، بفعل أنّ تعريفها ناقص وغير محدد، قادرة على التستر وتأويل ملامحها، بدعوى المقدس تارة والانتماء الأعمى تارة أخرى.

ويقود هذا النوع من التأمل التاريخي الإنساني بخصوص الشعبوية كظاهرة ناقصة التعريف الصريح، إلى ملاحظات أخرى تنتمي إلى هذا النوع من البحث الإنساني التأملي في

دراسة ظواهر التاريخ السياسي (اذا جاز استخدام هذا التعبير الاصطلاحي في علم السياسة):

الملاحظة الأولى: إنّ المساحة الواسعة من التاريخ، التي ملأت حالات شعبوية حيوياتها، تبرهن على أنها ليست حالة ملحقة بأخرى شبيهة لها وأوسع منها تعبيراً عن ذاتها بالمفهوم التعريفي. وهذا ما يقود إلى جدية التأمل الفكري في اعتبار أنّالشعبوية، قضية منفصلة، بل مستقلة، في مفهومها، حتى لو تعثرت حتى الآن قدرةالجهد البحثي عليإيجاد تحديد علمي لمفهومها كامل المحددات، ولا يقبل اللبس أو التأويل.

الملاحظة الثانية: وهي تخدم تعريفاً سلبياً للشعبوية، ومفادها أنَّ التمعن، يؤكد أن المؤرخين صاغوا تعريفات واضحة لها، ولكنها ليست كاملة المحددات. إنّ الوهن التأريخي لهذه الظاهرة، ينحصر في كونه لم يبعد حالة الاشتباه بينها وبين ظواهر أخرى مشابهة لها. وأبعد من ذلك، لم يقدم إيضاحاً علمياً مطلوباً حول: هل الشعبوية هي جزء من ظواهر مشابهة لها، بمعنى أن هذه الأخيرة هي أوسع منها في التعبير عن ذاتها، وبالتالي، فالشعبوية، هي موجة غوغائية في بحرها، ليس إلا.

ثمة خطورة تحليلية، تنتج عن الخلط بين الظواهر، تماماً كما التشخيص الطبي الذي لا يستقيم معه العلاج في حال

كان مشوشاً وغير حاسم في تحديد " كنه العلة" وليس مواصفاتها العامة فقط وحتى بعضها الخاصة.

الملاحظة الثالثة: أغلب الظن أنَّ من بين ما أعاق تحديد مفهوم واضح للشعبوية، وقاد إلى هذا الخلط بينها وبين حالات أخرى تشبهها، هو أنّ الشعبوية، تمارس حقبتها السياسية والثقافية والاجتماعية، كما ذكرنا بصخب إلغائي، لطالما تعلق بكلالحالات السياسية الشمولية، ولذا برز الخلط الشديد.

ثم يحضر في هذا المجال، سؤال آخر عما إذا كانت الشعبوية هي حالة فرد مسيطر يسقط كل تفاصيل تسلطه على مجتمعه، أم أنها حالة اجتماعية ترفع هذا الشخص المتسلط إلى مرتبة الإله؟؟

الإجابة عن هذا السؤال، لا يمكن إدراكها إلا من خلال منهج الثقافة في دراسة السياسة. فالمثاقفة السياسية، لم تكن في يوم من الأيام، طريقاً باتجاه واحد. فكل ثقافة تحتاج إلى متلق عند طرف الانفعال الثاني، وملقن عند طرفه الأول. ومدى الانفعال المتولد بين طرفيه، هو الذي يقرر نجاعة الفكرة السياسية المعروضة كنموذج للحكم سواء أكان هذا النموذج ديموقراطياً أو شمولياً، بدائياً أو حديثاً.

هذا النوع من التأمل الفكري تحفزه للظهور داخل أروقة

الذهن البحثي عملية البحث عن موقع الشعبوية في تاريخ الإنسان السياسي والثقافي.

إنّ هذه الملاحظات تريد القول إن التأمل التاريخي البحثي من جهة والانحياز الإنساني العلمي من جهة ثانية، هما سمة واحدةتغزو الباحث في موضوع الشعبوية. فككل الآفات المرضية في الطب وفي الاجتماع، فان عنف المرض يستدرج منسوباً أعلى من الحماس الإنساني والرغبة العلمية لإيجاد العلاج، سيما حينما يسود الشعور بأنّ الآفة تهدد المجتمعات الحديثة بالعودة ولو بجينات جديدة تنتمي إلى هذا العصر، أو لأنها باتت داءً مستفحلاً في مجتمعات العالم الثالث، وتهدد بمزيد من المآزق التي يواجهها، وتقف عقبة باتجاه أي خطىً تغييرية أو حداثية.

الفصل الأول

واقع الشعبوية في المجتمعات الغربية ومجتمعات العالم الثالث

عرفت المجتمعات الحديثة الظاهرة الشعبوية كما ذكرنا، قبل الحرب العالمية الثانية، أما وبعد أن حطت تلك الحرب أوزارها تراجعت تلك الظاهرة، لا بل انكفأت واصبحت حسب مجمل المفكرين هناك جزءاً من تاريخ تلك البقعة من العالم. اما عن أسباب انكفائها، فيعزونه لعدم توافر مناخ عام في تلك المجتمعات لاحتضان مثل هذه الظاهرة مجدداً؛ فالدولة الديمقراطية حسب رأيهم وضعت حداً لها. في حين أنه في مجتمعات العالم الثالث، كان الوضع مختلفاً تماماً، فالمناخ العام هو ذلك المناخ الذي لا تبصر النور فيه أي حركة سياسية إذا لم تتكىء في صعودها على الشعبوية، حتى الحركات التي امتطت الفكر الأيديولوجي اضطرت إلى تحريف هذا الفكر وإلباسه العباءة الشعبوية للوصول إلى تحقيق أهدافها.

إذن، انكفاء الشعبوية في أوروبا يعود حسب مجمل المفكرين لديمقراطية تلك المجتمعات؛ فالحرية السياسية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقانون، وسيادة القانون في أيّ مجتمع من المجتمعات يقف سداً منيعاً في وجه الشعبوية التي يعتبرها بعضهم حركات ضد القانون وبوجه القانون وخارجة عن القانون، كما أنّ هناك سداً آخر أكثر مناعة يتمثل "بالعقل"؛ إنّ حضور العقلانية وفاعلية الفكر النقدي وديناميته، تقطع الطريق أمام هذه الظواهر، وتمنعها من الوصول إلى حيث تريد، خصوصاً أنّ التاريخ أثبت أنَّ كل الحركات الشعبوية كانت مصائرها كارثية.

أما في مجتمعات العالم الثالث، فالوضع مختلف اختلافاً جذرياً. ففي تلك المجتمعات التي لم تطرق الحداثة بابها، ولا تزال تدور في رحاب التخلف والجهل وغياب الفكر العقلاني، مناخاتها العامة تهيء أرضية ثابتة وتربة خصبة لبروز الشعبوية فيها. وهذه الأخيرة لا تقتصر على المجال السياسي، بل تمتد لتشمل النسيج المجتمعي بأكمله. إنها ثقافة ونمط سلوك اجتماعي ولغة تخاطب، وأحياناً تجر جماهير تلك المجتمعات السياسيين إلى تبنيها. إنَّ غياب المناخات العقلانية عن تلك المجتمعات تتولّد عنه بالضرورة ثقافة شعبوية.

..ليس هناك فكر للعالم الثالث ولو حلمنا بذلك، فلهذا

العالم قاسم مشترك[1] "وهو ما يعرف بحركات التحرر الوطني ومبرراتها، وتقنيات تأسيس الدولة والأسباب المبررة لها التي تقع في نطاق واحد هو نطاق النير الاستعماري مع نتائجه الاجتماعية، المادية والفكروية ذاتها، تخلُف، تقويض بنى المجتمع، خنق الثقافة الوطنية. إنّ المقصود إيجاد دولة على الرغم من الإمبريالية الجديدة... إنّ المرجع الالزامي لنشوء تلك الدول، كان مرجع الدول الصناعية المتطورة في نجاحها الليبرالي أو في نجاحها الاشتراكي السوفياتي... وإذا كان ثمة نقطة مشتركة بين دول العالم الثالث، فهي "الاشتراكية". وهي اشتراكية ليس من المؤكد أنّ الاستناد إلى الماركسية-اللينينية يرسم الخط الفاصل الأساسي لها. فهذه الأخيرة قد تشكل سنداً أيديولوجياً لما يعرف بحركات التحرر الوطني في تلك الدول، إلا أنَّه، ولكونها دولاً غير مصنّعة، كان يجب اللعب على المركب البروليتاري للماركسية، كي يتوافق مع وضع كل دولة".

وفي الإطار نفسه، يعتبر إريك فروم[2] "إن الاشتراكية والماركسية شكّلتا عوامل جذب لهذه الأقطار، ليس بسبب

---

(1) شاتليه، فرنسوا، دوهامل، اوليفيه، افلين بيزيه، كوشنير، تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة د.خليل احمد خليل، معهد الإنماء الفكر العربي.

(2) فروم، اريك، مفهوم الانسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، دار الحصاد . سورية، دمشق.

الإنجازات الاقتصادية فقط... بل بسبب العناصر الروحية لأفكار العدالة، المساواة، والعالمية التي هي متأصلة في جذر الاشتراكية الماركسية".

لقد قدمت دول العالم الثالث نماذج جديدة للاشتراكية؛ فقد ظهر ما يسمى بالاشتراكية الافريقية، الاشتراكية الكوبية، الاشتراكية الماوية والاشتراكية الناصرية، وكلها اشتراكيات منحرفة انحرافاً كبيراً عن الارثوذكسية الماركسية. ويعزو البعض انحرافها إلى الحاجة لمقولة الشعب، كذلك لغنى هذه الايديولوجيا بالشعارات التي تحاكي الطبقات العاملة، والتي يحل محلها في تلك الدول الطبقات الفقيرة والفلاحون والمهمشون والذين يشكلون القسم الأكبر من الشرائح المجتمعية هناك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لقدرة هذه الشعارات في عملية التعبئة الجماهيرية والحشد الجماهيري اللذين يحتاجهما قادة تلك الدول لإنجاز أهدافهم. وبالمقابل الجماهير نفسها، ونتيجة للمرجعية الثقافية التي تتحكم بها، تكون بحاجة إلى هذه الشعارات التعبوية الشعبوية. وهي لا تستجيب لها - أي الجماهير- فحسب، بل أحياناً وكما ذكرنا، تستجرّ السياسيين والقادة إليها. أضف أخيراً إلى ذلك كله، أنّ ما سهّل تبنّي الاشتراكية في هذه المجتمعات، عامل خارجي، لكنه مهم، ويتمثل في تدخل الاتحاد السوفياتي، آنذاك، من باب مد نفوذه فوق أكبر بقعة من خريطة العالم

عن طريق دعم هذه الحركات وتمويلها ومدها بالسلاح، مما يسهل لها الطريق لتحقيق أهدافها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الحركات الثورية التي تبنت الاشتراكية، وتمكنت من الوصول إلى السلطة، من خلال التأييد الشعبي لها، تحولت فيما بعد من[3] "جمهوريات راديكالية - كما كانت تزعم - إلى ما يشبه الملكيات، من استئثار لقوى ونخب محددة للغاية بالسلطة ثم محاولة توريثها للأنجال والأقارب" حسب د.محمد يحيى. والملاحظة نفسها يبديها بيار تاغييف فيقول[4] "إنه وفي حال الشعبوية ينقلب التوجه إلى الشعب إلى ديكتاتورية تمارس على الشعب وضده".

كما ويعتبر بعضهم أنّ هذا التحول من الجمهوريات إلى الديكتاتوريات قد أدى إلى تراجع الشعبوية في سبعينيات القرن العشرين، خصوصاً في العالم العربي. ورأوا أنّ هذا التحول ترتب عليه نتائج، تبلورت في المرحلة الممتدة من أواخر الثمانينيات وبداية تسعينيات ذلك القرن، وحتى الآن، حيث شهدت هذه المجتمعات يقظة مدوية للشعبوية، تجسدت

---

(3) يحيى، د.محمد، مقالة بعنوان: "الشعبوية والتوجهات الجديدة لاحتقار الجماهير"، وكالة الأخبار الاسلامية.

(4) كامبردج بوك ريفيوز، الوهم الشعبوي.. وصعود أقصى اليمين في أوروبا، المصدر الجزيرة، www.aljazeera.net.

في الحركات الإسلامية المتطرفة، والتي تقف بمواجهة الحكومات، وتشكل تهديداً لها في اقترابها من ملامسة السلطة في أكثر من مكان.

إنّ ثمانينيات القرن الماضي، لم يسجل يقظة للشعبوية في العالم الثالث الذي يشكل العالم العربي جزءاً منه فقط، بل إنها مزدهرة أيضاً في مجتمعات أميركا اللاتينية. كذلك يرى بعضهم أنها أطلت إلى واجهة العمل السياسي في أوروبا، وكذلك في الولايات المتحدة الأميركية من خلال ما يعرف بحركات اليمين المتطرف، على الرغم من أنّ هذه الدول اعتبرت، دوماً، أنّ هذه الظاهرة باتت جزءاً من ماضيها، لكن يبدو اليوم أنها تعود لتقف أمامها مرتبكة، يساورها خوف كبير وقلق من مخاطرها.

أسباب يقظة الشعبوية

يذهب بعض المتابعين للقول إنّ أسباب يقظة الشعبوية في أوروبا تقف وراءها مجاميع معارضة للعولمة باعتبارها سبباً لكل الشرور. وقد نشأت حركات تنتمي إلى ما يسمى باليمين المتطرف، والتي تطلق على نفسها أسماء مختلفة، كالنازيين الجدد، والفاشيين الجدد، وعدد كبير من الحركات المعادية للأجانب وللمهاجرين والرافضة للعولمة والمدافعة عن الهوية الوطنية. ولقد استطاعت هذه الحركات، ومنذ ظهورها الأول

وحتى اليوم، أن تتمدد وتنتشر على مساحة واسعة من القارة الأوروبية، بحيث نجدها في كل من: سويسرا، النمسا، إيطاليا، بلجيكا، النروج، هولندا، المجر، البرتغال، رومانيا، المانيا، وفرنسا. واستطاعت، أي هذه الحركات أن تحتل حيزاً مقلقاً في المجال السياسي. فقد أصبحت قادرة على إيصال ما نسبته 20% إلى البرلمانات، وهذه نسبة مقلقة بالنسبة للنخب الحاكمة.

والمشهد نفسه تشهده الولايات المتحدة الأميركية مع صعود أسهم حزب الشاي الذي يجتاح أيضاً الواجهة السياسية هناك. فهذه الحركة اختارت لنفسها اسماً لها، تيمناً بحادثةٍ حصلت قبيل الاستقلال، وكانت من ضمن عمليات الثورة الأميركية في وجه الاستعمار البريطاني، بحيث رفض الثوار آنذاك دخول سفن بريطانية محملة بالشاي إلى مرفأ مدينة بوسطن، فتصدوا لها ومنعوها من الدخول. ويسعى هذا الحزب لاسترجاع زمام السلطة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، بحيث يعتبر أنّ الأول، والذي انشق عنه، حزب ضعيف ومتهاون، أما عن خصمه الديمقراطي، الذي جاء بباراك أوباما إلى السلطة، فإنهم يصّوبون على الرئيس أكثر من تصويبهم على الحزب من حيث التشكيك بولائه، فهو لم يولد في أميركا، وهم ينعتونه بالاشتراكي الذي يحنّ إلى أصوله الكينية، إضافة إلى خطابهم العنصري التحريضي

المتطرف ضد الاسلام. كذلك يتشددون في كل ما يتعلق بالوضع الداخلي. كما استطاعوا هزم الجمهوريين في انتخابات الكونغرس، وفي دوائر لهم فيها جذور راسخة. وهم يتقدمون لكسب عدد من المقاعد في مجلسي النواب والشيوخ. كما يهيئون انفسهم لخوض معركة الرئاسة عام 2012.

تقلق هذه الحركات النخب الحاكمة وشريحة واسعة من النخب الثقافية في تلك المجتمعات. وقد كثفت جهودها، في الآونة الاخيرة، ورفعت الصوت عالياً حول ضرورة الوقوف في وجه هذه الظاهرة نظراً للتهديد الذي تشكله على الاستقرار وطبيعة النظام السياسي القائم هناك. وهم يحاولون تضخيم مدى خطورة تلك الظاهرة، في محاولة منهم لحشد غير المؤيدين المشرذمين من أجل الوقوف في جبهة واحدة للحد من تصاعدها. وهذا ما حصل مؤخراً في فرنسا تجاه ظاهرة لوبان.

إلا أنه وبمقابل القلق الذي تبديه هذه النخب، نجد أنه لا يوجد خوف حقيقي منها نظراً لقناعة معظم مفكري تلك المجتمعات بعدم قدرة تلك الظاهرة على تقويض الإنجازات التي تحققت منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم، فهم يجمعون على أنّ المصير المحتم لتلك التجربة "الانهيار".

وانطلاقاً من هذه الخلفية يعتبر تاغييف أنّ هذه الظاهرة ليست بجديدة. ففي خمسينيات القرن الماضي[5] "اعتبرت المكارثية في أميركا من قبل اليسار الأميركي، كظاهرة شعبوية، والذين انتقدوا المكارثية رأوا فيها امتداداً للتقاليد، بقايا للماضي، مما جعل الناس لا يخافون ولا يفقدون الأمل على أساس أنّ الماضي محكوم عليه أنْ يبقى ماضياً".

وكأن تاغييف يطمئن الخائفين على المستقبل، بأنه لا مستقبل لهذه الحركات كونها تحاكي ماضياً يحرص الأوروبيون على تجاوزه وبقائه "ماضياً".

الشعبوية تحت سقف الديمقراطية

الواقع أنّ آليات العمل الديمقراطي تحد من فاعلية الشعبوية، لأنّ بروز هذه الاخيرة في تلك المجتمعات، قد يحدث قلقاً، ويسبب هزّة في داخلها، إلا أنّه غير قادرٍ على هدم الهيكل وتدميره بالشكل الذي يكون متاحاً له في الأنظمة اللاديمقراطية.

يوصّف جيل دولوز، والذي اعتبر أحد ملهمي ثورة الشباب في فرنسا العام 1968، حركات المقاومة السياسية لجهاز الدولة في أوروبا، بأنها حركات تختلف عن نمط

(5) المرجع نفسه.

المشروعات الثورية الكبرى في القرن التاسع عشر؛ نمط لا يعرف اتجاهاً محدداً، ولا يقتصر على مجالٍ بعينه، يواجه الدولة ولا يطمح إليها. إنَّ ما يطلق عليه تسمية السياسات الصغرى في المجتمعات ليس كالسياسات الكبرى التي تهدف إلى السيطرة والصياغة الشاملة للمجال الاجتماعي؛ إنها مجموعات صغيرة تبحث عن خطوط للإفلات. يتحدث دولوز عن تغييرٍ ثوري جديد يختلف عن المشروعات الثورية الموروثة عن الماركسية، ويحدد ملامح هذا التغيير قائلاً[6] "ليس من المدهش أنّ كل أنواع القضايا العرقية واللغوية والأقلية والإقليمية والجنسية والشبابية، تنبثق ليس كنزعات ماضوية فقط، ولكن في شكل ثورية راهنة، تضع بصورة شاملة موضع المساءلة كلاً من الاقتصاد المعولم وترتيبات الدولة القومية، بدلاً من أن نراهن على الاستحالة للثورة وعلى عودة الفاشية، لماذا لا نتصور أنّ نمطاً جديداً للثورة في طريقه لأن يكون ممكناً". وهذا النموذج الجديد يسميه دولوز النموذج الذري، فيقول[7] "إنّ السياسات الصغرى لا حصيلة لها ولا تحقق غاية خارجية، فهي ممارسة بلا نهاية،

---

(6) دولوز، جيل، سياسات الرغبة، تحرير د.احمد عبد الحليم عطية، دار الفارابي.

(7) المرجع نفسه.

وهي غاية ذاتها، نموذج السياسات الصغرى هو ثورة الشباب عام 1968 التي، وعلى الرغم من أن الكثيرين اعتبروا أنها فشلت في تحقيق أهدافها، إلا أنَّها نجحت، لأنها دشنت عصر السياسات الصغرى، وأثبتت أنه منذ سبعينيات القرن الماضي لا تحدث الثورة الحقيقية على مستوى النظام الاجتماعي لكنها تحدث داخل الأفراد والمجموعات الصغرى. ومرة أخرى، لا يعني ذلك الدعوة إلى اللامبالاة تجاه السياسات الكبرى أو الفصل بين العمل على المستوى الذري والعمل على المستوى الكتلي، لأنه في النهاية ينبغي أن تؤدي هذه الحركات الصغرى إلى تغيير الوضع الأكبر". ففي ظل انحسار قدرة الدولة نتيجة لتراجع دور الجيش والمدرسة على إدماج أفراد المجتمع في النظام الاجتماعي المهيمن، يقدم دولوز فلسفة تجعل التغيير الثوري مرهوناً بالنضالات الخاصة لمجموعات صغيرة مثل الشباب والنساء والشواذ والأجانب، تحاول أن تنتزع مجالاً للممارسة طبقاً لقواعدها الخاصة المستقلة عن قواعد النظام العام.

يعتبر بعضهم أنّ هذه الصياغة لفلسفة دولوز حول الثورة هي فلسفة للفوضوية، كون الرغبة هي أحد اشتقاقات العصبية أو أنها تتضمن نزعاتها، وهي المحرك لمفهوم الشعبوية. إلا أنَّ احتواء ظاهرة شباب 68 على بعض العناصر الشعبوية . من حيث اعتبارها فوضوية وانطلاقاً من الشغب الذي أثارته

في المدن التي امتدت إليها . لا يدفعنا إلى تصنيفها كإحدى الحركات الشعبوية، على الرغم من أنّ انتقادات كثيرة وجهت إليها. فالآن بوديو، على سبيل المثال، انتقد هذه الفلسفة واحتفاءها بالرغبة في مواجهة عمليات التحجيم الاجتماعي. كذلك يعلق د.أحمد عبد الحليم عطية بأن[8] "دولوز يقدم نمطاً غريباً للإنسان الثوري، إنه شخص لا يعرف على وجه التحديد من هم الذين سيجدر به مواجهتهم، وليست لديه أدنى فكرة عن شكل المجتمع الذي سيتحقق بعد الفعل الثوري"، علماً أن دولوز نفسه يضع سقفاً فيما بعد لهذه الحركات فيقول: "إذا كانت القدرة تعني السيادة، فإن الدولة ستكسب دائماً، هذا إذا انطلقنا من احتمال تحديد الاقلية في إمكانية أن تصبح غالبية، أو في قلب النظام، أما إذا كانت القدرة تعني الابتكار وقلب الشيفرات وإجراء عمليات الترحيل، والتي تتم جميعها على المستوى الذري، فإن الدولة، هنا، ستخسر لا محالة، لأنه ليس بمقدورها مراقبة كل شيء، كما أنّ قدرتها على الاحتواء محدودة".

إنّ ما توخاه دولوز ليس الانقضاض على النظام، بل الدفع إلى انتزاع المزيد من الحريات للإنسان في ظل النظام.

هذا الأمر الذي يتبناه أيضاً الكسندر دونّا في توصيفه

---

(8) المرجع نفسه.

للحركات التي يطلق عليها اسم الحركات الشعبوية في الغرب، بحيث يعتبر بأن هذه الحركات[9] "تبقى في سياق المطالبة بالمزيد من الديمقراطية أو تكون بمثابة عودة إلى المصدر الشعبي للسلطة في غياب مشروع جماعي". أما الشعبوية بالنسبة إليه فيضرب لها مثالاً الحركة البولانجية والبوجادية في فرنسا بحيث يعتبرها "ظاهرة عابرة تنتهي بالعودة إلى الوضع القائم".

وفي هذا السياق لا بد من الوقوف عند مغامرة الجنرال الفرنسي جورج بولانجيه للمزيد من التوضيح حول الظاهرة الشعبوية.

فهذا الجنرال الذي تولى وزارة الحربية بين العامين 1886-1887 في ظل الجمهورية الثالثة في فرنسا، يعتبر من أكثر النماذج الشعبوية التي عرفتها هذه الأخيرة، فهو كان قاب قوسين أو أدنى من القيام بانقلاب عسكري يطيح بالجمهورية الثالثة في فرنسا، وهو، وبعد أن عيّن وزيراً للحربية، راح يكثف اعتناءه بشعبيته، وعندما علم بالفرق العسكرية المرسلة لضبط إضراب نظّمه عمال مناجم الفحم هناك، أمر الفرق العسكرية بأن يتقاسموا الخبز مع العمال

(9) دونا، الكسندر، مقالة بعنوان: "هل يجب أن نخاف من الشعبوية"، الموند ديبلوماتيك، تشرين الثاني 2003.

المضربين، مستثيراً بذلك حماسة المواطنين من كل صوب. كما أنّ الشعب كان يتراقص حماسة لخطاباته النارية، التي جاءت في وقت عانت فيه الحياة البرجوازية المنتظمة في الجمهورية الثالثة ركوداً، فجاء هو ليكسر الركود ويقدم استعراضات بطولية أمام الفرنسيين ويزين بالأحلام الجميلة مخيلات العمال والفلاحين، ويستنفر الروح العسكرية لدى أفراد الجيش وضباطه، حتى غدت صورة الجنرال تخيم فوق السحب المترصدة للجمهورية الثالثة، إلا أنَّه وفي اللحظة الحاسمة التي كان ينتظر منه أن يبدي شجاعةً، ويظهر مدى قوته أصابه الإرباك وعجز عن اتخاذ القرار المناسب، في اللحظة المناسبة، وفر هارباً إلى بروكسل حيث قضى فيها انتحاراً عام 1891.

إنّ هذه الصورة يجمع المثقفون على استحالة تكرارها في المجتمعات الحديثة. وفي وقت تتكرر هذه الظاهرة في مجتمعات العالم الثالث، فكم من جنرال لم يترك بطولات إلا واستعرضها أمام شعبه، ولم يترك عدواً إلاّ وهدده بالزوال، وساعة الاستحقاق تتوارى البطولات نظراً لتكبير حجم القدرات عما هي عليه في الواقع، فيترك جماهيره خلفه ويفر هارباً.

1- صحيح أنّ هناك حركات تصنف اليوم بالشعبوية، إلاّ أنَّها مختلفة جذرياً عما كانت عليه في السابق، والأصح أنّ

نحمّل هذه الحركات، ملمحاً شعبوياً، أكثر من تصنيفها بالكامل كحركاتٍ شعبوية. فهذه الحركات، المستجدة على المجتمعات الغربية يعود انبعاثها كما يقول الكسندر دونّا[10] "إلى أزمةٍ تجتاح الديمقراطية التمثيلية؛ والأزمة كونية، أي لا سابق لها، ويبدو أنّ تأثيرها النفسي يتصاعد إعلامياً. فالاضطراب المفاجىء . وغير العنيف بالضرورة . في البنى الاجتماعية والسياسية بفعل العولمة الليبرالية، يترافق مع تشويشٍ موازٍ في البنى النفسية والعادات والتخيلات؛ فالكبت المتراكم يولد شيئاً فشيئاً خيبة أمل. إن القدماء لا يجدون أنفسهم في جمهورية المحدثين الحزينة والمستسلمة ولا في المجتمع "الاجتماعي الليبرالي" السلطوي والمنغلق بشكل متزايد، إلى درجة أنّ البديل ليس مفرحاً: إما الانفجار وإما الانبجاس الامتثالي. ولا مفرعندها من تحديد الداء، ويمكن اعتبار الشعبوية بمثابة حمى، وإذا كانت الحمى إشارة إلى المرض فهي ليست المرض في عينه".

والشعبوية برأيه لا تبرز من العدم، فهي مرتبطة بأزمةٍ اجتماعية وبوجود عوارض الإحباط العام. فالجمود لدى النخبة الحاكمة يؤدي إلى المراوحة السياسية فيتفسخ الإيمان بالأمة ويصبح المستقبل محفوفاً بالمخاوف. يتحول الشك إلى

---

(10) المرجع نفسه.

صمت متواطىء وإلى فردية ضيقة بقدر ما هي مجردة، تحل محل الروح المدنية الحماسية للأفراد.

وفي تحليله لظاهرة احزاب اليمين المتطرف في أوروبا الغربية يعتبر زيزاك، أنّ المشاريع التحررية وحراك الحركات المتطرفة في أوروبا ليست المكان الذي تنتظم فيه الشعبوية فيقول[11] "إنّ المهمة الرئيسية للسياسات المعاصرة، أي مشكلة حياتها أو موتها، هي أن تجد شكلاً من أشكال التعبئة السياسية أو الحشد السياسي الذي رغم كونه ناقداً للسياسات المؤسساتية لكنه يتجنب الإغراء الشعبوي".

ويرى أنه في نهاية المطاف، يؤيد الشعبوية، الأشخاص العاديون الذين تفاقمت حدة الضغوطات عليهم، هي صرخة من نوع "لم أعد استطيع التحمل، والمتابعة"؛ فالشعبوية ليست حركة سياسية محددة كما يؤكد زيزاك، إنها "العامل السياسي في أصفى حالاته، أي "انكسار" المجال الاجتماعي الذي يؤثر في أي محتوى سياسي... تتجلى الشعبوية عندما يكون هناك مجموعة من الطلبات ذات الطابع الديمقراطي، من مثل ضمان اجتماعي، خدمات صحية أفضل، تخفيض ضرائبي، طلب ضد الحرب الخ، إنها ترتبط بسلسلة من التعادلات، وهذا التسلسل ينتج "الشعب"على أنه

---

(11) Zizek, Slavoy, In defense of lost causes, verso 2008.

الذات السياسية الأشمل. إنّ ما يميز الشعبوية ليس المحتوى الخاص لهذه الطلبات بل بروز الشعب كذات سياسية، وهنا كل الصراعات الخاصة والتناقضات تظهر كأجزاء أو قطع من صراع سياسي بيننا، نحن "الشعب" و"هم" (أي النخب الحاكمة).

نجد في ما تقدم، تجنب مفكري الغرب التعاطي مع حركات اليمين المتطرف في أوروبا باعتبارها حركات شعبوية، وهي، وإن تطلع بعضهم إليها على اعتبارها كذلك، فهو يعود ليؤكد أنها محكومة بانسداد الأفق، وفرصتها في الانفلات من عقالها قد تكون مستحيلة، بحيث إنّ تطور تلك المجتمعات وعقلانيتها، والقدرة على المحاسبة فيها، ستكبح جماحها وتبقيها تحت سقف قاسٍ من الضوابط. قد تكون هذه الظاهرة قادرة على التحرك انطلاقاً من الهامش الكبير من الحريات السياسية لتلك الأنظمة، إلاّ أنَّها تبقى أضعف من أن تواجه الدولة هناك، فهذه الأخيرة ستكون حكماً هي المنتصرة في نهاية المعركة.

صحيح أنّ انبعاث هذه الحركات مقلق، لكنه ليس مخيفاً، وتعرف هذه المجتمعات كيف تتحرك تجاه هذه الظواهر، كما تعرف كيف ومتى تتدخل، لتعيد الامور إلى نصابها عند استشعارها بخطر حقيقي يتهدد الانجازات التي تحققت في مسار تاريخها الحديث.

ويمكن للمتابع أن يتبين ذلك في أبسط التفاصيل وأدقها.

كيفية تعاطي الغرب مع الظواهر الشعبوية

سنورد مثالاً يبين لنا صوابية ما ورد آنفا. لقد أجري منذ مدة استطلاع للرأي في فرنسا، حول أكثر الشخصيات التي يتمنى الفرنسي صفعها، وكانت النتيجة تصّدر كارلا بروني، زوجة الرئيس نيكولا ساركوزي المرتبة الأولى. ووفقاً لمجلة "VDS" التي أجرت الاستطلاع، فإن هبوط شعبية بروني يعود إلى أسلوب حياتها البرجوازي، فهي تعيش في برج عاجي، وفي جزء آخر، لأنها وبأسلوب حياتها، تذكر الفرنسيين والجمهوريين خاصة، بماري انطوانيت .

إذن الفرنسيون يريدون صفع كارلا بروني، وهذه الرغبة في الواقع لا تعود لمجرد أسلوب حياتها الذي يشبه أسلوب حياة ماري انطوانيت فقط، بل يودون صفعها، لأنها حركت في مخيلتهم حقبة تاريخية كاملة مثلتها ماري انطوانيت، تلك الحقبة، يقاومها الفرنسي إلى أي شريحة اجتماعية انتمى، ولا يريد لأي صورة أن تذكره بها، فهي تماماً، كما ذكر تاغييف، يجب أن تبقى في الماضي.

في حين أنه ومقابل هذه الصورة، وعلى ضفة أخرى من ضفاف العالم، وفي الارجنتين تحديداً، فان صورة إيفيتا بيرون وذكراها كانت تقف خلف مشهد اعتلاء كريستينا

فرنانديز كيرشنر سدة الرئاسة هناك. فقد اظهرتها الصحف في صورة، يرفرف في خلفيتها العلم الارجنتيني، بينما تلف رأسها هالة من أشعة الشمس، وبدت الصورة وكأنها تستحضر إلى الذهن صورة عذراء لوجين، الشخصية التي تجذب غالبية المتدينين في الارجنتين، علاوة على صورة إيفيتا، التي كان الفقراء يقدسونها بينما كانت لا تزال على قيد الحياة، لا بل وحتى بعد مماتها.

وبالمقارنة مع الصورة الأولى، التي تظهر لنا كيف سحب الفرنسيون بساط التأييد من تحت أقدام زوجة الرئيس الفرنسي لأنها أعادت إحدى صور العصور الظلامية، التي كافحت تلك المجتمعات عقوداً طويلة للخروج منها. نجد أنه، وفي الوقت نفسه، صورة مماثلة لكريستينا كيرشنر، تقدم لنا واقعاً متناقضاً بشكل كامل، بحيث إنّ هذه الأخيرة لم تكن قادرة على الوصول إلى سدة الرئاسة في الأرجنتين، لو لم تمد يدها لتنهل من الماضي، وتحاكي المخيال الأرجنتيني من خلال تلك الصورة التي يعشقها، صورة إيفا بيرون.

إنّ الماضي، الذي يرفض الفرنسيون استحضاره، أو التطلع إليه، يشكل المنهل في الأرجنتين، وقبلة تطلعات جماهيره.

والواقع أنّ الفرق بين الواقعتين، وردة الفعل عليهما، هو نفسه الفرق بين مجتمعات العالم الثالث والمجتمعات الحديثة.

فقد نجد الظاهرة نفسها في كل منهما، إلا أنَّها لا تعمل بالطريقة نفسها.

وإذا كانت الشعبوية، كما يتفق كثيرون على اعتبارها ديماغوجية، وتقوم على تضليل الرأي العام بخطاب وجداني انفعالي، فإنّ الرأي العام الغربي سيتفاعل بطريقة مختلفة عن تفاعل الحشود الجماهيرية في العالم الثالث. وقد تتقاطع هذه الظاهرة بين كل منهما على بعض النقاط المشتركة لكنها من دون شك تختلف وتفترق جذرياً عند نقاط أخرى، كما أنّ مصيرها ليس محكوماً، بالقدر نفسه في كل منهما. هذا إذا سلّمنا، بأن الحركات التي بدأت منذ ثمانينيات القرن الماضي تطل برأسها في كل من المجتمعات الحديثة ومجتمعات العالم الثالث على حد سواء، تعتبر جميعها حركات شعبوية، حيث إن الخلفية لكل شعب من هذه الشعوب مختلفة كلياً وبشكل جذري عن بعضها بعضاً، وهذه الخلفية هي في الواقع التي تحكم طبيعة التفاعل مع هذه الظاهرة، وترسم حدودها، وتتحكم بنهاياتها.

هنا قد يعترض بعضهم ليقول، إنّ ظاهرة "حزب الشاي" في الولايات المتحدة الأميركية، نهلت أيضاً من الماضي، وهي حركة شعبوية من ناحية تشكلها، وخطابها، وآليات عملها، واستطاعت تغيير واقع معين في انتخابات الكونغرس مؤخراً، وهذا صحيح، إلاّ أنَّ العبرة تبقى في المصائر التي

ستواجهها هذه الحركة عند ملامستها للسلطة في نظام ديمقراطي، ولدينا نموذج سابق يمكن الاعتماد عليه في المقارنة، وهو ما حدث في الهند. فالكل يعلم أنّ للهند ديمقراطية متجذرة، ومؤسسات دستورية، وقد عرفت حركات شعبوية تمكنت من الوصول إلى سدة السلطة، ومن خلال انتخابات حرة، إلاّ أنّهم وبعد انتصارهم، لم يتمكنوا من التغيير، لا في الدستور، ولا استطاعوا السيطرة على أجهزة الأمن، والمؤسسة القضائية؛ إنّ أقصى ما كانوا قادرين على القيام به، الانضواء تحت سقف المؤسسات القائمة، لقد خضعوا للقوانين، وهم نجحوا، ومن بعدها، خسروا الانتخابات وعاد حزب المؤتمر إلى السلطة. وهذا يدّلل على أنّ الحركات الشعبوية في الأنظمة الديمقراطية، ولو تمكنت من تسّلم السلطة، فإنها ستخضع للمؤسسات فيها، ولن يكون لها القدرة على إخضاع تلك المؤسسات لها، كما تتوخى عادة الحركات الشعبوية في انطلاقتها وخلال مسارها. فلطالما كانت الحركات الشعبوية، حركات تقف، في مواجهة مشروعات الحكم القائمة، وتنزع إلى تقويضها وإحلال أخرى مكانها.

إذن، وانطلاقاً مما تقدم يتبين لنا أنّ الديمقراطية، صخرة تتكسر عليها الأمواج الشعبوية في المجتمعات الحديثة، في حين أنها في مجتمعات العالم الثالث، تحضر بقوة، وهي

كالتسونامي، قادرة على جرف كل ما يصادفها وما من شيء يستطيع إيقافها.

تفاعل مجتمعات العالم الثالث مع الشعبوية

على عكس ما هو سائد في المجتمعات الحديثة، تشكل مجتمعات العالم الثالث تربة خصبة للظاهرة الشعبوية. ولطالما عرفت هذه المجتمعات، الشعبوية والشعبويين، حتى اعتبر بعضهم، أنّ العائق الحقيقي في وجه ولوج الديمقراطية إلى تلك المجتمعات، يعود بشكل رئيسي إلى الظاهرة الشعبوية .

يتوقف برهان غليون عند تلك الظاهرة، ففي سياق حديثه عن أسباب تدعيم بنية السلطة الاستيلائية، وبالتالي إعادة إنتاج النظام التسلطي في المنطقة العربية، يعتبر أنّ الشعبوية، تمثل أحد أهم العوامل، التي تكرّس هذا الواقع لكونها تسيطر على عمل النخب الاجتماعية، بما في ذلك موقع المعارضة، ويضيف[12]: "لقد نشأ النظام المجتمعي الحديث لهذه البلاد مثل العديد من البلاد النامية، في ظروف تاريخية محدّدة، هي ظروف التحرر من الاستعمار، وما أحدثه من آمال، وبثه من قيم، ومطالب اجتماعية تتعلق بتحقيق الحرية

---

(12) غليون، برهان، بحث بعنوان: "معوقات الديمقراطية في الوطن العربي"، عن الموقع الإلكتروني www.aljazeera.net.

والعدالة والمساواة والتنمية واللحاق بالدول الصناعية. وقد سعت النخب الحاكمة، التي أدركت منذ البداية عجزها عن تلبية هذه المطالب، والرد على التوقعات الشعبية الكبرى، والآمال العريضة، إلى تجاوز الهوة العميقة بين الشعارات المرفوعة، والممارسات المحدودة النتائج، وأحياناً المعدومة الفعالية، عن طريق تشجيع الشعبوية، أي الغوغائية الوطنية، التي لا تقوم على محاسبة فعلية، ولا على تحقيق أهداف وبرامج حقيقية وواضحة". بمعنى أنه بدلاً من محاولة بناء دولة، اتجه قادة التحرر الوطني، إلى الحلول الأسهل، إلى الشعبوية، التي تخلق في المجتمع حالة هيجان دائم، بهدف تحقيق شعارات صعبة المنال، مما يشغل الجماهير عن وضعها الاجتماعي، والاقتصادي والحياتي والإنساني، لأن هناك شروراً أكبر عليهم مواجهتها. ويعتبر برهان غليون أن النخب الحاكمة وفي العالم العربي تحديداً نجحت في[13] "إرضاء الشعب بعبارات وطنية طنانة وجوفاء، مقابل ممارسات انهزامية في العمق، واستسلامية في الواقع.. ولا تزال هذه الشعبوية، التي توفر على النخب الحاكمة والمعارضة معاً، السعي الجدي والشاق، إلى إيجاد حلول عملية للمشكلات المطروحة، تحكم إلى حد كبير الممارسة

---

(13) المرجع نفسه.

الجماعية العربية، على الرغم مما أظهرته من لافاعلية، وخسارتها جميع المعارك التي خاضتها منذ الاستقلال.. والواقع أن الشعبوية التي تجمع بين المبالغة في إرادة تأكيد الذات، والاستقلال والسيادة، وجبن الممارسة وانفعاليتها المفتقرة للعمل الجدي والمنظم والعقلاني طويل المدى، لا تكف عن تنمية التناقض والتفاوت بين طموحات كبيرة جداً وفعالية ضعيفة جداً، وبالتالي عن أن تكون مصدراً مستمراً لتغذية مشاعر الإحباط والانكسار العميقة التي تنخر اليوم معنويات الشعوب العربية وتفقدها ثقتها بذاتها وبالمستقبل".

وعن سيطرة الشعبوية على عمل النخب الاجتماعية حتى موقع المعارضة، ينقل إلينا سامح سعيد عبود صورة عن الأحزاب المعارضة للنظام في مصر قبل سقوطه، كذلك ينقل وقائع حفل افتتاح مركز العدالة للدراسات الاجتماعية في القاهرة، فيقول[14] "حضر ممثلون عن الإخوان المسلمين والقوميين العرب والماركسيين فضلاً عن جمهور متنوع من اليساريين... وقد نوه المتحدثون الرئيسيون من ممثلي الاتجاهات السياسية المدعوة للحفل بأنهم على الرغم من

---

(14) عبود، سامح سعيد، مقالة بعنوان: "الصراعات الاجتماعية وليست الشعبوية أو النخبوية"، عن الموقع الإلكتروني http:\\f asail.blogspot.com

الاختلافات في ما بينهم، فهم جميعاً قوى وطنية تجمعهم بالرغم من الاختلافات هموم الوطن والجماهير والشعب... تلك التركيبة... يمكن أن نطلق عليها (الشعبوية-النخبوية)، مهما لوّنت خطاباتهم المختلفة، سواء أكان ذلك باحمرار الماركسية اللينينية أو باخضرار الإسلام السياسي، وما حديثهم الحماسي المبتذل عن الجماهير والشعب والوطن والأمة إلاّ لتغطية نهمهم للسلطة، وما استخدامهم لهذا الاسلوب سوى وقود لسوق الجماهير إلى صراعات لا ناقة لها فيها ولا جمل... تلك الجماهير القابلة ليس للتضليل والإيحاء وغسل العقول فقط. بل للبرمجة أيضاً، وذلك من خلال ما تنتجه تلك النخب السياسية من خطابات أيديولوجية، وما تنتجه النخب المثقفة من معرفة وثقافة، والتي من خلالها يضمنون الاندفاع الجماهيري الأهوج وراء خطاباتهم الغوغائية من أجل تلبية مصالح النخب السياسية في الاستيلاء على السلطة... يحفل اليسار التقليدي بالكثير من الميول الراجعة إلى طبيعته الطبقية وأساسه الاجتماعي، وسأركز هنا على إثنين من هذه الميول، الأول الميل الشعبوي عند هذا اليسار، والذي يرجع لتعمده إخفاء المصالح الحقيقية التي يدافع عنها والأهداف الحقيقية التي ينشدها، وذلك بالاستناد إلى ادعاءات تمثيل كيانات مطلقة كالوطن أو هويات جماعية مجردة كالشعب والجماهير، أو

الطبقات الشعبية، فهو لا يكل من الحديث عنها وباسمها برغم عدم تفويضها لأحد التحدث باسمها... إنهم يتملقون الجماهير... فيربطون على سبيل المثال في بلادنا بين المفاهيم الحديثة كالاشتركية وحقوق الإنسان، والديمقراطية المرتبطة أساساً بنمط الإنتاج الرأسمالي، وبين الاسلام باعتباره دين الغالبية من الجماهير، وذلك لتحقيق شعبية قائمة على النفاق مع الجماهير وتملق تدينها وتعصبها، وبلا شك، فإنّ ما يمارسه الشعبويون هو انتهازية... هذه هي ثورة اليسار الشعبوي الذي يساوي ما بين الوطنية والشيوعية... واليسار الشعبوي يقدس أيّ تمرد غوغائي وديماغوجي ضد ما يعتبره عدو الشعب... ومن ثم فإنهم يعتبرون الإسلام السياسي حركة تحرر وطني معادٍ للإمبريالية لا بد من التحالف معه".

وعن هذا الإسلام السياسي، يتحدث د. شاكر النابلسي عن الحركة المعارضة الأكبر في مصر (حركة الاخوان المسلمين)، فيقول بأنها[15]: "تتمسك بخطاب صوفي متخيل، وتنشر خطابها الديني الشعبوي في الأرياف والأطراف والطبقات الفقيرة والأمية... وتمزج هذا الخطاب بالخرافات والأساطير والشعوذات وتقديس الزعماء والقادة

---

(15) النابلسي، د. شاكر، مقالة بعنوان: "مصر أم الدنيا وأم الأصولية أيضاً"، عن الموقع الإلكتروني www.ahlquaran.com

ورجال الدين... الخطاب الديني الشعبوي الذي تنشره الأصولية، وخصوصاً المصرية... انتشر في كثير من أنحاء العالم العربي... فالإخوان المسلمون انطلقوا من مصر منذ 1982 وانتشروا في أنحاء العالم العربي كافة".

تضج المجتمعات العربية، بالشعبوية وبالشعبويين، وكأنها أصبحت لاهوتاً سياسياً في مجتمعاتنا. ويرى عبد الله بلقزيز بأنه وفي بلادنا العربية[16] "كان شعبويو الأمس يساريين (وأكثرهم كان مادياً ولم يكن لينينياً أو تروتسكياً) وتصوروا الشعب على مثالهم، معادياً للرأسمالية، مناهضاً للبرجوازية شغوفاً بالثورة الاجتماعية وبالاشتراكية، مالكاً للحقيقة، متمسكاً بحقوقه الاجتماعية، ومدركاً لمصالحها الموضوعية والطبقية، ولكن انكسار الطوبى الثورية، أخذ الشعبويين اليساريين إلى حتف الأحلام، وتفرقت بهم السبل، فمنهم من قضى نحبه السياسي، ومنهم من بدل وانتقل، ومنهم من ينتظر. ثم صار الشعبويون اليوم - إسلاميين، أعني حركيين سياسيين يلبسون لأدوارهم لباس الإسلام، فأتوا يرددون ما فعل أسلافهم اليساريون من كيل المديح للشعب، والظن بسلامة فطرته، ويسر هدايته، وتوسلوا، مثل أسلافهم - بلغة

---

(16) بلقزيز، عبد الاله، مقالة بعنوان: "الشعبوية وميتافيزيقيا الشعب"، جريدة الحياة، تاريخ 18/ 2/ 2009.

التحريض والتجييش، ليعيدوا بذلك، إنتاج مأزق السياسة نفسه".

أما عبد الله أومليل، فيعتبر أن هذا المفهوم آل إلينا من الغرب؛ فالغرب، كان قد استعمل مقولة الشعب لمواجهة الحكم المطلق. وبما أن السيادة[17] "هي للشعب، وليست للحاكم المطلق، فإن المعنى الحديث للشعب كفاعل سياسي كلي، قد استعمل لمواجهة النظام الاستعماري. فلما كان العدو واحداً وهو الاستعمار، والهدف واحداً وهو الاستقلال، فالأفضل أن نواجه الاستعمار شعباً واحداً مرصوص الصفوف. لذلك لم تكن التعددية السياسية والحزبية محبذة آنذاك، وساد الساحة الوطنية في الغالب حزب وطني كبير باعتباره ممثل الشعب ووكيل الأمة".

وقد ورثت دولة الاستقلال هذه الإيديولوجية الشعبوية بمبررات أخرى، فما دام الشعب قد حقق استقلاله وهو موحد الصف، فإن معركة استكمال الاستقلال، والتحرر من التبعية، وكسب رهان التنمية، يقتضي أن يظل الشعب موحداً. إلا أنَّه وبعد انجاز الاستقلال، يعتبر أومليل، أن بقاء الشعب موحداً، أمر لا يستقيم مع واقع الأمور، لأن الحياة السياسية

---

(17) أومليل، د.علي، محاضرة تحت عنوان "الشعب والشعبوية"، ألقيت في منتدى عبد الحميد شومان الثقافي.

يفترض أن تقوم على التعددية السياسية، والأفكار والمصالح. لذلك من الأفضل التوجه لبناء دولة ديمقراطية، ذلك الشكل من الحكم الذي يعتبر أفضل نظام لإدارة التعدد، إدارة تقوم على المنافسة السليمة والقبول بالاختلاف وتدبيره ديمقراطياً، إلا أنَّ ما حصل، أن هذا التوجه للشعب قد انقلب إلى أنظمة ديكتاتورية.

كذلك يرى د. فالح عبد الجبار وفي معرض توصيفه لواقع العالم العربي منذ نصف قرن تقريباً، أن الثقافة السياسية كما العلوم السياسية في العالم العربي، منشغلة عن موضوعة الديمقراطية، أي البنية المؤسساتية للدولة ونواظم عملها وتقسيم السلطات . حكم القانون . وعلائقها بالمجتمع، بمواضيع أخرى، تسد الأفق الفكري منذ الخمسينيات، مثل الوحدة القومية، أو التنمية، أو الاشتراكية أو التحرر أو الإسلام السياسي أو الأصالة.

أواخر الثمانينيات من القرن المنصرم، بدأ حديث خجول عن[18] "المجتمع المدني والديمقراطية، بدأه حسب عبد الجبار، بعض التنويرين القوميين، استجابة لتحولات أوروبا الشرقية وأميركا اللاتينية بانهيار النظم التوتاليتارية والعسكرية التسلطية، غير أن حرب الخليج 1991، والانتفاضة

---

(18) عبد الجبار، د.فالح ، ما بعد ماركس، دار الفارابي.

الفلسطينية الثانية، وصعود ليكود، أدت جميعها إلى إسكات هذه البداية، وسرعان ما عادت الموضوعات القومية (إزاء خطر خارجي) لتهيمن على الأفق، عاد العالم العربي القهقرى إلى قوقعته السابقة، مستكيناً إلى رهاب الغرب، وفوبيا الآخر، هذا المخرج الأيسر لتعليق كل التبعات على مشاجب الغريب... وفي عالمنا العربي، يقف الفكر الديمقراطي نبتة هشة تماماً بإزاء تيارين: الاجتماعي، والقومي. المدرسة الاجتماعية تمحض الدولة الراعية ما يشبه حق البكورية الإقطاعي، في احتكار الحكم مقابل دفع التنمية، وتوفير الخدمات الاجتماعية على حساب الشرعية الدستورية، والمحاسبة، والانتخاب. في حين أن المدرسة القومية، تضع التحرير القومي بمعناه الواسع أو الضيق أو بمعناه الحقيقي أو المتخيل، محل التعارض مع الديمقراطية ومع حركات إذكاء الصراع، للجم أنظمة الحكم التسلطية. وقد ولدت الليبرالية مع جيل السياسيين المنحدرين من عوائل الأعيان والوجهاء المعتمدين على الملكيات العقارية.أما مدارس الاحتجاج الاجتماعية، والقومية، فولدت من أوساط الفئات الوسطى ذات التعليم الحديث. من هنا سهولة، بل واقع تداخل هاتين المدرستين تداخلاً، أدى إلى نشوء دول تسلطية (عسكرية في الغالب) تقوم على نظام الحزب الواحد، والاقتصاد الأوامري. حتى بديلها الشعبوي، بصيغته الأصولية الإسلامية،

تشّرب الكثير من أفكار هاتين المدرستين وشعاراتهما... ولا يزال العالم العربي حتى الآن يساحل على ضفاف هذا التفكيك، في وجل. وقبل نحو ثلاثة قرون، سخر مونتسكيو، صاحب روح الشرائع، من هذه المساحلة قائلاً: "إذا لم نكن نمتلك الأشياء فلنملك إذاً مظاهر الأشياء".

واليوم يبدو أن تغييراً ما سيطرأ على المشهد السياسي في العالم العربي، فثورة الياسمين، التي انتقلت عدواها إلى مصر، وليبيا واليمن والبحرين والعراق وسوريا والاردن... المستقبل وحده سيحمل لنا الجواب عن سؤال، ما إذا كانت هذه الثورات ستكون قادرة، ليس على الإطاحة بديكتاتوريي البلدان العربية وأنظمتها السلطوية فقط، بل أيضاً بقدرتها على إحداث قطيعة مع الماضي والتأسيس لمرحلة جديدة تكون الديمقراطية المرتجى والهدف منها، أم أننا سنكون أمام استيلاد جديد للمتسلط القديم كما جرت العادة.

الشعبوية في دول أميركا اللاتينية

المشهد السياسي في العالم العربي لا يختلف كثيراً عن المشهد السياسي في بلدان أميركا اللاتينية؛ ففي ثلاثينيات القرن العشرين، ظهرت الشعبوية الأميركية اللاتينية، وارتدت كمثيلاتها في العالم العربي، ثوب الأمل المعقود على الأمة والعدالة الاجتماعية، كما أن بروز وجوهها الأكثر شعبية جاء

نتيجة سياسات حكومات ضعيفة وفاسدة. ويتحدث الكسندر دونّا عن التجربة الأكثر شهرة في تلك المجتمعات، وهي التجربة التي خاضها الزعيم خوان بيرون، والخطابات النارية لزوجته إيفيتا[19]: "فالبيرونية، كانت تجسد ثلاثة توجهات، القومية، ومعاداة الامبريالية، وتجاوز الصراع الطبقي، وقد استطاع بيرون إعطاء الضمانات للطبقات المحرومة. وهو ما يفسر الأسطورة البيرونية... وتوالت الحركات الشعبوية في سياق البيرونية، ولكن باسم مبادئ متناقضة وصولاً إلى الزمن الراهن: ففي الإكوادور، حيث اقترح الرئيس عبد الله بو كرم في شباط 1997 تشكيل حكومة من الفقراء وهو محاط بأكبر أثرياء البلاد، وكذلك في البيرو مع حكومة البرتو فوجيموري الليبرالية، أو أيضاً مع الرئاسة الاجتماعية لهوغو تشافيز في فنزويلا، فلقد نجح، هذا المجاز في العلوم السياسية من جامعة سيمون بوليفار، والعسكري الانقلابي السابق، في توحيد وتوجيه موجة شعبية عاتية كانت ترفض فساد الطبقة السياسية وتتحرق للتغيير". ويسجل دونّا ملاحظة، في سياق حديثه عن شعبويي أميركا اللاتينية، بأن الإيديولوجيا التي حملتهم إلى السلطة في الأمس، كانت اشتراكية أو قومية،

---

(19) دونا، الكسندر، مقالة بعنوان: "هل يجب أن نخاف من الشعبوية، الموند ديبلوماتيك، تشرين الثاني 2003.

لكن "النزعة الليبرالية، تفوقت في السنوات الأخيرة، كما ترجم ذلك كارلوس منعم في الأرجنتين، وفوجيموري في البيرو.

ويلاقيه روبرتو لاسيرنا في تناوله ظاهرة ايفو موراليس ذلك الزعيم الشعبوي في بوليفيا، الذي، وبعد نجاحه في تعديل الدستور، على النحو الذي يسمح بإعادة انتخابه بدأ[20] "يعيد استنساخ تقاليد الزعماء العسكريين المستبدين، في تركيز السلطة بين يديه وتحويل المؤسسات الحكومية إلى مجرد شكليات. ولكن الشعبية الهائلة التي ظل يتمتع بها... تشير إلى أن أغلب أفراد الشعب البوليفي غير منزعجين كثيراً إزاء تعريض الديمقراطية في بلادهم للخطر... إن نجاح موراليس يعتمد إلى حد كبير على مفارقة الشعبوية. فعل الرغم من قوله إنه يعارض الليبرالية الاقتصادية، فإنه شخصياً كان نتاجاً للحريات السياسية التي روجت لها الليبرالية الاقتصادية، والتي تغذت على الفوائد الناتجة عن اقتصاد السوق ... وعلى الرغم من الخطب الرسمية الرامية إلى دعم تدخل الدولة، فإن حكومة موراليس، تستفيد أساساً من طريقة عمل السوق،

---

(20) لاسيرنا، روبرتو، مقالة بعنوان: "ايفو موراليس والمفارقة الشعبوية"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.project syndicate.com تاريخ 11/ 4/ 2010.

ويغض الناس الطرف، عن فشل الخطط والمشاريع الحكومية بفضل السوق الداخلية الصغيرة، ولكن المتوسّعة، والتي تتغذى فعلياً على الليبرالية الاقتصادية، التي تشتمل على نمو صناعة تهريب وتجارة المخدرات... وهذه الأنشطة غير المشروعة ليست مقصودة ولكنها تعمل على زيادة دخول الفلاحين، وشركات النقل، وشركات البناء، ورجال الأعمال. وهذه هي مفارقة الإشتراكية في القرن العشرين: حيث تشكل الليبرالية الاقتصادية الأساس الذي تقوم عليه السياسة التي تطمح إلى تغيير هذه الليبرالية".

إنَّ ما ورد، يدفع إلى استشعار ما يعرف بالغش السياسي، الهادف إلى تضليل الرأي العام والذي يعتبر أحد أهم مكونات الشعبوية.

أما الآن وبعد هذا العرض الموجز للنماذج الشعبوية في العالم، وقبل تحليل هذه الظاهرة، لا بد لنا أولاً من أن نحدد معنى الشعبوية، ماهيتها، ما هي بالتحديد، ووفق أيّ آليات تعمل، ومتى يمكننا أن نصنف حركة ما بانها حركة شعبوية، بمعنى أنه، هل من لائحة بسمات محددة، يمكننا من خلالها أن نطلق على حركة ما صفة " شعبوية"، وهل هي حركة سياسية مرتبطة بأزمات معينة في المجتمعات، أم أنها ثقافة، أو إيديولوجيا، أو إحدى السمات القيادية، بمعنى أنها تتعلق بالشخصية القيادية، أم أنها إحدى سمات الجمهور

في لحظة معينة، أو نوعية خطاب، أو أسلوب في ادارة المعارك السياسية أو ادارة السلطة، أم إحدى الوسائل الدعائية التي تستعملها النخب الحاكمة في معرض التعبئة الجماهيرية، هذا ما سنحاول الوقوف عنده لتحديده والإضاءة على مكامنه.

الفصل الثاني

تعريف الشعبوية

إن إيجاد تعريف واضح، محدد، ودقيق لمصطلح "الشعبوية" مهمة ليست بالسهلة، حيث إنّ هذا المصطلح لم يحظ أسوة بغيره من المصطلحات في العلوم السياسية بالاهتمام الكافي من قبل الدارسين والباحثين في هذا العلم؛ فهذا المصطلح، لم يوضع من قبلهم على طاولة البحث، ولم يتم تناوله بشكل معمق وشامل، مما يتيح استنباط تعريف محدد وواضح له. لذلك، وعند القيام بالبحث عن تعريف وتحديد لمفهوم الشعبوية، نجد أنفسنا أمام مجموعة من التقديمات والتعريفات لهذا المصطلح، تنتهي بنا بعد قراءتها إلى الغموض نفسه الذي انطلقنا منه عند البحث عن معنى محدد لها. إنَّ التعريفات التي تناولته، كانت بمعظمها ضبابية، ولم تساعد كثيراً في تظهيره بشكل جلي. كما وأن معظم الباحثين، لم يخصصوا، أو لم يفردوا لهذا المصطلح، دراسات خاصة به، توفر مرجعاً للباحث إذا أراد القيام ببحث

حول هذا الموضوع. لذلك فإنّ معظم التعريفات التي تناولت المصطلح جاءت في سياق دراسة لمواضيع سياسية مختلفة، أو دراسات لحركات سياسية معينة في بعض المجتمعات، وقلة قليلة جداً منها أفردت له . كمفهوم سياسي . دراسات خاصة.

وفي محاولة لتلمس معنى دقيق وواضح للمصطلح، لا بد لنا بداية، من الوقوف عند ما تُرك من إرث عنه وهو إرث حديث بمجمله.

لا شك أنه وخلال عملية البحث عن أي مصطلح، فإنّ أول خطوة، تكون باتجاه القواميس والموسوعات التي تفيدنا بشكل دقيق ومختصر حول المفهوم. من هنا جاءت حصيلة البحث الأولى هذه التعريفات:

- "حسب قاموس[1] "Le petit Robert" وقاموس "المنهل " تشتق كلمة الشعبوية من كلمة أخرى ملتبسة هي "الشعب"، وهي نظرية الروائيين الشعبيين الذين يصورون بواقعية حياة عامة الشعب".

- أما في موسوعة ويكيبيديا[2] فالشعبوية "فلسفة سياسية،

---

(1) "Le petit Robert", dictionnaire. Qu'est ce que le populisme- http://info.france2.fr.

(2) The free encyclopedia, *Populist*, definition. www.wikipedia.com.

تحت الأنظمة الاجتماعية والسياسية على التغيير بتفضيل الشعب على النخب، أو عامة الشعب ضد أصحاب الثروات. الشعبوية تعمل ضد الرأسمالية".

- أما تاغاييف فيرى أنّ[3] "جوهر مفردة الشعبوية هو "الشعب" وبالتالي، فالنداء الموجه إلى الشعب يعبر عن شكل عادي من الديماغوجية، بمعنى، مخاطبة الجانب العاطفي والمخيالي للإنسان وليس قدراته الفكرية... لا يوجد عقيدة متماسكة، أو ايديولوجيا اسمها الشعبوية، هناك شعارات، أو نوع من التوليف بين الاحتجاجات الشعبية وبعض التركيبات الايديولوجية... وتنسجم الشعبوية من حيث المبدأ مع كل الايديولوجيات (العالمية، الإشتراكية، الفاشية، الفوضوية الخ). لكونها أسلوباً سياسياً. وإذا افترضنا أنّ هناك أيديولوجيا للشعبوية فإنه بالضرورة أن تكون على علاقة بالبعد الاسطوري. ويجب أن لا نهمل هذا البعد الاسطوري الذي يظهر من خلال فكرة، وحدة الشعب، أي بمعنى أن يكون الشعب كتلة واحدة، بحيث إنّ هذه الوحدة تعطيه هوية أو صورة واحدة في وجه النخب، وضد هذه النخب".

---

(3) Taguieff, *L'illusion Populiste*. Essai sur les démagogies de l'âge démocratique. Champs-Flammarion.

- وحسب ألكسندر دونّا، فإن كلمة الشعبوية[4] "تشتق من كلمة أخرى ملتبسة هي "الشعب"، والخطاب الشعبوي، يفترض التوجه مباشرة إلى الجماهير، وفق تقويم إيديولوجي للنيات والنتائج، لذا لا يمكن اعتبار الشعبوية تلقائياً حركة رجعية ديماغوجية، أو فاشية، كما يصنفها بعضهم. الشعبوية هي ظاهرة انتقالية، سطحية ومؤقتة، تبرز في إطار أزمة عامة، ووضع سياسي اجتماعي يصعب احتماله بالنسبة للأكثرية. إنها جرس إنذار عال أكثر منه انفجار يدمر كل شيء. والشعبوية، لا تهدف بالضرورة إلى تغيير النظام بشكل نهائي. وبالطبع إذا لم تصل الرسالة إلى الطبقة الحاكمة، فإن الاستعانة بالشعب تمثل الحل البديل من الوضع المأزوم. فالمفتاح ليس في اليقظة الاجتماعية المرافقة للظاهرة، بل في العمق العاطفي الذي يحركها، إذ إن التماسك هنا ليس اجتماعياً بل هو نفسي. إنها ردة فعل غاضبة ومشككة في المؤسسات والقوى المهددة للأساطير القومية التأسيسية ... الشعبوية لا تطرح نفسها كفكرة فريدة من نوعها أو نظرية شاملة ولا كمفهوم للإنسان والمجتمع بل هي قبل كل شيء رغبة في إعادة الملكية المشتركة للجميع. لذا لا يعتبر أرنستو لاكلاو،

---

(4) دونّا، الكسندر، مقالة بعنوان: "هل يجب أن نخاف من الشعبوية"، الموند ديبلوماتيك، عدد تشرين الثاني 2003.

الشعبوية حركة نقدية لمجتمع، ولا نظاماً دولتياً، بل ظاهرة إيديولوجية يمكن أن تنشأ داخل المنظمات، وأنظمة الحكم، والطبقات الاجتماعية، والتشكيلات المتنوعة والمتنافرة".

- اما زيزاك فيعتبر، أن الشعبوبة ظاهرة سلبية وعقيمة ويقول[5] "نعرف جميعاً تلك الطرفة عن الرجل الذي أضاع مفتاحه في العتمة، وقصد بقعة مضاءة للبحث عنه، وعندما سئل عن بحثه في المكان الذي لم يفقد فيه المفتاح، فأجاب: إنه يبحث تحت الضوء لأن الرؤية أفضل. إن هذه الخدع نجدها دائماً في الشعبوية. فهذه الأخيرة، ليست المكان الذي يجب أن تنتظم ضمنه المشاريع التحررية. ويضيف إنّ الشعبوية ليست حركة سياسية محددة، إنها العامل السياسي في أصفى حالاته "أي انكسار المجال الاجتماعي الذي يؤثر في أيّ محتوى سياسي". كما ويضفي على الشعبوية بعداً "فاتيشياً" أي "صنمياً"، بحيث إنه يرى في الظاهرة الشعبوية قدرة فائقة على إحلال رغبة مكان رغبة.

- أما برهان غليون فيعرّف الشعبوية باعتبارها[6] "غوغائية وطنية، لا تقوم على محاسبة فعلية، ولا على تحقيق أهداف

---

(5) Zizek, Slavoy, *In defense of lost causes,* Verso, 2008.

(6) غليون، برهان، بحث بعنوان: "معوقات الديمقراطية في الوطن العربي"، عن موقع الجزيرة الإلكتروني: www.aljazeera.net

وبرامج واضحة وحقيقية، إنها عرس دائم وتماه مستمر بين الشعب والقيادة، من خلال الاحتفاء، والتمجيد، والتقديس ... تعكس الشعبوية التحقيق الوهمي لمتطلبات وأهداف وطنية وقومية يبدو تحقيقها في الواقع بعيد المنال، وهي تقدم للنخب الحاكمة وسيلة رخيصة للتغطية على مسؤولياتها، وتجنب الاعتراف بأخطائها وإخفاقاتها في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.. إن الشعبوية التي تجمع بين المبالغة في إرادة تأكيد الذات والاستقلال والسيادة وجبن الممارسة، وانفعاليتها المفتقرة للعمل الجدي والمنظم والعقلاني طويل المدى، لا تكف عن تنمية التناقض والتفاوت بين طموحات كبيرة جداً وفعالية ضعيفة جداً".

- يطلق عبد الله بلقزيز وصف الشعبوية[7] "على نزعة في التفكير السياسي، تجنح لتقديس الشعب، وحسبانه مستودع الحقيقة المطلقة، ومناط الخلاص النهائي من شرور العالم. ما يقوله الشعب في عرف دعاة هذه النزعة، هو القول الحق الذي ما بعده قول موثوق، وهو الحكمة التي تختزن دروس التاريخ وتصوغ خلاصته.. تضع هذه النزعة نفسها في

---

(7) بلقزيز، عبدالاله، مقالة بعنوان: "الشعبوية وميتافيزيقيا الشعب"، جريدة الحياة، تاريخ 18/ 2/ 2009.

مقابل النخبوية التي تحتقر الشعب والجماهير.. ترادف الشعبوية إذاً الفوضوية والعفوية التنظيمية".

- وفي مقالة لروبن ماكايكو تشيرامبو، تحت عنوان "كيف يمكن الحد من السلطة التي تتيحها الشعبوية لبعض القادة السياسيين" يعرّف الشعبوية بأنها "سياسة تعبّر عن آراء الناس عامةً، وكذلك عن مصالحهم، بينما تلمح هذه الكلمة في العلوم السياسية إلى محاولات اكتساب تأييد عامة الناس عامةً بوسائل دنيئة أو بالتضليل".

- أما الطيب حمضي، فيعرف الشعبوي وليس الشعبوية فيعتبر أن الشعبوي[8]: "له جماهير عريضة تنتظر كلامه وتحليلاته وإشاراته؛ إنه شخص يدغدغ عواطف الجماهير، يقول لها ما تريد سماعه، يجاري الرأي العام ولو ضد المنطق، أو ضد قناعاته وأفكاره هو نفسه. الشعبوي يبيع للناس الأوهام، يصورهم على أنهم يوجدون على قاب قوسين أو أدنى من الانتصار، وأن الأعداء على حافة الهزيمة. الشعبوي يرى أين يذهب التيار العام داخل المجتمع ويسايره... الشعبوية أفيون تخدر إحساس الناس بالواقع، وتصيب عقولهم بالخمول، وتثبط عزائمهم في التفكير في

---

(8) حمضي، الطيب، مقالة بعنوان: "الشعبوية"، نقلاً عن المدونة الإلكترونية http://tayebhamdi.blogspot.com

الحلول الحقيقية لمشاغلهم، وتجعلهم يستكينون للحلول السهلة والسطحية".

يعتبر كل من شاتليه، دوهامل، وبيزيه-كوشنير، الشعبوية بأنها[9]: "كل الأنظمة الثورية أو التي تعلن أنها ثورية وتنسب إلى الشعب ... إن معظم الدول المسيطر عليها، عندما تريد أن تعطي مضموناً فعلياً لاستقلالها، تكون بحاجة إلى مقولة الشعب".

- كما يعتبر شريف يونس بأن الشعبوية[10]: "سياسة تعيش على قتل المعارضين، تطالبهم بالصمت عن نتائج سياساتها... الصوت الشعبوي يدعو دائماً ألا يعلو، أي صوت فوق صوت المعركة".

آلان تورين، يعرف الشعبوية بأنها[11]: "رفض لكل المؤسسات ولكل انظمة التمثيل، وأيضاً لكل مساعي التفكير الحر، وكل ذلك باسم "جوهر الشعب". كما ويعتبر أنّ الإرهاب يمثل اقصى أشكال الشعبوية، وبهذا يمكن القول حسب رأيه بأن الشعبوية اسم آخر للشر السياسي".

---

(9) شاتليه، فرنسوا، دوهامل، اوليفيه، بيزيه، كوشنير، افلين، تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة د.خليل احمد خليل، معهد الإنماء العربي.

(10) يونس، شريف، مقالة بعنوان: "البلطجي والباشا والسياسة الشعبوية"، مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، تاريخ 27/ 1/ 2009.

(11) Taguieff, L'illusion populiste. *Essai sur les démagogies de l'âge démocratique*. Champs-Flammarion.

ولا يمكننا استثناء واحدٍ من هذه التعريفات بحيث أن كل واحد منها يشكل مكوناً من مكونات الشعبوية، فهي كلها تنطبق واقعاً على تلك الظاهرة، وانطلاقاً من ذلك، سنقوم، وبناء على ما توافر لدينا من معطيات حولها، بتشكيل صياغة، أو لنقل أدراج "الشعبوية" تحت هذه العناوين.

الشعبوية

1- يشتق مصطلح الشعبوية من مفردة الشعب. وهي نزعة في التفكير السياسي تجنح لتقديس الشعب، وحسبانه مستودع الحقيقة.

2- ظاهرة انتقالية سطحية ومؤقتة، تبرز في إطار أزمة عامة ووضع سياسي يصعب احتماله بالنسبة للأكثرية.

3- تتجسد هذه الظاهرة بوقوف الشعب مقابل النخب، بمعنى الشعبوية مقابل النخبوية في المجتمع.

4- تتميز هذه الظاهرة بعمقها العاطفي وليس الاجتماعي، وهي تحاكي العواطف والغرائز لا القدرات الفكرية.

5- ظاهرة تقف في وجه الرأسمالية، تحركها الرغبة في إعادة الملكية المشتركة للجميع.

6- ترادف الشعبوية الفوضوية والعفوية التنظيمية.

7- تتميز الشعبوية بالسعي الوهمي لتحقيق متطلبات وأهداف وطنية يبدو تحقيقها في الواقع بعيد المنال.

8- في الحالة الشعبوية يغدو مناخ المجتمع كعرس دائم بين الشعب والقيادة من خلال الاحتفاء والتمجيد والتقديس.

9- تحتوي الشعبوية على بعد فاتيشي أي صنمي. وكذلك تحتوي على البعد الاسطوري.

الآن، لا بد لنا من تحليل هذه الأسس التي تقوم عليها الشعبوية، علّنا ننفذ أيضاً إلى بعض الإضاءات والإضافات عليها. كما وسنحاول مقارنتها مع بعض المصطلحات التي تتداخل معها أحياناً وعزلها عن مصطلحات أخرى تستعمل كوسيلة لايضاحها نسبة لغموض المصطلح، وذلك بغية تنقيتها، وصولاً لصياغتها كمصطلح مستقل.

أولاً من ناحية اشتقاق الكلمة، هناك التباس واضح، فهي تشتق من كلمة "الشعب"إلا أنَّها، لا تعني كما في حالة مصطلح الديمقراطية من حيث معالجته للتمثيل الافضل للشعب في السلطة، أنها نداء موجه للشعب . من هنا قد يكون تم اشتقاق المصطلح . اضافة إلى أنّ هذا النداء غير موجه لكل الشعب وله اهداف لا تتعلق بالناحية التمثيلية بقدر ما تتعلق بالتعبئة واستنهاض الشعب. في الحالة الشعبوية النداء يتوجه إلى فئة من الشعب، وتحديداً تلك الفئة المهمشة

القابعة تحت قهر السلطة في مجتمعاتها، الفئة الاقل تعليماً والأكثر فقراً، والتي يسهل استقطابها وأدلجتها وتعبئتها وتحشيدها، بهدف تحضيرها لمواجهة النخب الحاكمة.

كما وإن الحركات الشعبوية، التي تتحرك في مجتمع من المجتمعات تختلف عن الحركات الشعبية التي قد تحتشد أيضاً للمطالبة بمصالح تعتبرها حقاً لها من الدولة، التي تشكل هذه الأخيرة مرجعاً لها.

في الحالة الأولى، أي الحركات الشعبوية، فإن التحرك يتم ضد الدولة القائمة مهما كان شكلها، في محاولة لإسقاطها. أما في الحالة الثانية، فيتم التحرك تحت سقف الدولة وليس في مواجهتها.

من هنا ينطلق تصنيف الشعبوية كحركة في وجه النخبوية الحاكمة، وبين من هم في أسفل السلم الاجتماعي ومن هم في أبراج عاجية، بين فقراء المجتمع وأصحاب ثرواته، بين رجالات السلطة وأتباعهم وأزلامهم وبين تلك الطبقة المهمشة المستبعدة، التي تعاني كل أنواع القهر والحرمان على المستويات كافة.

من هنا، تتميز أيضاً بوقوفها كحركة في وجه الرأسمالية، وتحركها الرغبة في إعادة الملكية المشتركة للجميع. وهذا يبرر صعود هذه الحركات في العالم الثالث أكثر منها في العالم

الحديث؛ ففي الأول الإنسان متروك لمصيره، تستعمله السلطات عند الحاجة، وتهمشه بعد القيام بما هو مطلوب منه، تحجب عنه حقوقه والحريات التي شرعها له "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان"، في حين أنه وفي المجتمعات الحديثة حيث انتصر إنسان المساواة على إنسان المراتب، الوضع مختلف تماماً، وهذا ما قد يفسر تجنب المفكرين الذين حلّلوا حركات اليمين المتطرف في الغرب إطلاق صفة الشعبوية عليها.

كما وأنها في محاكاتها للعواطف والغرائز، وتميزها بالعمق العاطفي، فهي أكثر قدرة وفعالية على الانتشار في المجتمعات التي يغيب عنها "العقل" أو "التفكير العقلاني". إن ملعبها تلك المساحات التي لا تزال تعيش في الماضي في المجتمعات الماقبل كوبرنيكية. وهذا العامل يجعل من تلك المجتمعات أمكنة من السهل أن يحتل الوهم فيها مكان الحقيقة. الحلم مكان الواقع. كما أنّ احتواءها على البعدين الصنمي والاسطوري يجعلها اكثر التصاقاً بالمجتمعات المتأخرة أو المتخلفة.

إن هذا التحليل يمكّننا من هذه الإضافة:

إن الشعبوية، ظاهرة مناقضة للدولة ولمفهومها في المجتمعات، وهي تعمل بمواجهتها بغية انهيارها وإسقاطها

والحلول مكانها. وتقود الحركات الشعبوية جمعاً من الناس يصفهم توماس هوبس[12] "بأنهم مشتّتون في الحالة الطبيعية، وهم قوى تحركها الرغبة التي لا يحدّها شيء". بمعنى أنهم لا يخضعون لأي قانون، بل هم يقومون بعملية تعليق للقوانين في المجتمع. هذه القوانين، التي يعتبر مونتسكيو في كتابه[13] "روح القوانين" بأنه "ربما يضيع كل شيء إذا كان الإنسان نفسه أو الجسم نفسه يمارسان هذه السلطات".

كما أن الشعبوية لطالما جاءت كرد فعل على وضع قائم. وهنا قد يقول بعضهم إنّ كل الحركات السياسية هي رد فعل على وضع قائم، فبماذا تتميز الشبعوية عندئذ؟

والواقع أن التعليق صحيح،إلا أنَّ للشعبوية ظروفاً يمكن حصرها، فما يميز صعود الحركات الشعبوية تلازمها مع ظاهرة ضعف الدولة، حتى في تلك الدول التي يظن حكامها، أنها تتكئ على أجهزة أمنية قوية قادرة على الإمساك بزمام الأمور والتدخل للحسم عند الضرورة. وتلك القصة التي حصلت ليلة الرابع عشر من تموز/يوليو 1789 في باريس حين سمع لويس السادس عشر من رسوله ليانكورت بسقوط

(12) شاتليه، فرنسوا، دوهامل، اوليفيه، بيزيه، كوشنير، افلين، تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة د.خليل احمد خليل، معهد الإنماء العربي.

(13) المرجع نفسه.

الباستيل وتحرير بضعة سجناء منه، وتمرد القوات الملكية، قبل وقوع هجوم شعبي. إن الحوار المشهور الذي جرى بين الملك ورسوله كان قصيراً جداً،ومعبراً جداً؛ يقال إنّ الملك صاح يومها قائلاً "إنه تمرد"، فصحح له رسوله التوصيف بالقول: "كلا يا صاحب الجلالة، إنها ثورة".

هنا، الملك صاحب السلطة، لم يكن يقدّر مدى ضعف حكمه، تماماً كما حصل مؤخراً في تونس، فعند انطلاق ثورة الياسمين أطل زين العابدين بن علي ليهدئ من روع الشارع، ولا يهمنا ما قاله بالضبط، بل ما يهمنا هو تشابه اللحظة، فعندما ظهر أمام التونسيين لم يكن يعلم ضعف نظامه، ولربما في خلفيته أيضاً، كان يعتبر أن منظومته الأمنية ستقمع الشارع، ولكون ما يحدث ليس سوى تمرّدٍ، لكنه بعد ساعات اضطر للفرار من تونس وسقط حكمه بفعل الحركة التي قادها ثوارالياسمين هناك، والموقف نفسه واجهه حسني مبارك. وكأن القادة الشعبويين اضافة لتضليلهم للجماهير يبدو أنهم هم انفسهم مضللون. والقوة التي يوهمون الناس أنهم يتمتعون بها هم أيضاً موهومون بقدراتها الفائقة، حيث إنه وأمام لحظة الغضب الجماهيري فإن هذه القوة تصبح كنمر من ورق ويتهاوى النظام كورقة خريف.

دائماً وفي لحظة الضعف هذه للدولة الحاكمة، تستطيع الحركات الشعبوية أن تضرب ضربتها، وَلا يمكن للدولة في

تلك اللحظة وبسبب ضعفها من وقف الجموع المحتشدة للاطاحة بها[14]. "هذا ما حصل إبان الثورة الفرنسية حيث إن شيئاً لم يكن قادراً على إيقاف الحشد البشري، الذي اقتحم شوارع باريس وهيجان الأهالي في المدن الكبرى التي اختلطت اختلاطاً عميقاً مع انتفاضة الشعب من أجل الحرية"، والمشهد نفسه، عايشناه مع ثورة الياسمين في تونس. إن لحظة ضعف الدولة في مشهدي الملك لويس السادس عشر وزين العابدين بن علي، يوضحان هذا التلازم بين ظاهرة الشعبوية وضعف الدولة، بغض النظر عما إذا كانت الثورة الفرنسية أو ثورة الياسمين هما نتاج محض لظاهرة الشعبوية، أو بداخلهما ملامح عنها. والمقارنة هنا بين المشهدين يتم إدراجها في إطار تسليط الضوء على تلازم ضعف الدولة مع التغيير، وكذلك ضمن هذا التغيير الذي تكون مادته الاجتماعية مقتصرة على حركة شعبوية خالصة بمميزاتها وملامحها كافة.

وبهذا يخلص منهج تفكيك التعريفات عن الشعبوية، إلى خلاصة شبه حاسمة تفيد بأن الشعبوية لا يمكن أن تشهد ولادتها إلا تحت سقف ضعف الدولة. إضافة إلى أنها كحالة

---

(14) أرندت، حنة، الثورة، ترجمة عطا عبد الوهاب، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية.

تقف دائماً في وجه الدولة وتتناقض بكل مكوناتها مع مفهوم الدولة. ولعل هذا الملمح الشعبوي في النموذجين اللذين ذكرناهما آنفاً هو المقصود في تعريف كل من شاتليه ودوهامل وبيزيه-كوشنير، من أن الشعبوية هي كل الأنظمة الثورية. والأدق أن كل الثورات تحمل ملمحاً شعبوياً.

وهنا قد يطرح أحدهم سؤالاً حول كيفية صعود الحركات الشعبوية في كل من المجتمعين الأوروبي والأميركي وهما مجتمعان حديثان، مع ما ترخيه الحداثة في المجتمعات من تقدم وتطور، وهي في الأساس وليدة العقلانية التي تحكم الذهنيات هناك وهما ليسا مجتمعين يتسمان بالضعف بل على العكس من ذلك فلكل منهما دولة قوية وإن كانت ليست متساوية إنما موجودة وصلبة، فكيف نفسر ظهور الحركات الشعبوية فيهما.

وهذا صحيح، وقد نجد جواباً عند تاغاييف الذي اعتبر فيه أن[15] "هناك اشكالاً من الشعبوية، كل شكل يتحدّد بإطار وطني وبزمن تاريخي، وقد يوجد في البلد الواحد تيارات شعبوية مختلفة وربما متصارعة... هناك صعوبة تواجهنا إذا أردنا التحكم في المصطلحات.. ولا يمكن القول إن

---

(15) كامبريدج بوك ريفيوز، الوهم الشعبوي.. وصعود أقصى اليمين في أوروبا، نقلاً عن موقع الجزيرة الإلكتروني www.aljazeera.net

مفردات "الشعبوية"، و"القومية الشعبوية"، و"القومية المتشددة"، و"الفاشية الجديدة" في روسيا تغطي الحقائق الاجتماعية-السياسية نفسها مقارنة مع اوروبا الغربية"، وهو تجنب أن يسمي حركات اليمين المتطرف في أوروبا بالشعبوية، إلا أنَّها في الحقيقة تحمل ملمحاً شعبوياً أولاً لكونها حركات مناوئة للنظام، أي تقف في وجه السلطة الحاكمة إلا أنَّ هدفها ليس تقويض هذه السلطة؛ فهي تماماً كما حصل في الهند مع صعود الحركة الشعبوية وتسلمها لزمام الحكم، بحيث كانت مضطرة لأن تخضع للمؤسسات القائمة، ولم تكن قادرة على تغييرها أو تقويضها، بل عملت تحت سقفها، وهذه النهاية، تعني انهيار الشعبوية تحت هذا السقف، سقف الدولة.. كما أنها، وخارج السلطة، تستطيع أن تقف في وجه مشاريع الحكومات وهذا ما حصل عند انتصار الـ"لا" للتصويت على دستور الاتحاد الاوروبي، إلا أنَّها لا تحاول أن تتجاوز سقف تحقيق مطالبها. أما عن أسباب صعودها فيعود في أوروبا إلى تلك الأزمة التي بدأ يستشعرها المواطنون في تلك الدول نهاية القرن الماضي، أزمة فرضتها العولمة وافرازاتها مما دفع تلك الشريحة، التي تشعر بأنها مهمشة، لتشكيل مجموعات استطاعت الانتظام في حركات سياسية صنفت جميعها في خانة اليمين المتطرف. أو بالعكس، وفي معرض اكتساب المعارك السياسية، توجَّه

بعض زعماء الاحزاب إلى استغلال قلق بعض الشرائح الاجتماعية ومخاوفها فنسجوا خطاباً شعبوياً بهدف التعبئة وحشد المؤيدين. كما وأن نوعية هذا الخطاب كان الفيصل في اعتبار اولئك الزعماء شعبويين. وهذا ما حصل مع ظاهرة لوبان في فرنسا. والامر نفسه ينسحب على ظاهرة حزب الشاي في الولايات المتحدة، هذه الظاهرة التي يعود ظهورها، بشكل اساسي، لتداعيات الأزمة المالية التي تركها بوش الابن وعدم تمكن أوباما من تقديم المعالجات السريعة لها مما خلق احتقاناً ونقمة عند شريحة واسعة، خصوصاً أنّ معدلات الفقر ارتفعت إلى نسبة 3.14% في السنوات الأخيرة، ووصلت معدلات البطالة إلى حدود العشرة بالمئة، أضف إلى ذلك، ما حصل في 11 أيلول، وكان أحد أهم تأثيراته حملات التخويف والتأليب ضد الغرباء وبالذات العرب والمسلمين؛ كل هذه العوامل تبناها "حزب الشاي" وحولها سلاحاً يقاتل به الحزبين الجمهوري والديمقراطي. إلا أنَّ مصير هذه الحركة وإن حققت نجاحات في مكان ما، فإنها في النهاية ستنهار قبل وصولها إلى السلطة أو عند وصولها لاستلامها، ولذلك أسبابه المتجذرة في المجتمع الأميركي، كما الأوروبي. ويعتبر توكفيل، بأن هذه الأسباب عممها فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيون وتختصر بمصطلح الفردانية، أي الفحص الحر الفردي لجميع المعتقدات،

ففي[16] "معظم عمليات الذهن لا يستنجد كل أميركي إلا بالجهد الفردي لعقله، وليس بالتقاليد، بأجداده، برجال زمنه المتفوقين... كلٌ منحمل، بالحركة نفسها، على استنتاج أن كل شيء في العالم قابل للتعليل وأن لا شيء فيه يتخطى حدود ذكائه". إن هذه الطريقة في التفكير حسب توكفيل، تسمح بالتعرض بسهولة لكل الأشياء القديمة، وفتح الطريق أمام كل الأشياء الجديدة. إن العقل الذي يحكم على كل شيء ويحاكمه في ظل نظام يطلق له العنان ضمن الحدود التي يتيحها القانون، ويضع في يده سلاحاً فاعلاً، سلاح المساءلة والمحاسبة، لن تتمكن الشعبوية منه. من هنا ينظر إلى نهاية الحركات الشعبوية، على أنها محكومة بالانهيار منذ لحظة صعودها في تلك المجتمعات.

والواقع أننا ركزنا في أكثر من مناسبة على أن العقل يهزم الشعبوية، وتحدثنا عن عقلانية جماهير المجتمعات الحديثة إلا أنَّ ما ينبغي الإشارة إليه أيضاً هو أنّ الدولة - السلطة في المجتمعات الحديثة دائماً عقلانية، وعندما تفقد هذه الصفة تتحول إلى سلطة شعبوية. فعندما يتفق الجميع بأن الشعبوية تتميز بعمقها العاطفي، وتحاكي الغرائز فهي إذن

---

(16) شاتليه، فرنسوا، دوهامل، اوليفيه، بيزيه، كوشنير، افلين، تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة د.خليل احمد خليل، معهد الإنماء العربي.

لاعقلانية. وفي مواجهة المشكلات، فإن الدولة ستكون مضطرة لوضع حلول عقلانية للمشاكل التي تواجهها، ويفترض لكي تكون قراراتها صائبة، أن تكون عقلانية. أحياناً كثيرة الحلول الجيدة للمشاكل قد لا تكون شعبية، إلا أنَّ الدولة عليها ووفقاً لكونها راعية لشؤون الناس، وتهتم بمصالحهم أن تجترح للمشكلات حلولاً يفترض أن تكون عقلانية لتؤتي بالنتائج المتوخاة منها حتى لو كانت قاسية وتتطلب جدولاً زمنياً لتؤتي ثمارها؛ كما تحرص تلك الدول على مصارحة شعوبها بالواقع، وتضع في متناولها خططاً ومشاريع حلولٍ، وأحياناً تطرحها على الاستفتاء من باب اشراكها بالقرارات. . في حين أن الحلول المجترحة من قبل الشعبويين هي حلول تتخذ اولاً على مستوى القمة، أي يتخذها الحاكم من دون العودة لأحد اضافة إلى أنّ تلك الحلول غالباً ما تكون غير عقلانية، انفعالية، وقد تجلب نتائج كارثية على الشعوب، أو قد تكون غير واقعية لا تؤدي إلى أيّ من النتائج المتوخاة منها. أو تحاول بدلاً من حل المشاكل أن تستبدل الحلول العقلانية باخرى لاعقلانية، تماما كما حصل في الارجنتين إبان حكم بيرون، حيث إنّ الارجنتين آنذاك كانت بحاجة ماسة إلى اصلاح زراعي وتصنيع، لمواجهة متطلبات السوق الوطنية، وبدلاً من وضع سياسات تعالج هذا الوضع، سار بيرون، الشعبوي، بسياسة

تدميرية، بحيث تصدرت أولوياته، تحويل الارجنتين إلى قوة اساسية بعد الولايات المتحدة الأميركية. وطبعاً بالنسبة لواقع الارجنتين آنذاك، تبدو هذه السياسة لاواقعية بامتياز وغير قابلة للتحقيق.

والسياسات نفسها اعتمدت في الصين ايام ماوتسي تونغ؛ فهذا الأخير كان يعتقد أنه، وعبر الكومونات الزراعية، يمكن تطبيق الشيوعية في الريف الصيني. واكد أنّ اول خطوة نحو الشيوعية، تكون بإقامة المطاعم العامة التي تقدم الوجبات المجانية، دون النظر إلى أنّ هذه المطاعم تستهلك ولا تنتج. وقد قبل الفلاح الصيني، الذي كان يعاني من قلة الطعام واستغلال النظام الاقطاعي، هذه الخطوات. ويحكي لنا محمد خير الوادي كيف روج الاعلام الصيني لهذه المعجزة، قائلاً[17]: "ظهرت في الاعلام الصيني شعارات موجهة إلى الفلاحين، تقول: يجب أن تعمل كل دقيقة وكل ثانية، ليلاً ونهاراً... كالنملة التي تزيح الجبل من مكانه... ورفعت الكومونات مبدأ: خلق نمط جديد للحياة بين الفلاحين الصينيين... وانطلاقاً من ذلك، سرت في الريف الصيني موجة تخلي الفلاحين عن أملاكهم... وطبق في الكومونة شعار

---

(17) الوادي، محمد خير، تجارب الصين من التطرف إلى الاعتدال، دار الفارابي.

الدفع حسب الحاجة، وليس حسب العمل، وبدأت الكومونات توزع الاطعمة والالبسة والادوية مجاناً على أعضائها، وتتكفل بتكلفة الأعراس ودفن الموتى وتدريب الاطفال... واعتقد ماو، أنّ تنظيم حملة الجمعيات الزراعية، يشبه الحملة العسكرية... وإذا كان هذا الأسلوب قد أثبت فاعلية في ظروف الحرب، فالامر ليس كذلك أبداً في الاقتصاد عامة، وفي الزراعة على وجه الخصوص... والدليل على ذلك، الأرقام المتدنية للإنتاج الزراعي إثر تطبيق تجربة الكومونات... وعلى الرغم من النتائج الكارثية لسياسة الجمعيات الزراعية أصر ماو على السير في تجاربه، ورفض الإصغاء إلى الاصوات الناقدة، لا بل اعتبرها معادية له".

كذلك في فنزويلا اصدر الرئيس هوغو تشافيز مرسوماً رئاسياً تحت عنوان "طوارئ الطاقة الكهربائية"، يقضي بتمديد عطلة الفصح العام 2010 في سبيل مواجهة ازمة الطاقة التي تشهدها البلاد. فقد أمر بإغلاق ابواب كل الادارات والمؤسسات العامة لمدة اسبوع كامل ابتداء من الاول من ابريل نيسان 2010، لتوفير الطاقة. بمعنى أنه بدلاً من ايجاد حلول جدية لتلك المشكلة، ذهب تشافيز إلى تلك الحلول الشعبوية، أي تعطيل الإنتاج لتوفير الكهرباء.

وبين القابل لأن يتحقّق والذي يحكمه العقل في منطق

الدولة، وبين غير القابل للتحقّق وفق هذا المفهوم في المنطق الشعبوي يتميز كل من الدولة مقابل الشعبوية.

إنَّ الدولة عندما تفشل أمام مشروع، فهي تحاول تصحيح الفشل ومعالجة نتائجه، بينما الفشل في الحالة الشعبوية قد يتحول إلى انتصار. وهذا أيضاً ما يميز الدولة عن الشعبوية. الفشل، تتعاطى معه الدولة انطلاقاً من كونه سينعكس سلباً على المصلحة العامة، فهي تظهّره للرأي العام، وتحاول معالجته مخففة من وطأة نتائجه، وتضعه كما هو أمام جمهورها، في حين أن الشعبوية تقوم على سياسة التعمية، تضع الحقيقة في ذلك المكان المظلم وتظهّر الفشل انتصاراً أمام جمهورها؛ إنها تمارس الغش السياسي. وهذا بالضبط ما قصده زيزاك في توصيفه للشعبوية، حين اعتبر أن الحقيقة دائماً تبقى في تلك المساحة المعتمة، التي يجب أن لا يراها الجمهور. ومن يأخذه عقله إليها فإنه مطالب بالصمت، وإلا سيكون واحداً في جبهة المعارضين، أو بمعنى أدق في صفوف الاعداء. فالشعبوية لا تعترف بمعارضين، هي لا ترى بوجهها إلا أعداء، وهذا ما عبر عنه شريف يونس أيضاً في معرض تعريفه للشعبوية.

ولتوضيح مسألة التعمية على الحقائق سيكون من المفيد الوقوف عند هذه الواقعة التي حدثت في مصر إبان حرب

العام 1967[18]، "يأتي الصوت يهدد عالياً: تمّ القضاء على العدو، أبطالنا في طريقهم إلى تل أبيب". كان ذلك في حزيران 1967 والصوت المسموع قادم من محطة صوت العرب من القاهرة، وهو صوت أحمد سعيد، أبرز الدعائيين لدى الرئيس المصري جمال عبد الناصر. طبعاً لم يكن لما كان يردده سعيد أي شيء من الصحة. ففي الوقت الذي كان يصرخ بملء حنجرته معلناً النصر، كانت الجيوش العربية قد عانت أسوأ هزيمة خلال قرون، مع خسائر هائلة في الأرض. ومع ذلك، سيكون من الخطأ اعتبار حديث سعيد مجرد كذبة. فجمهور محطة صوت العرب كان يحب ما يذكره سعيد، ويفضله عن التقرير المستند إلى الحقائق. وهم لا يهتمون إذا كان ما يردده صحيحاً أم غير صحيح. وواقعة حزيران ليست الواقعة الوحيدة التي هزم العرب فيها، فمن بعدها دخل العرب معارك عدة جاءت أيضاً بالكثير من الخراب على البلدان التي خاضتها إلا أنَّه ونتيجة للتعمية السياسية، وسياسة التضليل الشعبوية صورت تلك الهزائم على أنها انتصارات، وتم الاحتفاء بها وكأن أرض فلسطين عادت لأصحابها.

---

(18) أمير طاهري، جريدة الشرق الأوسط، مقالة بعنوان: "تقديم الشعبوية باعتبارها سياسة".

يتبين لنا من هذه الواقعة ملاحظتان، الأولى تتعلق بالتعمية عن الحقائق من قبل السلطات الحاكمة، والثانية اتجاه الجماهير لتصديق ما تسمعه، أكثر من تصديق التقارير المستندة إلى الحقائق. فغياب التفكير العقلاني يرسخ هذا التوجه عند الجماهير.

في كتابه روح القوانين يعتبر مونتسكيو أن صاحب السلطة يميل إلى إساءة استعمال هذه السلطة وتجاوزها[19] "إنه يذهب، إلى أن يجد حدوداً أمامه، الفضيلة نفسها بحاجة إلى حدود تحد. إن سوء استعمال السلطة، لا يُمنع إلا بترتيب الأشياء، السلطة توقف السلطة. إن فصل السلطات وتجزئتها يتيح لكل سلطة، سلطة أخرى تحد من جنوحها".

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن فصل السلطات يتيح من جملة ما يتيحه المساءلة والمحاسبة، الأمر الغائب كلياً في الحالة الشعبوية، على المستويين القيادي والجماهيري. ففي الحالة الشعبوية يتّحد الجمهور بقيادته فيتغاضى عن المحاسبة، مما يوسع هامش ارتكاب الأخطاء في السياسة، وكذلك في موضوع الفساد الذي يستشري بشكل لافت في تلك الحالات. وسنورد نموذجين عن عدم المساءلة في

---

(19) الأنصاري، د.محمد جابر، الناصرية بمنظور نقدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

حكمين اعتبرا شعبويين بامتياز. النموذج الأول يتناول خطأ في السياسة والآخر في الفساد، كما ويبين العمق العاطفي للظاهرة الشعبوية في آن واحد.

المثال الأول يتناول حرب العام 1967، هذه الحرب التي جرّت على العرب هزيمة نكراء، حسب د. محمد جابر الانصاري لم يتم استيعابها بأبعادها الكاملة في الأسابيع والشهور الأولى، وأطلق عليها الخطاب الثوري مصطلح "النكسة"[20]، "بينما أنكرت وقوعها صحيفة "الحرية" الناطقة باسم حركة القوميين العرب الناصرية في بيروت، بعد أن احتجبت عن الصدور لثلاثة أسابيع بعد وقوع الهزيمة، ثم عادت بعد ذلك بمانشيت تقول: (كلا لم ينهزم العرب.. ولم ينهزم عبد الناصر).. ورأى نديم البيطار وهو مفكر وحدوي، علمي وعلماني، في كتابه (من النكسة إلى الثورة 1968) أن ما حدث في يونيو 1967 هو مجرد نكسة على الرغم من الألم العميق الذي أحدثته وأعلن: "مرحى بالنكسة، ومرحى بتحدياتها الكبيرة".

وحين خرج عبد الناصر يوم 9/ 6/ 1967 بخطاب إلى الشعب والأمة معلناً تنحيه عن رئاسة الجمهورية، لم تتطلع الجماهير إلى المحاسبة، بل إلى المسامحة، وطالبته بالعودة

---

(20) المرجع نفسه.

عن قراره، هذا من ناحية. اما من ناحية ثانية، وهي الاهم، سنبيّن من خلال خطابه المشهور، سوء تقدير القيادة في قرار الحرب، واتسامه "بالنخوة"، أي بذلك الموقف الانفعالي الذي يتخذه الإنسان في مواقف كثيرة تواجهه في الحياة، لكنه موقف لا يصلح أن تسلكه دولة عاقلة، تقدم اعتبارات مصلحة مواطنيها على أي مصلحة أخرى. قال عبد الناصر "إننا نعرف جميعاً كيف بدأت الأزمة في الشرق الأوسط في النصف الأول من مايو الماضي، كانت هناك خطة من العدو لغزو سوريا... وكانت الأدلة متوافرة على وجود التدبير.. لقد وجدنا واجباً علينا، ألا نقبل ذلك ساكتين، وفضلاً عن أن ذلك واجب الأخوة العربية.. ولقد تحركت قواتنا المسلحة إلى حدودنا بكفاءة شهد بها العدو قبل الصديق.. ولقد كان مرور علم العدو أمام قواتنا أمراً لا يحتمل، فضلاً عن دواعٍ أخرى تتصل بأعز أماني الأمة العربية. ولقد كانت الحسابات الدقيقة لقوة العدو تظهر أمامنا أن قواتنا المسلحة بما بلغته من مستوى في المعدات، وفي التدريب قادرة على رده وعلى ردعه.. وقبلنا بالمخاطرة. وكانت أمامنا عوامل عديدة وطنية وعربية ودولية... تطلب إلينا ضبط النفس، وألاّ نكون البادئين بإطلاق النار وإلا فإننا سوف نواجه نتائج خطيرة. وفي الليلة نفسها فإنّ السفير السوفياتي... أبلغني بطلب ملحّ من الحكومة السوفياتية ألاّ نكون البادئين بإطلاق النار.. وفي صباح يوم

الاثنين الماضي الخامس من يونيو جاءت ضربة العدو ... إن العدو الذي كنا نتوقعه من الشرق والشمال جاء من الغرب.. الدلائل واضحة على وجود تواطؤ استعماري معه ... ولقد كانت النتيجة المحققة لذلك، أن قواتنا البرية التي كانت تحارب بأكثر المعارك عنفاً وبسالة في الصحراء المكشوفة، وجدت نفسها في الموقف الصعب، لأن الغطاء الجوي فوقها لم يكن كافياً إزاء تفوق حاسم في القوى الجوية المعادية. لقد كانت هناك جهود رائعة وشريفة.. وكانت هناك أمم عظيمة خارج العالم العربي قدمت لنا ما لا يمكن تقديره من تأييدها المعنوي. لكن المؤامرة - ولا بد أن نقول ذلك بشجاعة الرجال - كانت أكبر وأعتى". (وكأننا به يقول : لو كنت اعلم).

ويتابع خطابه بالقول: "وأمامنا الآن عدة مهام عاجلة.. أن نزيل آثار العدوان، وأن نقف مع الأمة العربية موقف الصلابة والصمود. وبرغم النكسة فإن الأمة العربية بكل طاقاتها وإمكانياتها قادرة على إزالة آثار العدوان.والمهمة الثانية أن ندرك درس النكسة ... نصل الآن إلى نقطة هامة في هذه المكاشفة بسؤال أنفسنا: هل معنى ذلك أننا لا نتحمل مسؤولية تبعات هذه النكسة؟ وأقول لكم بصدق - وبرغم أية عوامل أكون قد بنيت عليها موقفي في الأزمة - فإنني على استعداد لتحمل المسؤولية كلها، ولقد اتخذت قراراً أريدكم

جميعاً أن تساعدوني عليه: لقد قررت أن أتنحى تماماً ونهائياً عن أيّ منصب رسمي، وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر.

إن قوى الاستعمار تتصور أن جمال عبد الناصر هو عدوها، وأريد أن يكون واضحاً أمامهم أنها الأمة العربية كلها، وليس جمال عبد الناصر...

إن ثقتي غير محدودة بهذا التحالف القائد للعمل الوطني، الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية. إن وحدته وتماسكه والتفاعل الخلاق داخل إطار هذه الوحدة، قادر على أن يصنع بالعمل ... معجزات ضخمة في هذا البلد ... إن هذه ساعة للعمل، وليس ساعة للحزن، إنه موقف للمثل العليا، وليس لأية أنانيات أو مشاعر فردية..".

إن ما حدث غداة حرب العام 1967 والذي أطلق عليه عبد الناصر تسمية نكسة وليس هزيمة، والتي يقول د. جابر الأنصاري "إنه من بين كل الهزائم التي تعرض لها العرب في القرن العشرين تبدو هزيمة حزيران 1967 "الهزيمة الأم" التي لا تزال جراحاتها مفتوحة وغائرة في الأعماق، والتي يبدو أن العرب سيدخلون القرن الحادي والعشرين وهم يحملون أعباءها الثقال ولم يتخلصوا - بعد - من آثارها المضنية"؛ إن هذه الهزيمة بثقلها الكبير لحظة وقوعها، وعلى الرغم من اعتراف عبد الناصر نفسه في خطاب التنحي أنها

وقعت نتيجة سوء التقدير، لم تدفع الجماهير العربية للنزول إلى الشارع للمساءلة أو للمحاسبة، لقد نزلت الجماهير إلى الشوارع تطالبه بالرجوع عن الاستقالة.

غياب المساءلة والمحاسبة له علاقة بذلك العمق العاطفي للعلاقة بين القائد وجمهوره في الحالة الشعبوية، كذلك البعد "الفتيشي"، "الصنمي" الذي تحدث عنه زيزاك. ولعل هذا التوصيف للكاتب السعودي أنور عبد المجيد الجبرتي أصدق وأوجز من عبّر عن مشاعر جيله، الذي تفتح وعيه مع بدايات الحركة الناصرية فيقول[21]: "لم يكن عبد الناصر مذهباً في السياسة أو فلسفة في الحكم ولم يكن عبد الناصر إيديولوجية أو نظرية... كان زماناً وكان عاطفة. وكان شم النسيم.. وكان انتشاء الوجد الصوفي في زحمة الدراويش والمريدين... يظلمون عبد الناصر عندما يدافعون بغباء عن أخطاء عهده، تجاوزاته وتناقضاته وانتكاساته، ويظلمونه عندما يهاجمون تلك الاخطاء والتجاوزات.. لأن عبد الناصر كان رجلاً لا بد أن يأتي، وزماناً لا بد أن يحدث، مثل قطرات الندى عند الفجر.. ونحن لا نحاكم ولا نقاضي الفجر أو المساء ولا نلقي القبض على قطرات الندى..".

---

(21) شفاليه، جان جاك، المؤلفات السياسية الكبرى، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت.

إن حرب العام 1967 السبب الرئيسي في كل مشاكل مصر. يقول محمود البغدادي، إن عبد الناصر "زج البلاد بالحرب، للعب دور يفوق قدراتها المادية وناب عن كل العرب في خوض حروب خاسرة سلفاً، على الرغم من عدالة القضية. إن ما تمر به مصر اليوم هو نتيجة طبيعية للحكم الشعبوي الذي مرت فيه مصر والذي لا يمكن إنكار أنه قد حقق بعض الانجازات الشعبية ولكن بدفع أثمان باهظة، وهذا ما لم ندركه كأحد الشعوب العاطفية التي لا تستخدم العقل في دراسة أرباح وخسائر أي قرار... إن التسرع.. وادعاء تحقيق أحلام الشعب بلاواقعية، قادتنا إلى الجحيم.. علماً أن القائد الحقيقي هو من يقود الشعب إلى الإنجاز، لا من يستجيب لضغوط العامة من الشعب.. إن كل ما نعانيه اليوم من قهر وجهل وتخلف هو من نتاج قادة شعبويين اتخذوا القرارات الشعبوية ولم يدرسوا الإمكانيات والتضحيات والعواقب، وهكذا قادنا الثوار إلى تحطيم اقتصاد وامكانيات أعظم بلدين في منطقة الشرق الأوسط ألا وهما العراق ومصر".

أما المثال الثاني في فساد السياسية وعدم المساءلة فمستقى من أكثر الأنظمة شعبوية في أميركا اللاتينية والتي عرفتها الأرجنتين مع البيرونية. وسيظهر لنا أيضاً كيف أنّ تلك القيادات مهما كان الخطأ وحجمه الذي ترتكبه فإن شعوبها

تغض الطرف عن محاسبتها؛ فبعد الانقلاب الذي أقصى خوان بيرون عن الحكم، ونفاه إلى خارج البلاد، تعمد قائد الانقلاب آنذاك الجنرال "لوناردي"، ومن أجل كسر الأسطورة البيرونية في أذهان جماهير الأرجنتين، فتح أبواب القصر البيروني، أمام تلك الجماهير التي كانت غارقة في البؤس والفقر، وأخذ يقدم أمام أعينها ممتلكات أم الفقراء إيفيتا بيرون، التي كان يقدسها الأرجنتيون؛ فقد بيّن أن إيفيتا كانت تحتفظ بـ 15 سيارة سباق من أغلى السيارات في العالم، بالإضافة إلى 250 سيارة من أفخر ماركات السيارات الأميركية والألمانية، أما المبالغ التي كشفت في حسابها في بنك الأرجنتين الوطني فقد وصلت إلى عشرة ملايين دولار، في حين كشف عن حساباتها في بنوك سويسرا بما يفوق مئة مليون دولار. هذا إضافة إلى خزائن قصرها المملوءة بالأحجار الكريمة والمجوهرات النادرة. كما أن أحذيتها كانت مصنوعة من جلد حيوان "المنك" الممنوع صيده لأنه مهدد بالانقراض فكان يصطاد خصيصاً لتلبس فراءه، وليستعمل جلده لأحذيتها وحقائبها، كما وأن ملابسها كانت من أشهر دور الأزياء في العالم. إلا أنَّ هذه المشاهد لم تدفع بالذين أحبوها إلا إلى الهتاف "نحن جميعاً ملك لإيفيتا فلتأخذ ما تشاء ولتفعل ما تشاء وسنظل نحبها إلى الأبد".

إن سمة المساءلة والمحاسبة، سمة غائبة، بل الاصح

مغيبة، في المجتمعات التي تحكمها أنظمة شعبوية، في حين أنّ الإفلات منها في المجتمعات الحديثة أمر قد يكون مستحيلاً. ولعل هذا المثال يبين لنا الفرق، إضافة إلى معرفة الآلية التي تعمل بها المساءلة في الدول الغربية. يحدثنا غسان شربل عن حملة تشنها الصحف والشاشات في ألمانيا في وجه وزير الدفاع كارل تيودور تسوغوتنبرغ، وتتهمه بالسرقة وبالتزوير، وتحذر من التساهل في التعاطي معه لكونه مجرماً؛ فمن يسرق سنبلة حسب رأيهم يسرق حقلاً، كما تعتبر أنّ بقاءه في الحكومة الالمانية يهدد صورة الدولة، وسلامة المؤسسات والقيم والاصول، ويبعث برسالة خاطئة إلى الاجيال الجديدة. أما عن التهمة فتتعلق في رسالة الدكتوراه في القانون التي حاز عليها بالتزوير[22]. "إتهم بالسطو لدى إعدادها على اعمال آخرين ومن دون الاشارة إلى المصادر. إنها سرقة وتزوير. وهبت العاصفة، فكيف يمكن الوثوق بوزير كذب في أطروحته؟ والواقع لم يكن له سوى الاستقالة...". ويعلق شربل على الامر فيقول: "تصور لو أنّ وزيراً عربياً ضبط متلبساً بسرقة اطروحته. كان اعتبرها فرصة عمره، واستدعى التلفزيونات المحلية والفضائيات واتهم الموساد

---

(22) شربل، غسان، مقالة بعنوان: "المجرم الألماني، جريدة الحياة، تاريخ 2/ 3/ 2011.

بترويج الشائعة للنيل من تاريخه. واتهم العدو الاميركي بالسعي إلى ضرب النهضة العلمية للعرب. كان احتقر العلم والجامعات والرأي العام وبقي في مكتبه. لم يتهم غوتنبرغ بالاستيلاء على السلطة واستباحتها، ولا بتحقير المواطنين واغتيال ما تيسر منهم. لم يُتهم بتصفية سجناء ارتكبوا جريمة الاحتجاج... ولا بإقحام بلاده في مغامرات باهظة... إتهم بالكذب ولم تحاول ميريكل أن تمد له خشبة الخلاص، ولو فعلت لاندلعت النار في ثيابها".

قد يقول بعضهم إنّ هذا الكلام فيه الكثير من التجني والمبالغة، بحيث يظهر وكأن المجتمعات الحديثة تحظى بالدولة في حين أنّ مجتمعات العالم الثالث كما يقول المصطلح الشعبي " فلتانة" لا دولة فيها، وهنا قد يطرح بعضهم سؤالاً عن، ما هو الجهاز الذي يحكم في هذه الاخيرة؟ فعلى سبيل المثال لقد بنى عبد الناصر دولة، وإلا ماذا نسمي تلك المؤسسات التي بناها ومن خلال ماذا، كان يحكم، وهذا صحيح، إلا أنَّ السؤال يجب أن يكون عن مدى قوة الدولة التي تم بناؤها، وليس في مصر فقط بل في مجمل مجتمعات العالم الثالث، في الواقع إنّ مشاريع الدول هناك تميزت ببنى هشة، مشاريع لم تبن على الأسس ذاتها التي تبنى عليها الدول في العالم الحديث، أي الدولة، بذلك

المفهوم الذي يلحظ حسب هوبز مصالح الشعب، فهو يعتبر أن[23] "على العاهل أن يوفر لرعاياه هذا الذي من أجله أسست الدولة: الأمن، سلامة الشعب هي القانون الأسمى، إنّ سلامة الشعب وخلاصه، لا يختصران بحفظ حياة الرعايا ضد أية أخطار فقط، بل هما أيضاً، التمتّع بالإرضاءات المشروعة لهذه الحياة. البشر إتحدوا إرادياً في مجتمع سياسي كي يعيشوا قدر ما يسمح به الشرط الإنساني من سعادة أو قلة شقاء.. وعلى العاهل أن يؤمن للرعية الحرية. ما هي الحرية؟ إنها غياب أيّ مانع خارجي عن رغباتنا، فقط، القانون مانع خارجي. الفرد، الرعايا، أحرار في أن يفعلوا كل الأفعال التي لا يمنعها القانون، وهذه الأفعال وحدها. والحال ليست القوانين جيدة وخيرة سوى القوانين اللازمة، الضرورية لخير الشعب.. القوانين ليست مصنوعة لإزعاج البشر في وجودهم بل لقيادتهم، لحفظهم ضد أنفسهم والآخرين، لكي يسود السلام... كذلك على العاهل أن يضمن لرعاياه المساواة أمام القانون وأمام الوظائف العامة والتعليم والتربية كونهم يشكلون على أساس المذاهب الصحيحة،

---

(23) الجميل، سيّار، مقالة بعنوان: "خصائص رجال الدولة" نقلاً عن موقع إيلاف الإلكتروني، تاريخ 20/ 12/ 2009.

الازدهار المادي. هذا الأخير، يتطلب أن يناضل العاهل ضد البطالة الطوعية: أن يوفر عملاً لكل إنسان. أن يضع في عيالة الدولة الإحسان العام، للعاجزين عن العمل، بدلاً من تركهم "لمصادفات الإحسان الخاص". هذا الحرص نفسه على الازدهار يفرض على العاهل أن يترك لرعاياه الملكيات الخاصة الكافية. وفي الوقت نفسه أن يسهر على الحيلولة بين هذا التوزيع للملكيات وبين تخريبه وقلبه من قبل جشع بعض الناس الذين قد يكدسون في صرّتهم ثروات كثيرة بالاحتكارات أو بتعهد الموارد العامة.. ما يحفظ الإنسان.. الدولة.. ما يحفظه هو السلطة، هذا الصنيع الذي ليس له ثمن"، الذي جاء بعد العبور حسب رأيه للإنسان من كونه "ذئباً للإنسان"، في حالة الطبيعة، إلى صنع الإنسان لـ "إله الإنسان" في حالة المجتمع. على الدولة حسب هوبز، أن تطارد مصائبها في المقام الأول، كذلك يعتبر "أن البشر يجب أن يحكموا في ما هو مسموح به، وما ليس كذلك، أي ليس بموجب القانون، بل بموجب وجدانهم ذاته، أي حكمهم الشخصي، إذ يقيمون أنفسهم قضاة الخير والشر، يعود البشر إلى حالة الطبيعة وإلى فوضاها الشنيعة". فهذا المعطى حسب هوبز "يحل الدولة بعد إضعافها ومن ثم تقويضها". كذلك يعتبر أيضاً أن ما يحل الدولة هو خطرٌ

آخر، وهو من الأمراض التي وصفها هوبز بأنها "تصور باطل لعلاقات السلطة المدنية مع الدين والسلطة الدينية".

كما أن الدولة ومفهوم الدولة يرتبطان ارتباطاً وثيقاً برجالاتها. فرجل الدولة حسب سيّار الجميل والتي يقتبس فيها أيضاً عن هوبز[24] "لا يمكننا أن نجده بين ركام السياسيين الذين لا خبرة لهم في إدارة شؤون الدولة من كل النواحي. وأن الدولة لا يمكن أن تنجح مؤسساتها وتتناسق معاً... إلا بعد أن يتولى شأنها أناس لهم خبرات عالية المستوى بتصريف شؤون الدولة... رجل الدولة يبحث عن تأسيس توازن بين تطوير المؤسسات وبين ما يحتاجه المجتمع من قوانين. وإن "القانون" هو أهم ما يمكن أن يلتزم به رجل الدولة ليكون مثلاً أعلى أمام المجتمع".

كذلك يعتبر ماكس فيبر أن أهم خصائص رجل الدولة تكمن في كيفية صنع قراراته[25] "سواء أكانت تكتيكية أم استراتيجية، وقدرته في الدفاع عن آرائه من دون أن يخرق القانون العام، أو يستخدم أية وسائط غير مشروعة، ربما يناور ولكن بمهارة، وذكاء، لتحجيم الخصوم وعدم الالتفات

---

(24) المرجع نفسه.

(25) فروم، إريك، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة وتقديم لطفي فطيم، سلسلة عالم المعرفة.

إلى المارقين والسفهاء.. إن من أهم الخصائص التي ينبغي التمتع بها خبراته في الشأن البيروقراطي، واعتماده على أناس أكفاء في تسيير شؤون مؤسسته، إذ باستطاعته أن يدور العجلة كي تستمر بالدوران من دون أن يساهم كل يوم في دفعها.. ويضيف بين فترة وأخرى قوة جديدة لها. وهو الذي له القدرة على صياغة الأسئلة ونوعيتها، التي يسألها لمستشاريه.. إنه لا يهتم بالخطب والشعارات بقدر ما يهتم بالأفعال وترجمة ذلك بمنجزات تحسب له، لا عليه".

أما جان لوك فيعتبر أن الدولة الحديثة، مثل قانون من قوانين الطبيعة، يتم من خلالها تأمين الضرر إزاء المجتمع الذي يسيّره القانون بما في ذلك تأمين صحة البشر وحرياتهم وممتلكاتهم ولا يمكن أن يقوم بذلك إلا رجل دولة.

وفي نظرة تطويرية إلى مفهوم الدولة، يضيف جون راولز على نظرية الدولة، ضرورة أن ينظر رجل الدولة نظرة عمودية للحياة في بلاده، لا نظرة أفقية، وأن ينحاز لأي طرف من الأطراف حتى وإن كان هو نفسه جزءاً من أية مشكلة في البلاد، ولكن بشرط أن يكون مخلصاً لحياديته.

على رجل الدولة إذن أن يتمتع بقدر عالٍ من الكفاءة تمكنه من إدارة الحكم. والكفاءة تحديداً هو ما حاول إريك فروم أن يشرحه لنا من خلال مفهوم السلطة بحيث يعتبر أن

هناك فرقاً حاسماً في أن يملك الشخص سلطة أو أن يكون هو نفسه سلطة. ويمكننا من خلال مقاربته لهذا الموضوع أن نميز أيضاً بين رجل الدولة ودولة الرجل، فيقول[26]: "نحن جميعاً تقريباً، نمارس السلطة.. في مرحلة معينة من حياتنا.. وفي المجتمع الأبوي يمارس أغلبية الرجال السلطة على النساء. وفي مجتمع بيروقراطي منظم وفق تدرج معين، مثل مجتمعنا، يمارس أغلب أعضائه السلطة، عدا أولئك الواقفين في أدنى درجات السلم الاجتماعي، حيث هم يخضعون لسلطة الآخرين".

وفهمنا للسلطة في الأسلوبين يتوقف على إدراكنا أن السلطة مفهوم عريض يحتمل معنيين مختلفين اختلافاً تاماً، فهي إما سلطة عقلانية وإما سلطة لاعقلانية. والسلطة العقلانية أساسها الكفاءة والمقدرة، وهي تساعد الشخص الذي يمارسها على النمو والارتقاء. أما السلطة اللاعقلانية فأساسها القوة وهي تستخدم في استغلال الأشخاص الخاضعين لها.. السلطة في المجتمعات الأكثر بدائية.. يمارسها الشخص المشهود له عموماً بالكفاءة في القيام بمهمته، والصفات التي تشكل هذه الكفاءة تتوقف إلى حد كبير على الظروف والملابسات الخاصة، وهي تتضمن غالباً الخبرة والحكمة

(26) المرجع نفسه.

والكرم والمهارة والحضور والشجاعة، ولدى الكثير من هذه القبائل لا توجد سلطة دائمة وإنما تنشأ السلطة عندما تدعو الحاجة إليها... وإذا ضعفت أو اختفت الصفات التي تقوم عليها السلطة فإن السلطة نفسها تنتهي، ويمكن مشاهدة نوع قريب الشبه بذلك النوع من السلطة في كثير من مجتمعات القردة العليا حيث غالباً ما تقوم السلطة، لا على القوة البدنية، وإنما على صفات كالخبرة والحكمة. وفي تجربة بارعة على القردة أثبت دلجادو (Delgado) أن الحيوان القائد تنتهي سلطته إذا فقد، ولو مؤقتاً، الصفات التي تؤهله للقيام بمهمته... ومع تكّون مجتمعات قائمة على نظام متدرج اجتماعي.. أخلت السلطة القائمة على الكفاءة الأهلية، المكان للسلطة القائمة على المكانة الاجتماعية... سواء كنا بصدد سلطة ملك، حيث تتقرر كفاءة السلطة بنصيبه من الجينات، أم بصدد مجرم بلا وازع تمكن من القفز إلى السلطة بالقتل أو الخيانة، أم بصدد سلطة منتخبة بفضل الخطابة وجمال الصور والأفلام الدعائية.. ففي كل هذه الحالات.. قد لا توجد أيّ علاقة بين السلطة والكفاءة.. وحتى في الحالات التي تقوم بها السلطة على شيء من الكفاءة والأهلية تظل هناك مشكلات جدية. فالقائد قد يكون مؤهلاً في بعض الميادين وغير مؤهل في بعضها الآخر..

فمثلاً قد يكون قديراً في إدارة شؤون الحرب، ولكنه غير قادر في ظروف السلام. كذلك قد يكون ثمة شخص في مركز القيادة، شجاع ومخلص وأمين عند بداية نهوضه بالمسؤولية ثم لا يلبث أن يفقد هذه الصفات بسبب إفساد المنصب، أو تقدم السن.. وأياً كانت الأسباب التي تؤدي إلى غياب الصفات التي تشكل الأهلية والكفاءة فإن أغلبية المجتمعات التي كبرت وقامت على نظام التراتب والتدرج الاجتماعي عرفت ظاهرة اغتراب السلطة. فالكفاءة الأصيلة المفترضة، أو الحقيقية تنتقل إلى اللقب أو البدلة الرسمية ... إن الملك إذا اخترنا هذا اللقب رمزاً لذلك النمط من السلطة - يمكن أن يكون بليداً أو شريراً أو مرذولاً أو غير مؤهل بتاتاً ليكون سلطة ومع ذلك فإنه يملكها وهو يحمل اللقب؛ فمن المفروض أنه يملك صفات الكفاءة ومقومات الأهلية وكما تقول الأسطورة: حتى لو كان الملك عارياً فإن الناس جميعاً يعتقدون أنه يرتدي أبهى الحلل... فهؤلاء الذين يمتلكون هذه الرموز السلطوية، وأولئك المستفيدون منها، إنما يعمدون إلى تعطيل الفكر الواقعي (أي التفكير النقدي) لرعاياهم ولشعوبهم، ودفعهم إلى الاعتقاد بالأوهام، وكل من يفكر في الأمر يعرف الألاعيب الدعائية وغيرها من الأساليب التي يقضون بها على قدرة الناس على النظرة النقدية والحكم

الصحيح، والكليشيهات التي يستدرجون بها الأذهان للاستيلاء، وكيف يصبح الناس بُكماً عاجزين عن التعبير، لأنهم فقدوا استقلاليتهم وفقدوا الثقة في قدرة عيونهم على الرؤية، وقدرة أذهانهم على تقدير الامور والحكم عليها. لقد أعمتهم الأوهام التي تمتلكهم عن رؤية الحقيقة".

إن هذا المفهوم للدولة ولرجالات الدولة، قلما نجده في مجتمعات العالم الثالث، وقبل الدخول في تصوير واقع هذه المجتمعات لكونها، كما ذكرنا، بنية حاضنة للظاهرة الشعبوية يفترض بنا أن نحسم النقاش حول ما إذا كانت الحركات التي تشهدها المجتمعات الحديثة والتي تنضوي جميعها تحت عنوان اليمين المتطرف بأنها حركات ذات ملمح شعبوي وليست حركات شعبوية بالمطلق.

إنّ المتابعة لحركات اليمين المتطرف في الغرب تبين أنها حركات تستعير من الشعبوية بعض مكونات خطابها، ملمحاً من ملامحها ولكنها ليست بالكامل حركات شعبوية، بحيث أنه توجد في تلك المجتمعات دولة بالمعنى الحقيقي لهذا المفهوم بكل مكوناته، الأمر الذي تفتقده دول العالم الثالث. وهنا بالتحديد قد يتبادر إلى الأذهان مجدداً سؤال عمّا يسمى بذلك الجهاز الذي يقوم مقام الدولة في مجتمعات العالم الثالث. وكذلك لا بد لنا من إجابة مختصرة قبل الدخول في التفاصيل، إن الدول القائمة في مجتمعات العالم الثالث هي

دول نجح تاغاييف في توصيفها على هذا النحو[27]: "غالباً ما ينجح الشعبويون في تأسيس ما يبدو دولة قوية. لكن دولة كهذه غالباً ما تقوم على حساب إضعاف المجتمع". وهذا التوصيف لمفهوم الدولة التي تؤسَس على أيدي الشعبويين يتعارض مع مفهوم الدولة كما سبق وعرفناه، فإذا كانت الحال في الأولى إضعاف المجتمع فإن أحد أسباب نشوء الدولة في الحالة الثانية هي تقوية المجتمع.

أما خلاصته حول اعتبار الشعبوية مرضاً عابراً، وهي تتسبب في إيذاء المجتمعات التي تصيبها، لكن في نهاية المطاف تختفي من دون أن تترك لها أيّ أثر، قد يصح في المجتمعات الحديثة، إلا أنَّه في مجتمعات العالم الثالث فهي تبدو كمرض مزمن لا ينجع معه أيّ دواء. وإمكانية الولوج إلى الدولة بالمفهوم الذي سبق وأوردناه، تبدو عملية، إن لم تكن مستحيلة فدونها صعوبات كبيرة. إن الإنتقال نحو الدولة الحديثة، الدولة الديمقراطية في البلاد العربية، وكذلك يمكننا التعميم على معظم مجتمعات العالم الثالث اليوم، تقف في وجهه هشاشة القوى الديمقراطية التي يمكن المراهنة عليها للسير بعملية التغيير السياسي والتحويل الاجتماعي. وتتجلى

(27) كامبريدج بوك ريفيوز، الوهم الشعبوي.. وصعود أقصى اليمين في أوروبا، نقلاً عن موقع الجزيرة الإلكتروني www.aljazeera.net

هذه الهشاشة حسب برهان غليون[28]: "في غياب التنظيمات الديمقراطية الحقيقية وغياب القواعد والتقاليد والممارسات الواضحة والثابتة التي تميزها وتهيكلها، واقتصار الدعوة للديمقراطية على مجموعات صغيرة من اليسار السابق - وهي المجموعات التي تستخدمها في أغلب الأحيان من أجل إعادة تثمين نفسها في الساحة السياسية - أكثر مما تنظر إليها كبرنامج سياسي حقيقي للتحويل الاجتماعي... ولا تزال الأجيال الجديدة الشابة التي لم تدجن بعد عن طريق الاضطهاد والقمع والإرهاب غير مؤمنة بهذه الانفتاحات ولا حتى بمعنى الديمقراطية؛ إنها فريسة لمشاعر اليأس وهي تريد تحويلات جذرية وسريعة. من الصعب الحديث عن وجود خيار ديمقراطي حقيقي بعد في البلاد العربية مع غياب قوى ديمقراطية قوية ومنظمة. بينما تنزع الدعوة الديمقراطية السائدة إلى أن تكون الرأسمال الثقافي الجديد الذي تثمره النخبة اليسارية الليبرالية المهمشة في التنافس الجديد المفتوح بسبب الأزمة على السلطة... من هنا أعتقد أن المجتمعات العربية تعيش عموماً مرحلة تفكيك النظم الشمولية والتسلطية ولم

---

(28) غليون، برهان، بحث بعنوان: "معوقات الديمقراطية في الوطن العربي"، عن موقع الجزيرة الإلكتروني www.aljazeera.net

تدخل بعد بشكل جدي في إشكالية الانتقال الديمقراطي... الديمقراطية لم تطرح بعد في أي قطر عربي كمعركة رئيسية للتحويل الاجتماعي أو لتحويل المجتمعات بالعمق".

ويلتقي معه في هذا الرأي السيد يسين، بل ويذهب أبعد منه في الحديث عن العجز الديمقراطي في المنطقة العربية، فيقول[29]: "ظننت أنني بعد القيام بتأصيل مفهوم "العجز الديمقراطي" كما يستخدم اليوم في علم السياسة المقارن، أستطيع أن انتقل للحديث عن مظاهر وأسباب وتفسير العجز الديمقراطي العربي. غير أنني بعد تأمل طويل أدركت أنّ المسألة لا تتعلق بالعجز الديمقراطي في حد ذاته، أي الافتقار إلى المقومات الأساسية للديمقراطية، بل إننا في الواقع بإزاء ازمة مجتمعية شاملة... ذلك أنه لا يكفي رد الازمة الديمقراطية في المجتمع العربي المعاصر إلى مجرد السلوك السلطوي لأهل السلطة بما يمثلونه من عصبيات وانتماءات طبقية، وتشبث شديد بالحكم لدرجة الإغلاق التام لباب تداول السلطة... بل إن المسألة تتعلق أيضاً بسلوك الجماهير. أي أننا امام معضلة حقيقية تتعلق بسلوك النخبة

---

(29) يسين، السيد، مقالة بعنوان: "الثورة المصرية معضلة سلوك النخبة وسلوك الجماهير"، جريدة النهار، تاريخ 2/ 3/ 2011.

السياسية وسلوك الجماهير أيضاً، في سياق اجتماعي وثقافي يسوده الفقر والأمية والاستغلال، مما أدى إلى ظاهرة الاغتراب الواسع المدى وتدهور الروح المعنوية للجماهير، وسيادة اليأس بين صفوفها، بعد أن تردت أوضاع الأحزاب السياسية المعارضة... ولعل التطورات السياسية البالغة الأهمية التي حدثت في النظام السياسي المصري تبرز الحقيقة التي أشرنا إليها وهي أننا بإزاء ازمة مجتمعية شاملة، وليس مجرد عجز ديمقراطي يمكن أن يزول لو قضينا على الملامح السلطوية للنظام السياسي الراهن".

إنّ هذا الواقع المتعلق بضعف الديمقراطية في العالم العربي، ينسحب بدوره على مجمل مجتمعات العالم الثالث.

ويمكننا التطلع إلى إحدى تجارب أميركا اللاتينية، التي تعاني أيضاً من الضعف والعجز الديمقراطي، لنرى كيف أنه وعند الإطاحة بنظام تسلطي من قبل حركة ثورية، فإن البديل قد لا يكون بالضرورة بناء دولة بالمعنى الحديث للدولة، أي دولة ديمقراطية. ففي نيكاراغوا، وبعد الإطاحة بالديكتاتور سوموزا عام 1979 رفض الثوار إقامة نظام ديمقراطي قائم على انتخابات اعتبروها مشبوهة، فاستبعدوا خيار اللجوء إلى الانتخابات عام 1980 واعتبر (دانيال وأمبرتو أورتيغا) أن أواليات الديمقراطية البرجوازية لا جدوى منها، فالشعب

اختار جبهة التحرر الوطني الساندينية عندما ثار معها ضد ديكتاتورية سوموزا.

وسننطلق من هذا المثال لنتحدث عن شكل الحكم الذي تشيده الحركات التي توصف فعلاً بالشعبوية، بعد إطاحتها بشكل الحكم أو الدولة التي قوضتها.

الفصل الثالث

نماذج الحكم التي تنتجها الحركات الشعبوية

تنتج الحركات الشعبوية بعيد انتصارها، أنظمة شعبوية، ولنكن أكثر دقة سلطات تدعي أنها تلبي طموحات الشعب، بحيث تسعى القيادات، ومن باب مكافأة الجماهير على النضالات، التي لم تكن لتتحقق الأهداف من دونها، إلى إعلاء خيارات هذه الجماهير من خلال التوجه إلى إرساء حكم يقوم على تحقيق تطلعاتها، لا بل يجعل قوامِه السلطة المباشرة لهذه الجماهير. وهي تستند بذلك إلى شعارات شعبوية بمجملها، بحيث إنها لا تمت إلى الواقع بصلة، وخاصيتها أنها تضليلية تعطي للجماهير ما تنادي به وتعمل في مكان آخر على تحقيق ما تتوخاه هي كقيادات، من السلطة. من هنا جاء الحديث عن كون الشعبوية عرساً أو كرنفالاً دائماً بين القيادة والشعب.

قد يفيدنا هنا ما حدث في نيكاراغوا بعد الإطاحة بالديكتاتور سوموزا من قبل ما سمي الثورة الساندينية التي

قادها المناضل دانيال أورتيغا، وبأي خطاب تمّ التوجه إلى الشعب بعد انتصار الثورة.

ففي ذلك المهرجان الشعبي الكبير الذي أقيم في ساحة "ماناغوا" بحضور الرئيس النيكاراغوي دانيال أورتيغا، تمّ الإعلان عن إنشاء مجالس سلطة المواطنين التي سيمارس من خلالها الشعب النيكاراغوي سلطته.

بداية، ألقت زوجة الرئيس أورتيغا كلمة جاء فيها[1]:

"نتوجه إلى هذا الشعب السيد، هذا الشعب الرئيس، نحن أتينا لنبدأ ديمقراطية إنسانية خلاقة في كل مضامينها، نحن الآن أتينا بشكل ديمقراطي لا يمكن أن نسميه ديمقراطية الجمهوريات، أو ديمقراطية الحكومات، فقد أتينا لنعلن ديمقراطية الشعب، إنها شكل جديد من أشكال السياسة لكي نستطيع من خلالها أن نقرر نحن سياساتنا وثوابتنا ونصنع قراراتنا ...

نحن الآن إذا كنا نتحدث عن الصوت الانتخابي، فلا صوت إلا صوت الشعب، ولا يعلو صوت عن صوت الشعب ونحن نستغني عن الصوت الذي كان يودع في صناديق الاقتراع ليتولى الشعب التصويت لنفسه الآن ... نحن نتحدث الآن عن خيار جديد، عن نموذج جديد هو الديمقراطية

---

(1) نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.voiceafrica.com

الشعبية المباشرة.. نحن الآن في طريق جديد لكي يتفاعل ويتعاون ويلتقي كل أبناء المجتمع ليبنوا مستقبلهم ... نحن في هذه الحركة الشعبية الجماهيرية العارمة التي نعلنها لكم الليلة بكل فخر ومن خلال مجالس سلطة المواطنين هي ثورة سلام، هي ثورة رخاء هي ثورة حقوق".

أما الرئيس أورتيغا فإنه أطل في نهاية المهرجان ليلقي ذلك الخطاب الذي اختتم فيه المهرجان وألهب مشاعر النيكاراغويين فقال:

"إنه بانتصار الشعب النيكاراغوي وإعلان سلطته، انتهى عهد الانتخابات التي تستخدمها أدوات الحكم التقليدية لخدمة مصالحها على حساب الشعب والتلاعب به... انتهى عهد الأنظمة البوليسية التي تروج الأكاذيب ضد الشعب وتقوم بترهيبه. أين الأكاذيب التي كانت تروج ضدنا، ضد الثورة الساندينية.. أين الخونة والمتخاذلون.. أين ذهبوا.. لقد بدأنا تجربة جديدة الآن هي مشاركتنا في مجالس سلطة المواطنين، والمجال متاح للجميع، فليشترك كل أبناء الشعب النيكاراغوي في صنع القرار".

إن هذا الخطاب الشعبوي الذي استعمله دانيال أورتيغا، هو نفسه الخطاب الذي انطلق منه معمر القذافي غداة تأسيسه للجماهيرية الشعبية الليبية، بل إن الأول أي أورتيغا تأثر بالقذافي ولم يتوان عن شكره في خطابه، والقذافي بدوره

جاء بمضمونه من تجربة مجالس السوفيات إلا أنَّه يجدر بنا التطلع إلى النظام الذي بناه معمر القذافي في ليبيا لنتبين ماذا ينتج بعد هذا الاحتفال وأي دولة تقوم وعلى أي أسس، وأيضاً كيف تكون نهاياتها.

لقد قدمت لنا هذه الحركات عدداً كبيراً من النماذج المنتشرة على بقعة كبيرة من خريطة العالم، وهي تتقاطع في ما بينها، وفيها الكثير من أوجه الشبه حتى في التسميات التي تطلقها على دولها بحيث تطغى عليها جميعها صفة الديمقراطيات الشعبية، فهناك "جمهورية الصين الشعبية"، "جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية"، "الجمهورية اليمنية الشعبية"، "الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية" و"الجماهيرية العربية الليبية الشعبية"، وكلها تدعي أن نظامها السياسي ديمقراطي وشعبي، فهي جميعها تعنى بشؤون الشعب، إلا أنَّه وفي تمعن بتركيبة هذه السلطات يتبين لنا كيف أنها تستعمل الشعب لتشييد حكم الشخص الواحد، أو الحزب الواحد.

وكأن الشعبوية تعزز الأنظمة الآحادية الاستبدادية، التي تعتبر الشعب مصدر السلطة في حين تكون هي السلطة.

ولفهم هذا الواقع، لا بد لنا من العودة إلى الأسباب المؤسسة لهذه الظاهرة، والتي لا يمكن فهمها إلا بالإطلالة على واقع المجتمعات المؤهلة لإفرازها.

فقد كنا ذكرنا سابقاً بأن مجتمعات العالم الثالث تشكل موئلاً لهذه الحركات، وذلك يعود إلى واقع الحياة وواقع الإنسان في تلك المجتمعات. فبداية هناك تشابه في الظروف التي عرفتها، بحيث إنها بمجملها كانت خاضعة، ولحقبة طويلة، لحكم مستعمر جائر، ومن ثم لحكومات استبدادية شكلت امتداداً للحقبات السابقة، فاستكملت البناء على ما خلفه المستعمر وراءه خصوصاً في ما يتعلق بواقع الإنسان في تلك المجتمعات الذي خرج مقهوراً من حقبة الاستعمار لتجعل منه حكوماته فيما بعد إنساناً مهدوراً.

ما هو الإنسان المهدور؟

يفرد د. مصطفى حجازي دراسة خاصة عن الإنسان المهدور، فيعتبر أن هذا الإنسان يخضع في المجتمعات التي يعيش فيها إلى حصار مثلّث، والمقصود بهذا المثلث، حكم المخابرات والبوليس السياسي كركن قاعدي للمثلث يتممه ويعززه ركنا العصبيات والأصوليات؛ فحكم المخابرات ينحرف في هذه البلدان عن وظائفه المفترضة، فبدلاً من حماية الوطن من أعداء الخارج يتوجه نحو الداخل ويطارد الإنسان في كل موقع أو فعل أو قول:[2] "إنه يحاصر الإنسان ويقوم بقمقمة طاقاته الحية وترويضها من خلال

---

(2) حجازي، د. مصطفى، الإنسان المهدور، المركز الثقافي العربي.

التربص بالسلوك ومطاردة الفكر. أما الركنان المتممان، فهما العصبيات على اختلاف أنواعها والأصوليات الدينية المتفاقمة التي تفرض حصاراً على أتباعها من خلال سيادة النظام البطريركي والمتمثل بثنائية الطاعة والولاء مقابل الحماية والرعاية والنصيب من الغنيمة. وتنتشر هذه العصبيات في مؤسسات المجتمع قاطبة (رسمية وأهلية على حد سواء)، وتفرض، أي هذه العصبيات الرضوخ والتبعية والانقياد الطفلي لقاء الحماية والمغانم؛ إنها عدوة الاستقلال الذاتي... إنها تخصي طاقات النماء والنزوع إلى الاستقلال الراشد ومبادراته.

أما تزايد انتشار الأصوليات المتطرفة فيؤدي إلى اتساع نطاق التحريم الذي تفرضه على الوجود في مختلف تجلياته... مرجعية الإنسان لا تعود في ذاته بل في نظم التحريم المتفاقمة التي لا تترك خارجها سوى إشباع الحاجات الحيوية النباتية، وهذا الحصار يتجاوز الاستبداد والقهر إلى هدر لإنسانية الإنسان وعدم الاعتراف المسبق بكيانه وقيمته وحصانته...

إن الهدر الإنساني كارثة وجودية تجعل من أي مشاريع تنمية أو إنماء أو عمران، حديث خرافة. ذلك إن الإنسان المستلب في وطنه ومجاله الحيوي لا يمكن أن يعطي، وبالتالي أن يبني، بل يقنع في أحسن الأحوال بالتفرج في

حالة من الغربة، كما ويتحدر الوجود إلى مستوى الرضا بمكسب مادي يغطي الحاجات الأساسية ... إلا أنَّ هناك ما يسمى بالهدر المضاد، وقد يتخذ طابع هدم الهيكل عليه وعلى أعدائه فيما بدأ يشيع من سلوكات تطرف جذري"...

في هذه المجتمعات أكثر الشرائح تعرضاً للهدر حسب د. حجازي هي شريحة الشباب بحيث يتحولون إلى عبء بالنسبة إلى الأنظمة الحاكمة من خلال تهميشهم عن مواقع الحياة المنتجة والمشاركة في صناعة القرار والمصير، إلا أنَّ ذلك يفتح في عملية التهميش نفسها سجل العنف والتطرف[3] "إذ من المعروف أن شباب الظل وقود العنف... هناك تحالف وطيد وتآزر بين قوى القمع والهدر الخارجية وقوى هدر الذات الداخلية؛ فهذه القوى تلتقي وتتآلف، والواقع أنّ قوى الهدر الخارجية لا يقيّض لها النجاح التام إلا بمقدار ما تتحول إلى قوى هدر داخلية، وإلا فإن الاستبداد يبقى مسألة برانية قابلة للثورة ضدها حين تسنح الفرص، ولا ينجح الرضوخ الذي يفرضه التسلط إلا حين يتحول إلى رضوخ ذاتي وقناعة ذاتية بانعدام القدرة على المجابهة والتمرد، فيما يسمى بالعجز المتعلّم، حيث ينظر الإنسان المهدور إلى ذاته باعتباره عاجزاً وليس من سبيل أمامه سوى الاستسلام لهذا

---

(3) المرجع نفسه.

المصير واجتراره وإعادة إنتاجه وتكراره... إننا بصدد سيادة نزوة الحياة، فيسود الاكتئاب والغرق فيه والتلذّذ بمعاناته يتغذى من نزوة التدمير والموت التي تتخذ طابع العدوان الموجهة إلى الذات، من هنا يأتي خطر الانتحار.. على أن لحالة الهدر والغرق في الاكتئاب والتلذذ المازوشي به وجهها الآخر الذي يبقى ناشطاً تحت رماد الرضوخ والعجز والركود. وهو يتمثل باحتقان العنف الذي يمكن أن ينفجر حين يصاب قمقم القمع والحصار بالوهن متخذاً ردود فعل تدميرية لا تفاجئ إلا من أَنِسَ إلى الظواهر واطمأن إلى سلوك الرضوخ الخادع. من هنا القول إنّ القهر يتوالد وإن الإنسان المهدور سيهدر ما عداه حتى تتاح له الظروف.. رد الفعل العفوي يحتمل أن يتوجه إلى التدمير، وهو تدمير يشكل انتقام نزوة الحياة والوجود على ما حل بها من هدر وموت كياني".

عتبة انفجار الهدر

عند هذا المفصل تنطلق الحركات التحررية من ذلك التمرد لنزوة الحياة على نزوة الموت، إلا أنَّ هذا التمرد يحتاج إلى نافذة يطل منها، وتؤاتيه الفرصة عند أول إحساس له بضعف النظام الحاكم، فيحتشد وينطلق إلى تمرده على شكل ثورة لا تنتهي إلا بإسقاط الحكم القائم. إذن الغضب المتراكم والقهر والذل والحرمان، ستشكل جميعها المحرك

الأساسي لانتفاض نزوة الحياة في وجه نزوة الموت. عند هذا الحد تنطلق الجماهير ليس بهدف إسقاط الحكم الذي يقهرها فقط، بل هناك محرك آخر وجداني متأتي من حلم المخلص، القائد المنقذ الذي سينتشلها من واقعها ويقودها إلى بر الأمان، من هنا، وأثناء حراكها غير المنظم والفوضوي، تبدأ البحث من بين صفوفها عمن يضبط حراكها، ينظمها ويقودها، ثم اختيار الشخصية الأكثر محاكاة لتطلعاتها، وتسلمها زمام قيادتها لتسير بها إلى النهايات المرتجاة.

وقد يسأل بعضهم أين الشعبوية في ما ورد:

إن واقع القهر والهدر الذي يخضع له الإنسان في تلك المجتمعات، يصد كل إمكانية لأعمال العقل، وعندما يغيب هذا الأخير وتحلّ محله المشاعر والغرائز والانفعالات فإن المجال حينها يكون مفتوحاً أمام الشعبوية لتقوم بما هو مطلوب منها، أو لنقل إنّ الفضاء يكون مهيئاً لها لتملأه، وتبدأ بالتجلي على أكثر من مستوى، الأول يتمثل في القضية الجماهيرية، لحظة الانفجار الجماهيري الذي غالباً ما يحمل ملمحاً شعبوياً لاتسامه بالغضب والانفعال والفوضوية، كما وتتجلى ثانياً بوقوف هذا الحراك الجماهيري في وجه النخبة الحاكمة أو لنقل الدولة بهدف تقويضها. على مستوى ثالث تأخذ طبيعة الأهداف والشعارات التي تنادي بها تلك الجماهير طابعاً شعبوياً بحيث تتحكم بها العاطفة والبعد عن

الواقع، وتتجلى الشعبوية رابعاً في نزوع تلك الجماهير للبحث عن البطل المنقذ الذي سيقطع عنق التنين كما في أسطورة الخضر. وهنا تتبلور الفتيشية أو الصنمية، وهي ظاهرة تعود إلى ذلك الزمن الذي كان الإنسان يعبد فيه الاصنام. وهذه الظاهرة تلعب دوراً حاسماً في عملية القهر الإنساني؛ يعتبر اريك فروم أنّ الإنسان هو الذي صنع الاوثان، ومع ذلك يقوم بعبادتها والركوع لها، وهو بذلك[4] "يحوِّل ذاته إلى شيء، وينقل إلى الاشياء التي خلقها، خصائص حياته، كما أنه بدلاً من أن يمارس ذاته كفرد خالق ،فانه يكون في حالة تواصل مع ذاته فقط عبر عبادة الوثن. بهذا يصبح الإنسان متخلفاً عن قوى حياته، عن ثروة طاقاته، ويكون متواصلاً مع ذاته في طريقة خضوع غير مباشر للحياة المجمدة في شكل وثن. إنّ الأوثان يمكن أن تكون تمثالاً لإله، دولة، كنيسة، أو ملكية. فالوثنية تبدل موضوعاتها حيث إنها لم تعد مقتصرة فقط على تلك الاشكال التي كان للوثن فيها معنى دينيا فقط. إنّ الوثنية هي دائماً، عبادة للشيء الذي يعطيه الإنسان قوته المبدعة، ويخضع له، بدلا من ممارسة ذاته في

---

(4) النص الكامل لخطاب الرئيس الفنزويلي هوغو تشافيز أمام الجمعية العامة للامم المتحدة، تاريخ 25/ 9/ 2006، عن الموقع الإلكتروني http://articles-to-read.blogspot.com

فعل مبدع". والوثن في حال جماهير مجتمعات العالم الثالث يتمثّل بالقائد الذي تختاره تلك الجماهير وتسلمه بثقة عمياء زمام قيادتها وتلبسه لبوس القداسة وتسير تحت رايته في حربها ضد النظام أو السلطة القائمة لإسقاطها؛ إن هذا المناخ برمته هو مناخ يكون للشعبوية فيه الحضور الأكبر.

وهذا المنحى الذي تسلكه الأمور هو الذي سيؤسس في مرحلة لاحقة للنظم الأحادية الاستبدادية، حيث أن تلك المبايعة من الجماهير لقائدها والشرعية المطلقة التي تضفيها عليه تحوله فيما بعد إلى مستبد، بحيث إنه لا يمكن لأحد أن يحظى بفرصة للتسلط على الآخرين ويُعرِض عن استعمالها؛ فالإنسان بطبيعته إذا لم يكن هناك من سلطة تردعه فلا شيء يمكنه أن يقف في وجه استعماله لسلطته.

إذن نحن هنا أمام استنتاج يقول بأن الشعبوية كظاهرة تتيح، أو الاصح تفتح الطريق لما يسمى بالاستبداد. وقد يطرح بعضهم هنا تساؤلاً بأنه وحسب ما ذكرنا سابقاً إذا كانت الشعبوية تنهار أمام الدولة الديمقراطية، فما هو مصيرها في ظل الأنظمة الاستبدادية. والواقع أنه وبعد متابعتنا لمناخ النظم الاستبدادية يتبين لنا أن هذه الأنظمة هي الأكثر استعمالاً للأدوات الشعبوية. حتى إنه يمكن أن نطلق على تلك الأنظمة لقب أنظمة شعبوية. وهذا ما سنحاول التأكيد عليه في هذه القراءة للنظم الاستبدادية.

الشعبوية والاستبداد

لطالما يشغل سدة الحكم في الأنظمة الاستبدادية قادة وصلوا برضا جماهيرهم، بل قل إنهم اعتلوا السلطة على أكتاف الجماهير، وهذه الأخيرة بدورها هي التي اختارتهم لتلك المهمة بعدما وجدت فيهم المواصفات اللازمة للقيام بهذا العمل. وهم بدورهم يمتلكون المواصفات القيادية لتبوُّء هذا الموقع، ويمتلكون السحر المطلوب، الكاريزما اللازمة، لجذب الجماهير إضافة إلى إتقانهم للعبة التأثير على هذه الجماهير ومحاكاة مشاعرها مما يمكنهم بالقدرة الكافية على تعبئتها وشحنها، بل إنهم يحرصون دائماً على القيام بذلك لأهداف عدة، أولها، إشغال هذه الجماهير بقضية كبرى وعدو يجب مقاتلته لتنعم بالسعادة الموعودة، الأمر الذي يتطلب إبقاءها في حال من الغليان، وثانياً، لضمان تماسكها، لتكون كتلة واحدة. هذا الأمر الذي لا يمكن أن نجده في الدولة الحديثة حيث للتعددية السياسية أهميتها لصحة النظام السياسي، كما ويلحظ غياب حالة التعبئة العامة للجماهير، وعملية الشحن العاطفي والغرائزي واستعراض القوة، بل على العكس من ذلك يغلب منطق التسامح مكان منطق العداء.

وقد تفيدنا بعض الأمثلة وتقدم لنا صورة أوضح عما أوردناه.

بداية سنتناول مثالاً من المجتمعات الحديثة لنبين فيما بعد، ومن خلال مثالٍ آخر من مجتمعات العالم الثالث، الفرق في نوعية الخطاب بين كل من هذين المجتمعين وطريقة التعاطي مع صورة الآخر.

ففي ألمانيا، قام مسؤول سابق في المصرف المركزي الألماني ويدعى تيلو سرازين بنشر كتاب يحمل عنوان "ألمانيا تجري باتجاه خسارتها"، وقد شكل الكتاب صدمة للمواطنين الألمان كونه يشن هجوماً قاسياً على المهاجرين المسلمين مدافعاً عن نظرية "المكون الجيني اليهودي"، فما كان من الرئيس الألماني كريستيان ولف آنذاك، وفي الذكرى العشرين لتوحيد ألمانيا إلا أنَّ ينتهز الفرصة لتناول صعود الشعبوية فقال: "إن ألمانيا الموحدة بعدما تخلصت من النازية ثم من الشيوعية، أصبحت بلداً خالياً من العِقَد وبالتالي يتعين على الألماني، ألاّ ينسى أن التسامح يشكل جزءاً من هويته، فالألمان شعب واحد وهذه دعوة موجهة إلى كل من يعيش عندنا".

نتطلق من هذا الخطاب لنسجل عدة ملاحظات:

أولاً - يتميز هذا الخطاب بعقلانيته وهي الصفة التي تطبع خطابات رجالات الدولة. في حين أن القائد الشعبوي يخلو خطابه من أي ملمح للعقلانية، بل على العكس من ذلك يتميز خطابه بالطابع اللاعقلاني المشحون بكل العبارات التي تحرك عواطف الجماهير وانفعالاتها وغرائزها.

ثانياً - إن التسامح الذي يؤكد عليه الرئيس الألماني كونه يشكل جزءاً من هويته، هو في الواقع سمة تفرضها طبيعة الدول الحديثة، والنظم الديمقراطية؛ فالتعدد والاختلاف هما من أهم مكوناتها وما يكفلهما ويحميهما هو تلك الثقافة التي تقوم على الاعتراف بالآخر وعلى التسامح، في حين أنه في الحالة الشعبوية، الآخر المختلف هوالعدو، العميل، الخائن الذي يجب إبعاده وتصفيته؛ في الحالة الشعبوية لا مكان لمن هو خارج الكتلة البشرية الواحدة، ومن ينحرف عنها عدو يجب إزاحته.

وها إنّ خطاباً لتشافيز الرئيس الحالي لفنزويلا ينقل لنا صورة أخرى. خطاب محمل بلغة الاستعداء والتحدي والتعبئة، كما وتتجلى فيه بصورة واضحة صورة الآخر (الولايات المتحدة الاميركية) كعدو، إضافة لغياب أي ملمح لمفهوم التسامح الذي نستشفه بوضوح في خطاب الرئيس الفنزويلي.

ففي العام 2006 وامام الجمعية العامة للامم المتحدة وقف تشافيز وبيده كتاب لنعوم تشومسكي، وقد بدأ خطابه على هذا النحو[5] "ممثلو حكومات العالم صباح الخير

(5) خطاب لهوغو تشافيز، سفارة كوبا في الكويت، تاريخ 25/ 4/ 2011، عن الموقع الإلكتروني http://www.embacubakuwait.com

أجمعين. أولاً أريد أن أدعو بكل تقدير، كل من لم يقرأ هذا الكتاب أن يقرأه.

نعوم تشومسكي، أهم مفكريِ أميركا والعالم، وهذا أحدث كتاب له "الهيمنة أو النجاة: الاستراتيجية الامبريالية للولايات المتحدة" (يرفع الكتاب ويلوح به امام الجمعية العامة).

"إنه كتاب ممتاز يساعدنا على فهم ماذا حدث في العالم خلال القرن العشرين وما يحدث الآن، ويطلعنا على أكبر تهديد يطل على كوكب الارض .

أنّ طموحات الهيمنة للامبراطورية الامريكية تهدد وجود السلالة البشرية. ونستمر في تحذيركم من هذا الخطر، ونناشد العالم لوقف هذا الخطر المسلت على رقابنا مثل السيف.

وأعتقد أنّ أول من يجب عليهم قراءة الكتاب هم اخواننا واخواتنا في الولايات المتحدة الامريكية لأن الخطر في عقر دارهم .

الشيطان في داخل البيت . الشيطان نفسه داخل البيت.

والشيطان جاء هنا بالامس. أمس جاء الشيطان هنا. هنا بالضبط (يرسم علامة الصليب) ورائحة الكبريت لاتزال في الجو (الكبريت هو رمز الشيطان في التراث لأنه يذكر بنار جهنم- الدورية)، وكما يقول تشومسكي هنا بوضوح وبعمق فإن الامبراطورية الامريكية تقوم بكل ما في وسعها لتدعيم

نظام هيمنتها . ونحن لا نستطيع أن نسمح لها بذلك . لانسمح لدكتاتورية العالم أن تتكتل".

وفي خطاب آخر له يقول[6]: "في قلب واشنطن، انعقدت قمة إرهابيين. قمة، التقت فيها عصابة، عصابة حقيقية، من قطاع الطرق والنصابين والإرهابيين واللصوص والأشرار، وبالإضافة إلى ذلك برعاية شخصيات مرموقة من عالم الشركات، وليس من تيارات اليمين المتطرف الجمهوري فقط، وإنما كذلك من الحزب الديمقراطي، وأطلقوا... وثيقة دولة، وثيقة قومية . تهديداً علنياً لفنزويلا، لبلدان وشعوب "التحالف البوليفاري" ألبا... قمة الإرهابيين تلك التي التأمت في واشنطن، وفيها بعض الفنزويليين، البوليفيين، القتلة - كما تساءل يوم أمس صحافي معروف أثناء مقابلة-، يكون مفيداً معرفة وثيقة السفر التي يستخدمها هؤلاء الخارجون عن القانون، من أين دخلوا، ما دامت أسماء بعضهم واردة في الدائرة الحمراء للإنتربول. لقد وصلوا بكل سهولة، وهم يدخلون ويصولون ويجولون في شوارع واشنطن، ويكرّمونهم. ولهذا فإن نعوم تشومسكي محق. أنا أكرر مع نعوم تشومسكي: دولة الولايات المتحدة هي دولة فاشلة تتحرك

---

(6) فروم إريك، مفهوم الانسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، دار الحصاد، دمشق.

على هامش القانون الدولي، لا تحترم شيئاً على الإطلاق. وبالإضافة إلى ذلك تشعر أن من حقها أن تفعل ذلك، لا تتحمل مسؤوليتها أمام شيء. إنها تهديد ليس لفنزويلا ولشعوب العالم فحسب وإنما لشعبها بحد ذاته، هذا الشعب موضع الاعتداء من قبل تلك الدولة اللاديمقراطية.

نحيّي من هنا إيفو موراليس، الرفيق الشجاع، والشعب البوليفي.

نحيّي من هنا رافائيل كورّيا، الرفيق الشجاع، والشعب الإكوادوري.

نحيّي من هنا دانييل أورتيغا، هذا الكومندان الرئيس، الرفيق الشجاع، والشعب النيكاراغوي.

نحيّي من هنا فيدل كاسترو وراؤول كاسترو، وهذا الشعب الكوبي الشجاع.

أشاهد من هنا رسم ميراندا، رسم بوليفار، وهناك مارتين توفار أي توفار، كارابوبو، واقول بشغف: إنه هنا في جيناتنا، في دمنا. كما قال ماو، الربّان العظيم.

هذه الإمبراطوريّة، هذه الدولة الفاشلة وهي الولايات المتحدة، بالرغم من جبروتها، ومن تهديداتها، سينتهي بها الأمر لأن تصبح نمراً هائلاً من ورق، ونحن مجبرون على التحول إلى نمور حقيقيين من الفولاذ، نمور صغار من الفولاذ، لا نُهزَم، ولا نروَّض".

الشعبوية وارتباطها بنظرية العدو

ترتبط الشعبوية ارتباطاً وثيقاً بصورة العدو. إنه ضرورة لا بد منها، وإن لم يوجد فإنه يُخترع، وهو قد يكون من الخارج أو من الداخل لا فرق، المهم أن يكون موجوداً. إنه حاجة ليس لعملية التعبئة والشحن الجماهيري فقط بل أيضاً للإسقاط، وما له من دور في تنفيس المشاعر التي تثقل كاهل الجماهير العاجزة.

ولعل أكثر النماذج القيادية في التاريخ والتي اتسم تعاطيها مع المعارضين بمغالاة كبيرة كانت لماوتسي تونغ. فالجرائد الحائطية التي كانت تنتشر في الصين لطالما تضمنت السباب واللعنات، وليسقط فلان ويحيا فلان، ولمجرد ذكرها لاسم الشخص الذي تلعنه فهي بالتالي تعرضه كعدو لتتعرف عليه الجماهير التي تبقى عيونها معلقة على جرائد الجدران هناك. والسلوك الأكثر مغالاة كان في التعاطي مع من كان يعتبرهم ماو اعداء، أباطرة الصين السالفين. يحكي لنا ألبرتو مورافيا ماذا فعل الصينيون برموز الماضي؛ ففي زيارة له إلى ما يعرف هناك بقصر الصيف وبحيرته التي تتناثر حولها بيوت ساحرة يقال إنها تعود للإمبراطور السابق وحاشيته، وفي جولته على هذه البيوت شاهد فيها مجموعة كبيرة من الصّور التي تنسخ الموضوعات الزخرفية التقليدية وأيقونات بيضاوية

كبيرة عليها مشاهد لمنظر طبيعي أو لشخصيات، وما لفت موراڤيا في تلك المشاهد أنها كانت كلها مطلية باللون الزهري الصارخ الذي بدأ يتحلل بفعل الشمس والمطر. وهذه المشاهد طليت حسب موراڤيا لتخفي الوجوه التي تمثلها، وهي لم تكن سوى وجوه الماضي المستغرقة في حياتها الهادئة، اللطيفة، وهذه مشاهد ينبغي للشعب أن يمحيها من ذاكرته، بحيث لا يعود في ذهنه أي صورة عنها، فالماضي ليس سوى أولئك الملاك الزراعيين الذين كانوا يعذبون الفلاحين. ويقول موراڤيا عن رحلته إلى ذلك المكان في الصين[7] "إنّ ما نراه ليس إلا الموت النهائي الحاسم للآثار التي تدعى سياحية. والصينيون يقتصرون في اللحظة الحاضرة على كراهية آثارهم.. وذلك لأنهم يمقتون ماضيهم برمته، سواء أكان ماضيهم الفني أو الفلسفي أو الأدبي. ويعتبرون أنه غير قابل للاستخدام في نظام جديد من القيم المصنوع كله بمواد ماوية.. من هنا أفسد الحرس الأحمر آثار الصين وأحرقوا الكتب ودمروا كل ما تبقى من الصين القديمة".

إنّ الماضي الذي تم الانقضاض عليه، لا يمثل كل ما يرتبط به، عدواً، بل إن كل منتقد للسياسات التي يحددها القائد يغدو بدوره عدواً ايضاً. وهذا ما فعله ماوتسي تونغ

(7) موراڤيا، البرتو، ثورة ماو الثقافية، دار الآداب.

برفاق الدرب، فحين حاول كل من ليو تشاو تشي ودينغ شياو بنغ، التصدي للتطرف اليساري الذي بدأ يظهر في ممارسات ماو، وكذلك لمظاهر عبادة الشخصية، لم يتأخر ماو في اعتبارهم قوى يمينية معارضة للخط العام للحزب ومن الضروري التصدي الحازم لها. وما إن باشر بثورته الثقافية حتى كان قرار الانتقام منهما يتصدر كل الاهداف لا وبل أكثر من ذلك، يروي محمد خير الوادي بأن مشروع الثورة الثقافية برمته وقفت خلفه تلك الرغبة الانتقامية من رفاق الامس، ولم يطل الوقت بعد انتصار تلك الثورة حتى[8] "بدأ الحرس الاحمر هجوماً شاملاً على مكاتب الحزب الشيوعي الصيني... وتم طرد اعضاء القيادات الحزبية المناطقية، وممارسة شتى انواع القهر والاذلال والتحقير بحقهم امام الناس... وأتبع ماو ذلك باتخاذ اجراءات عقابية ضد معارضيه من اعضاء القيادة. فقد تم طرد ثلثي اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني... ثم وضعت قائمة سوداء تضمنت اسماء المعادين للرئيس ماو، ومنهم دينغ شياو بنغ، وأطلقوا عليها "عصابة قطاع الطرق".

والحقيقة أن مصطلح "العصابة" تحديداً هو اكثر

---

(8) الوادي، محمد خير، تجارب الصين من التطرف إلى الاعتدال، دار الفارابي.

المصطلحات التي يمكن أن تصف نموذج الحكم الماوي، وكل نماذج الحكم المشابهة له في العالم. ويمكن الاضافة هنا بأن الشعبويين يبنون دولاً، تعيث فساداً، ترهيباً، عنفاً، واستبداداً في المجتمع، وتقبض على كل مكوناته وتستغلها وتستعبد شعوبها، وهذا سلوك لا يمكن أن يكون سلوكاً لرجالات دولة بقدر ما هو سلوك لطالما تميزت به العصابات. إنّ اعتلاء الشعبويين لسدة الحكم يعني أنّ الدولة ستتحول إلى ما يعرف بالعصابة، وإنّ حكم معمر القذافي في ليبيا على سبيل المثال هو حكم عصابات، فقد بدأ نظامه الثوري ومنذ اعوامه الاولى بعمليات القتل والقمع الوحشي، فيحكى عن اعدامه للطلبة في الجامعات والمصلين في المساجد، والمحتجزين في السجون؛ لقد مارس القذافي الارهاب سراً وعلانية، وتأثر بخطوات ماو فأصدر الكتاب الاخضر على غرار الكتاب الاحمر في الصين، هذا اضافة إلى نهبه لثروة ليبيا النفطية، فيحكى عن 200 مليار دولار . حسب صحيفة الغارديان البريطانية . ناتجة عن استيلائه على مداخيل النفط لمدة 42 عاماً دون حسيب أو رقيب، كما أنه، ومنذ توليه الحكم، لم يبن دولة في ليبيا، ليس هناك مبان حكومية، الدولة خيمة متنقلة والمؤسسات الحكومية حولت إلى لجان شعبية يرأسها ازلامه أو الأصح عصابته، وقد تكون

الجماهيرية الليبية بشخص قائدها والمؤسسات التي شيدها من أكثر النماذج تجسيداً للشعبوية بكل مظاهرها أي القائد الشعبوي والحكم الشعبوي والادارة الشعبوية للبلاد.

كذلك وصف حكم موسوليني بحكم العصابات، فهو ومنذ تأسيسه للحزب الفاشيستي لم يتصرف كحزب سياسي، وإنما كرجال عنف وعصابات وقد لبسوا القمصان السود وانطلقوا في مسيرة ترهيب الناس، تعذيبهم وقتلهم. لقد بدأ موسوليني حكمه بإلغاء كل الاحزاب الاخرى، فكان على الشعب أن يصوت للحزب الفاشستي فقط وكان على الشباب أن يتعلموا مبادىء الحزب، وفرض على الصغار الالتحاق بمعسكرات تدريب ليتم اعدادهم كجنود صغار، وكان عليهم الايمان والطاعة العمياء. وكان الفاشيون ينظمون غارات في الارياف، يدخلون المزارع المعروفة بأنها اشتراكية، فيقتلون الناس أو يعذبونهم. لقد شتتوا الحزب الشيوعي واغتالوا العديد من قادته.

الشعبوية واستراتيجية التضليل

وفي تحليله للحالة الاستبدادية، وللمستبد يقدم لنا أيضاً د. مصطفى حجازي صورة تدعم هذه المقولة، فهو يعتبر أن المستبد يكمُّ الأفواه، ويقمع المعارضة إلا أنَّه يرتضي من

الناس الصمت[9] "كما أنه يترك حيزاً مدنياً لهم للتحرك ولا يدمجهم في آلته ما داموا يسلّمون بسلطانه، كما أن الاستبداد يحرص عموماً على تفرده، بمختلف مظاهر وآليات الحياة السياسية المعروفة من انتخابات ومجالس تمثيلية ومجالس محلية وهيئات مجتمع مدني، إلا أنَّ لكل هذه المؤسسات حدودها في القول والتحرك والممارسة، فالحكم خط أحمر غير قابل للتجاوز، إنه عبارة عن قبضة حديدية ترتدي قفازاً مخملياً يشي بمظاهر الحداثة، وما يسمى ديمقراطية، إلا أنَّها ديمقراطية اللعبة خارج خطوط السلطة الحمر". وهذا الواقع نجده في كل الانظمة التي يشغل سدة الحكم فيها قادة شعبويون.

إن حرص المستبد على إقامة هذه المؤسسات هو من ضمن الغش السياسي للجماهير، وإيهامها بالمشاركة، عبر هذه المؤسسات، في الحياة السياسية من جهة، ويكون قابضاً على مسار الحركة برمتها في المجتمع من جهة أخرى.

بل إنه يغالي في غشه إلى تلك الدرجة التي يذكرها أيضاً حجازي في تقديمه لصورة المستبد بأنه أحياناً كثيرة يشارك في السجالات والنقاشات والممارسات الشعبية والمؤسسية ما دامت هذه المشاركة تساعد في تمويه استبداده وتزيين

---

(9) حجازي، د.مصطفى، الانسان المهدور، المركز الثقافي العربي.

صورته[10]، "يفرض المستبد سطوته على كامل النسيج المجتمعي مستعيناً بكل وسائل الدعاية والترويج التي تسري بين الجماهير بسرعة خارقة مدفوعة بإثارة مشاعر انعدام الطمأنينة والقلق على الذات والمصير.. سمعة الرهبة، تسري في النفوس وتجري في العقول، وتنتقل من خلال آلية العدوى الانفعالية، التي تميز عقلية الجمهرة في حالات الشدة والقلق، وبالطبع لا بد من تعزيز هذه السمعة من خلال تغذية حتميتها بوقائع جديدة على الدوام.. كما ويعتمد المستبد آليات تَحَكُّم تهدف لإسباغ وجه مشرق له، وتقديمه للناس بصورة إيجابية؛ فالطاعة وحدها لا تكفي، وقد تظل ظرفية وتنقلب إلى ضدها ما لم يصنع التعلق"، بحيث أن أقصى مستويات السيطرة وأكثرها فاعلية تتمثل في أن تكون محبوباً، ومرهوباً في الآن نفسه، وهذا ما كان يشدد عليه ماكيافيلي.

ويضيف حجازي بأنه، بسبب ذلك "تكثر المناسبات في الأنظمة الاستبدادية ويتم ربط صاحب السلطة بالأعياد الوطنية، والممارسات العامة حيث إن كل الشعوب بحاجة إلى بُعد احتفالي في حياتها يشكل جانب المتعة والتفريج والتخفيف من أعباء الحياة ومسؤولياتها، إضافة إلى أن للأعياد وللمناسبات وظيفة اجتماعية كونها تخلق شعوراً

---

(10) المرجع نفسه.

بالانتماء والهوية والاعتزاز بها كما أنها تساعد في تماسك الجماعة".

الشعبوية واحتلال المجال الادراكي

كما ويسيطر المستبد على المجال الإدراكي للناس فيحتل بصوره ورموزه والشعارات التي ترتفع في تمجيده والكتابات، والتهاني، كما نشرات الأخبار المرئية والمسموعة.. يصبح كلي الحضور في مدركات الناس، الواعية وغير الواعية، المقصودة والعفوية، ويسمى ذلك إدارة الإدراك، ويقصد به التحكم بأفكار ومواقف وميول الآخرين كي يتصرّفوا كما يريد.. إن ذلك يبيح للمستبد أن يتصدر الانطباع والتشبيك العصبي ممثلاً النظام الإدراكي اللاواعي ويتحول حضوره إلى حضور كلي ذهنياً.

وبنظرة منا إلى الدول التي يحكمها قادة شعبويون نجد كيف يحرص قادتها على احتلال المجال الإدراكي. ولعل أحدث نموذج للقيادة الشعبوية يتمثّل بهوغو تشافيز. يقول بول الأشقر بأن لهذا الأخير أداة للتواصل هي لسانه الذي لا يتعب[11]. "ففي العام 2008 استهلك 124 ساعة في خطابات رسمية هذا من دون حسبان برامجه الخاصة مثل

---

(11) الأشقر، بول، هوغو تشافيز، جريدة الأخبار اللبنانية.

"آلو بريزيدنتي". إنه محادث من الطراز الأول يتقن فنون التواصل، قادر على مسامرة المستمعين ساعات في مهرجان أو أمام التلفاز، وهو يخطب ويشرح ويفاجئ ويمزح ويغني ويقرأ شعراً، وكل ذلك في الجلسة نفسها، ومع أن تشافيز حملته انتخابات ديمقراطية إلى سدة الحكم في فنزويلا إلا أنَّه جنح نحو الأحادية ونظام الشخص الواحد، ويعتبر أن ترشحه للرئاسة ووجوده في السلطة ضرورة ليس من أجل السلطة، بل من أجل القيام بالثورة". ويُعتَبَر تشافيز من أكثر القادة شعبوية في أميركا اللاتينية، هذا الرجل المسكون بسيرة سيمون بوليفار الذي تمكن في أقل من خمس سنوات من تحرير أميركا الجنوبية من الوجود الأسباني- والواقع أن سيمون بوليفار كان ملهماً لكل قادة أميركا اللاتينية- وبالعودة إلى تشافيز فإنه بالإضافة لتأثره بسيمون بوليفار يعتبر فيدل كاسترو أباه الروحي، ولربما استقى منه وأخذ عنه ذلك الأسلوب الخطابي، لأثره البالغ في احتلال المجال الإدراكي للجماهير. فكاسترو أيضاً، تميز بقدرته الخطابية، فقد كان قادراً على إلقاء خطاب لساعات وساعات، حتى أنه وفي إحدى الخطب وقف أمام الشعب الكوبي لمدة تزيد عن ثماني ساعات متواصلة، حتى أنه سجل رقماً قياسياً في الأمم المتحدة عندما خطب لأربع ساعات متواصلة. وكان يعتبر شاحناً إيديولوجياً لشعبه، وخطبه تتميز على الرغم من طولها

بالتشويق المصحوب بحركات يدوية وجسدية، مما يجعله قريباً من المستمع وجدانياً، فلا تفصل بينهما أية حواجز إدراكية.

ولطالما استخدم القادة الشعبويون كل الوسائل المتاحة لاحتلال المجال الإدراكي، ففي مصر على سبيل المثال وإبان حكم عبد الناصر اعتُمد الأسلوب ذاته. فحسب د.عبد الرازق عيد، قام هيكل آنذاك[12] "بهيكلة خطاب سياسي ايديولوجي سيشكل عنصراً تكوينياً في بنية الخطاب السياسي العربي القومي. وبنية هذا الخطاب سترتسم على شكل خطاطة مثلثة الاصوات: الصوت الأول هو صوت عبد الناصر الذي امتلك مفتاح سر افئدة الجماهير برنة الايقاع الذي يشدد على اواخر الحروف فيمنحها أداءها لينسحب على امتداد الجماهير العربية من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر:لبيك عبد الناصر. ورأس المثلث الآخر صوت احمد سعيد الذي تخصص بصناعة "صوت العرب" الهادر بالدعوة إلى(ارفع رأسك يا أخي العربي)، اذ المشروع القومي الثوري سيؤسس لـ(وحدة لا يغلبها غلاب) في وجه الرجعية والاستعماررر... مع التشديد على الراء الذي كان يفعمنا بالحماسة القومية والفخفخة الثورية والفخامة النضالية! ومن ثم يأتي صوت محمد حسنين

---

(12) عيد، د.عبد الرزاق، هيكل العابر للشرعيات، موقع الشفاف الإلكتروني.

هيكل ليمنح للخطاب اتساقه بعد أن تشبّع بغواية السرد والفتنة، متأثراً بالميراث الحكائي العربي من جهة، والمدرسة الغربية الانكليزية في الصحافة القائمة على الخبر من جهة اخرى، هذا المزيج المتفاعل مع كيمياء (المسرح- السينما- الغناء: المجسدة للقوة الناعمة المصرية، على حد تعبير هيكل نفسه، اتاح تركيباً مزجياً تفاعلت فيه عناصر الخطاب الناصري، مع خطاب صوت العرب لأحمد سعيد ومحمد عروق، كل ذلك تفاعل عضوياً من اجل إنتاج جاذبية سحر الخطاب الذي مارس رخامته الثورية تحت شعار "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" حتى كانت معركة حزيران 1967".

وقد عرف التاريخ عدداً كبيرا من القادة الشعبويين الذين كرسوا جزءاً كبيراً من اهتمامهم لاحتلال المجال الإدراكي للجماهير، ولعل ابرزهم في التاريخ كان هتلر.

الشعبوية وارتباطها بصورة القائد المنقذ

وبالعودة إلى القراءة في الاستبداد مع د. مصطفى حجازي يعتبر أن المستبد تسانده في استبداده طبيعة المجتمع الذي يحكمه، ويعود هنا ليتحدث عن - ثالوث حصار الإنسان - فيعتبر أن البنى العصبية في المجتمع تشكل أكبر سندٍ

للاستبداد، فهي تولد علاقات التسلط مقابل الخضوع[13].

"وهو يعيد إنتاج ذاته في سلسلة من علاقات التسلط/خضوع، كما يُنشئ أناساً درجوا على طاعة من هم فوقهم، والتسلط على من هم دونهم، ما يسند الاستبداد وينشره في شبكة العلاقات الاجتماعية. وهذا الأمر ينتج عنه تعزيز اتجاهات التصلب والقطيعة كما يتعزز في الكلام منطق الإخضاع وليس منطق الإقناع، ويتخذ التواصل منحى الاستماع/الانصياع وليس منحى الحوار المتبادل. وذلك يشكل السند الثقافي للاستبداد. وأكثر ما تصادف هذه الصورة في الثقافة الشعبية، حيث تتصدر الرؤية الحياتية التي تقول بالمستبد العادل، أي صورة الحاكم صاحب السلطة وليس صورة المسؤول المفوض والخاضع للمساءلة... هذه الصور الشعبية تطبع كل سلطة بطابعها، إنها تصبح صنو السلطة. ولذلك فإن أي إنسان شعبي، حين تتاح له فرصة ممارسة السلطة على آخرين لا يجد مرجعية لهذه الممارسة سوى الاستبداد ... كل الروايات الشعبية تفيض بنموذج الاستبداد باعتباره نموذج السلطة الرئيس.. ويصور المستبد على أنه كائن مفرط القوة، التي تسحر الجماهير وتجعلها تنقاد طائعة. إننا هنا بصدد اللاوعي الثقافي، على غرار اللاوعي الفردي. والمقصود باللاوعي

---

(13) حجازي، د.مصطفى، الانسان المهدور، المركز الثقافي العربي.

الثقافي هو ذلك المخزون الثقافي المتوارث الذي يوجه الرؤى والميول، ويحدد السلوكيات بشكل عفوي. إنه يمثل قولبة الرؤية والموقف ودافع السلوك. ليس من عجب إذاً انتظار الجماهير المقهورة والمهدورة الخلاص على يد بطل ذي قوة وسطوة، بطل منفرد، ومتعال يرد إليها حقوقها السليبة، إنها تسارع لتسليمه قيادتها وتجاهر بحبها وولائها شريطة أن ينصفها ويحميها. وهي لا تخشى أن ينقلب إلى ظالم لها. عندها يتفجر الغضب الجماهيري الذي يمكن أن يكون مفرطاً في شدته وقد يتخذ شكل ثورة عارمة، وردود فعل انفجارية".

ويلتقي هذا الرأي مع رأي ألكسندر دوّنا الذي يعتبر أنّ الشعبوية(14) "تتجسد على الدوام في رجل منقذ ومحبوب. هنا تكمن أهمية التحليل النفسي، فالطاقة معدية واستهواء الزعيم يلعب دوراً مضاداً للإحباط. إنها لعبة الإغراء والاتصال المباشر الحار الذي يؤدي إلى تعبئة وتنظيم شعب مطواع لكن في حالة غضب".

إذن عندما توصف الشعبوية بأنها عرس دائم بين الجماهير وقادتها فهي تنطلق من هذه الخلفية الثقافية، والموروث الثقافي اللاواعي الذي تحدث عنه حجازي. كما أنها تصبح لعبة بين طرفين، قادة وجماهير.

---

(14) دونا، الكسندر، مقالة بعنوان: "هل يجب أن نخاف من الشعبوية"، الموند ديبلوماتيك، عدد تشرين الثاني 2003.

يحكي لنا روبن ماكايكو تشيرامبو عن الشعبوية في مالاوي الإفريقية، فيذكر أن باندا رئيس مالاوي مدى الحياة[15]، "حكم في ظل نظام الحزب الواحد، منذ استقلال البلد في العام 1964 حتى تأسيس الديمقراطية في عام 1994. وقد سيطر على البلاد وسكانها بوسائل قمعية، مثل الاعتقال من دون محاكمة والرقابة الصارمة على الصحافة. ويقال، إنّ ميليشيات باندا كانت تعتقل أو تقتل أي شخص تشك في ولائه للزعيم، ولكن النظام سعى أيضاً إلى الحصول على رضا جزء كبير من السكان على حكمه. فاستعان باندا برموز ثقافية، مثل الألقاب الفخرية التراثية والقومية والدينية التي أطلقها على نفسه لشرعنة زعامته، كالأسد والغازي، الحامي، الموقر وأبي الأمة الملاوية وموسى، والمنقذ، وساعده الإعلام في ذلك، فكانت إذاعة القطاع العام تبثّ أغاني تمدحه وتصفه بهذه الألقاب، خصوصاً في المناسبات الرسمية الرامية إلى تكريمه. وكانت هذه المناسبات تتضمن رقصاً تقليدياً كان الرئيس يشارك فيه ليمثل الأدوار التي تدل عليها الألقاب"، (وهنا تحضر امامنا صورة الوليمة الطوطمية التي تحدث عنها فرويد في كتابه

---

(15) Chirambo, Reuben Makayiko, Democracy as a limiting factor for politicized cultural-populism in Malawi, Africa spectrum magazine 2000 -http:\\scholar.google.com.

"الطوطم والحرام"). ويؤكد تشيرامبو أن معظم الزعماء الأفارقة الذين قادو بلادهم استخدموا هذا النوع من السياسة الشعبوية، فعلى الرغم من أنهم تبنوا الديكتاتورية القائمة على حكم الحزب الواحد، إلا أنَّهم استعانوا برموز وممارسات ثقافية لشرعنة أنظمتهم أيضاً. فتشبهوا بأبطال الماضي وادعوا أنهم خلفاؤهم.

وقد عرف العالم العربي أيضاً هذا النموذج، فلطالما كان يطلق على صدام حسين ألقاباً مماثلة لتلك التي تطلق على باندا، من الفارس إلى الرفيق المغوار وبطل التحرير والمجاهد والقدوة وباني العراق وصانع النصر والسامر والمؤمن. كما أنه كان يرى في أفعاله بطولات وفتوحات عظيمة. ويذكر لنا مجدي كامل بأن صدام، كان الأكثر استخداماً للرموز الدينية والاحداث التاريخية الإسلامية[16] "فقد اطلق على حرب الخليج الاولى مع ايران لقب "قادسية صدام" وأطلق على حرب الخليج الثانية لقب "أم المعارك"... وكان يملك من القدرات ما يمّكنه من اقناع اتباعه الذين يحلمون بالبطل الاسطوري بأنه هو ذاك البطل الذي جاء ليقود العالم، وهكذا يبدأون في تمجيده، ويغالون في ذلك إلى حد تقديسه".

---

(16) كامل، مجدي، وراء كل ديكتاتور طفولة بائسة، دار الكتاب العربي.

يتبين لنا من خلال ما تقدم أن المستبد بحاجة حكماً لما يسمى بالأدوات الشعبوية لخدمة أغراض عدة وعلى مستويات مختلفة من أجل القبض بالكامل على المجتمع واستمرار بقائه في السلطة. إنه مضطر لأن يخلق جسراً دائماً مع جمهوره من جهة لضمان ولائه، ومن جهة أخرى يعمل على صورته بالشكل الذي يمكنها من احتلال المجال الإدراكي بالكامل في المجتمع.

أما الجماهير القطب الثاني في تلك العلاقة فهي تنخرط في هذا المناخ وتساهم في ترسيخه وذلك يعود لكون الإنسان في تلك المجتمعات يعيش وضعاً مأساوياً، مأزوماً. ونتيجة لانسداد افق الحل ينعدفع باتجاه سلوك تعويضي من خلال محاولة الاندماج والذوبان في الجماعة وفي القائد المخلص، وهذا السلوك حسب حجازي[17] "يقلب دلالة الوجود، كما يقلب الأدوار، وهو مدفوع بالرغبة في التمرد وكسر القيود وإطلاق العنف المشرعن من دون حدود، لاستبدال الخواء الوجودي بالقيمة المطلقة؛ "تبرز كل من الفاشية والأصولية المتطرفة نتيجة لعجز الجماهير عن حل تناقضاتها، وعلاج مآزق وجودها من خلال إسقاط نوع من الجبروت والقدرة الكلية على القائد الذي تسلمه زمام امورها، والذي يكسب

---

(17) حجازي، المرجع نفسه.

الجماعة دلالة النبل والنقاء والقيمة المطلقة في حرب لا هوادة فيها على مصادر الشر الخارجية التي تسمم وجودها وإلى استحقاق الفردوس الموعود ... الفاشية كما الأصولية هما في الأساس حالة حرب تهدف إلى تدمير واقع غير مقبول وإلغائه والعيش في حالة الحلم من دون مشروع مستقبلي فعلي".

إذن القادة ليسوا من يتشبهون بأبطال الماضي فقط، بل إن الجماهير نفسها تسبغ عليهم تلك الصفات، يدفعها إلى ذلك رغبتها بالتماهي بهم، بحيث إنها، وحسب حجازي، تكتسب قيمة ذاتية من خلال هذا التماهي والذوبان بشخص القائد. إن هذا الفعل يمكّنها من تجاوز وضعيتها المبخسة والتي تبدو مأزقية وبدون منقذ وخلاص، لذلك تلجأ إلى اعتناق رسالة سامية تجعلها تتجاوز واقعها المأزقي وتقلب دلالته كلياً من خلال الذوبان في الجماعة وفي القائد المخلص.

ويحكي لنا د. محمد جابر الأنصاري، كيف كان الشعب المصري يتطلع إلى عبد الناصر وماذا كان يرى فيه. لقد كان المصريون يرون في جمال عبد الناصر ابن الريف المصري "الصعيد" عمق البيئة الزراعية، والإنسان العادي المنتمي إلى الشريحة الفقيرة مادياً والمحرومة اجتماعياً، القائد المنقذ،

وساهم في ذلك[18] "تلك الصورة المستمدة من الماضي التاريخي، ماضي الأمجاد. لقد ايقظ في المخيال العربي صورة صلاح الدين، في الوقت الذي كانت شعوب تلك المنطقة تعاني القهر والظلم تحت ظل الاستعمار، وبدأت تفقد الأمل بإمكان ظهور هذا القائد المرتجى مجدداً في تاريخها إلا أنَّ انتظارهم لهذا المنقذ لاح مع صعود عبد الناصر.. لقد حمل عبد الناصر بين جنبيه وهو يجيء كالطيف إلى حكم مصر صورة "إله الخير العائد" بعد مصرع الحضارة المصرية وتمزقها آلاف السنين... كان عبد الناصر يمثل أعماق الشخصية المصرية التي عاشت آلاف السنين في ظل دولة مركزية مستتبة الأمن الداخلي، مسلوبة الأمن الخارجي بحكم ظروفها الطبيعية التاريخية، وها هو ذا العملاق الأسمر ابن النيل يعود ليحكم واديه بعد غيبة خمسة آلاف سنة".

الشعبوية وعودة المأثور

كما أن المحرك لهذه الأوالية الدفاعية عند الجماهير في عملية تجاوز القهر الذي تعيشه مرتبط بموروثها الثقافي

---

(18) الأنصاري، محمد جابر، الناصرية بمنظور نقدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الماضوي، فهي تحتمي بالماضي، وهذه الحماية يعتبر حجازي أنها شائعة في أوقات الهزيمة الجماعية بحيث[19] "تنكفئ الجماعة إلى العيش في الأمجاد التاريخية ووهم إمكانية استعادتها بما يوفر توازناً وجودياً بديلاً. من ذلك ما تعيشه الشعوب المقهورة والمهدورة من إحساس بالاعتزاز والقيمة من خلال الاستغراق في سير الأبطال الشعبيين واستعادة أمجاد التاريخ..

تجد بعض الجماهير العزاء من خلال استرداد الاعتبار المفقود راهناً واستبداله بالتماهي ببطولات الأجداد.. تغرق الجماعة في بطولات الماضي المجيد مما يجعلها تعيش في وهم مستقبل ناجح.. إن الماضي لا يستعاد، بل هو يستدمج في الذات".

إنّ استعمال المأثور هو أيضاً جزء من تأدية السلطة لوظيفتها حسب باربرا ويتمر، فهذه الأخيرة[20] "تغذي المفاهيم الكيفية، التي تم بها استخدام الاسطورة مثالاً على التعلم الجماعي والتلاقح الاجتماعي. فالاسطورة توفر الوحدة والاستمرارية الثقافيتين، وذلك بجعلها اعضاء الجماعة يؤمنون

---

(19) حجازي، المرجع نفسه.

(20) ويتمر، باربرا، الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة د.ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة.

بمفاهيم متشابهة، ويتصرفون بطرق متشابهة، ويمتلكون توقعات متشابهة. بهذه الطريقة تنقل الاسطورة القيم في الموروث عبر الخطاب الرمزي ونماذج الفعل... فالسلطة لا تعيش على الحكم الصارم، وإنما على القبول... إنّ الموروث، هو شكل "غير مسمى" من أشكال السلطة. تتميز حياتنا التاريخية بحقيقة أنّ سلطة المنقول، التي تتعدى ما له أساس في العقل على نحو واضح، ذات نفوذ على مواقفنا وسلوكنا". وتضيف بأن السلطة تشّرع النماذج التي تقدمها الأساطير والرموز عبر المؤسسات(21)، "على سبيل المثال تستمر اسطورة البطل عبر ارادة النساء والرجال في الانهماك في محاكاة صفات البطل، وتدعيمها في الممارسة الاجتماعية ضمن العائلة، وفي المؤسسات التعليمية، والاقتصادية، والسياسية. تستمر هذه الحالة إلى درجة حظر القسوة الذاتية الكبرى ونكرانها بحق الذات والآخرين في هذا النموذج".

من جهته، يعتبر فرويد، أنّ للعصور النائيات على المخيلة(22) "سحراً غامضاً ما إن يدب الاستياء في الناس من الحاضر حتى يلتفتوا إلى الماضي آملين أن يلتقوا فيه من جديد بحلمهم الذي لم يغب عنهم قط، بعصر ذهبي، ولا

(21) المرجع نفسه.

(22) فرويد، سيغموند، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي.

ريب، في أنهم يظلون واقعين في أسر سحر طفولتهم التي تصورها لهم ذكرى مغرضة وكأنها عهد من هناء لا يرنقه مرنق.. وحين لا يتبقى من الماضي سوى الذكريات المبهمة التي نسميها مأثورات يجد الفنان عظيم اللذة في سد ثغرات الذاكرة بحسب هوى خياله، وفي توفيق صورة العصر الذي أخذ على عاتقه أن يصفه مع رغباته. بل يسعنا أن نقول إنه كلما زاد المأثور إبهاماً، انفسح المجال أمام الشاعر واسعاً لاستخدامه، فكيف ندهش والحالة هذه من أهمية المأثور للشعر". ويضيف فرويد بأن "المأثور الموسوي أرجع عبادة يهوه لدى اليهود إلى ديانة موسى القديمة. لقد أعيد إنتاج الديانة تحت دفع المأثور". كذلك يحدث مع الجماهير حين تفقد الأمل تحت ظل القهر فتندفع بتأثير المأثور للبحث عن الخلاص من خلال قائد منقذ. فحين يتهيأ شعب من الشعوب حسب فرويد " لتنفيذ مشروع كبير، ينبغي أن نتوقع ظهور فرد يتزعم الحركة أو يحمل رفاقه على انتخابه زعيماً".

أما في تلك العلاقة التي تجمع الجماهير بقادتها فهي أيضاً ترجع إلى تلك الأزمنه الغابرة، إلى ذلك الموقف الذي اعتبره فرويد أيضاً بأنه موقف الأقوام البدائية من زعمائها وملوكها وكهنتها والذي كان يحكمه مبدآن متكاملان، وجوب التوقّي منهم بحيث يجب أن يكونوا موضع رهبة، ووجوب

وقايتهم. ويضيف[23] "هناك ضرورة لحماية الملك من الأخطار المحتملة وذلك ينبع من الدور الضخم الذي يضطلع به في حياة رعاياه، فشخصه.. هو الذي يضبط مسيرة العالم وعلى شعبه أن يعترف له بالجميل ليس على الغيث ونور الشمس فقط.. كذلك على الأرض التي يطأها الناس بأقدامهم. إن ملوك البدائيين يحوزون قوة وقدرة على توزيع السعادة لا تقر بمثلها الشعوب الأقل بدائية إلا لآلهتها وحدها.. فالعاهل في هذه الأنظمة لا يحيا إلا من أجل رعاياه ولا قيمة لحياته إلا ما دام يضطلع بالتزامات وظيفته ويسوس مجريات الطبيعة لما فيه خير شعبه، وبدءاً من اللحظة التي يتهاون فيها، أو يمتنع فيها عن الوفاء بهذه الالتزامات ينقلب التفاني والتوقير.. الذي كان يتمتع به إلى أعلى درجة، إلى حقد وازدراء، فيطرد مكللاً بالعار، ويعتبر نفسه سعيداً إذا أفلح في النجاة بحياته. ولئن كان يُعبد اليوم وكأنه إله من الآلهة، فقد يُقتل غداً كما يُقتل المجرم".

من هذا الدور للملك في المجتمعات البدائية والطريقة التي يتعاطى بها شعبه معه، إضافة إلى تلك السير البطولية من الماضي الغابر والأساطير يتشكل الموروث الثقافي لمجتمعات

(23) فرويد، سيغموند، الطوطم والحرام، ترجمة جورج طرابيشي.

العالم الثالث. أما التدقيق في واقعة تقديس الملك وتبجيله كونه يشكل مصدر حماية للجماعة، وكيفية تصرف هذه الأخيرة عندما تشعر بأن تلك الحماية أصبحت مهددة بحيث إنها تتحول من مؤلهة له إلى النقيض، كارهة وحاقدة عليه وتتحين الفرصة لإسقاطه وإن استطاعت لقتله، فهو مشهد لطالما يتكرر منذ ذلك التاريخ وحتى الآن. فكل الأنظمة الاستبدادية بنيت على أكتاف الجماهير، والجماهير نفسها انقلبت عليها. ولطالما كانت كل نهايات ديكتاتوري التاريخ نهايات مأساوية، على يد الجماهير التي جاءت بها. إلا أنَّ المحنة الكبرى هي في تلك المجتمعات التي تنتقل من ديكتاتورية إلى أخرى بفضل ذلك الموروث الثقافي الذي يدفعها بشكل لا واعٍ إلى إعادة إنتاج السلطة السابقة.

هذه المعضلة التي استطاعت المجتمعات الحديثة أن تفلت، وتتحرر منها بالكامل، لاتزال مجتمعات العالم الثالث عالقة بين فكّي كماشتها.

إن هذا الإستطراد توخى الكشف عن خلفيات السلوكيات الشعبوية، بحيث يتبين لنا كيف أن الشعوب التي تعيش في مجتمعات ثقافتها ماضوية، شعوب إمكانياتها في التفاعل مع الشعبوية لا حدود لها. بل الأدق أنها لا تتفاعل إلا مع ما هو شعبوي بحيث إن موروثها الثقافي بمساندة السلطة البطريركة والنظام الأبوي السائد في تلك المجتمعات، والبنى

المؤسساتية الغارقة في التخلف كلها أمور تجعل الفرد في حالة جمود للعقل وتفلت للانفعال والغرائز، وواهن من كثرة أعباء الحياة، ومن القلق على الحياة، مما يجعله فرداً استسلامياً، قدرياً، هشاً على المستوى النفسي، الأمر الذي يسّهل اللعب على مشاعره وانفعالاته وتضليله وإغراقه في الأوهام وتعبئته وشحنه ودفعه حتى إلى الموت؛ وكلها أمور يسهل عليه أيضاً تقبلها والسير فيها حيث إن وضعه المأساوي يجعله دائم البحث عن خشبة للخلاص تنقذه من تخبطه في بحر الحياة. وهو ما أن تلوح له هذه الخشبة يتمسك بها فتجرفه حيث تريد لا حيث يريد هو. إن تسليم أمرنا لمن يقوده، سيقوده بلا ريب إلى الوجهة التي يحددها هو لنا. وهذا التسليم هو سلوك شعبوي بحيث إننا في حالة الانقياد نكون كالقطيع، نتبع إشارة الراعي من دون أيّ مراجعة، يصبح هو العقل المدبر، ونسير خلفه أينما سار بنا، من دون إعمال للعقل الذي يكون في حالة من التخدير والعطالة.

ولطالما أنتج هذا الواقع فيما بعد مأزقاً للشعوب وللمجتمعات. ويوضح لنا ميشيل كيلو كيف أنه وبعد[24] "نجاح ثورة 1952 في مصر وتحقيق انجازات بدت خارقة

---

(24) كيلو، ميشيل، مقالة بعنوان: "زمن عربي جديد! من الثورة بالسلطة إلى التغيير بالشعب"، جريدة السفير اللبنانية تاريخ 3/ 2/ 2011.

في حينه عرفت بلداننا العربية زمناً سيطرت فيه السلطة على الدولة والمجتمع.. وقام نظام واحد على وجه التقريب في كل مكان، تكاملت عناصره بعد غياب عبد الناصر.. لقد تبلور في كل مكان من عالمنا العربي، نظام سلطوي تخّلق بصورة تامة بعد هزيمة حزيران وكان استجابة لها. قام على وجود سلطة مطلقة، تعيد إنتاج المجتمع والدولة حسب مصلحتها ورؤيتها وتفرض عليهما بما يتوافر لها من أدوات إكراهاً معنوياً ومادياً.. بما أن السلطة اكتسبت منذ البداية طابعاً شخصياً وتحولت إلى سلطة فردية أنتجت نفسها من رأسها، فإن تحولاً تاريخياً أصاب التصور الأصلي للتغيير ومشروعه وقلبهما رأساً على عقب.. قوضت السلطوية بصورة تكاد تكون كلية، أيّ نسق فكري أو عملي يعبّر عن استقلالية، الفسحة الاجتماعية النسبية، ووضعت يدها على كل ما يفترض أنه ملك المجتمع، الدولة، من ثروة وحرية ومعرفة وعلم وإعلام وتنمية، مغلقة بذلك جميع سبل التغيير والإصلاح، وأبطلت جوامع الهوامش الحرة والشخصية لأي حراك مجتمعي يمارسه المواطنون، وقوضت الأحزاب، وأضفت طابعاً كاريكاتيرياً على سائر أشكال التمثيل السياسي والشعبي، وزورت إرادة الناس بعد أن صادرتها وقلبت الأحوال فتحولت من سلطة تحدث نفسها كي تحدث مجتمعها إلى سلطة تحتجز الحرية وتقدم كل فرد في وطنها ومجتمعها

ودولتها بصورة عامة. تحدث نفسها أمنياً وقمعياً ليمكنها الحيلولة دون بلوغهما أيّ نوع من أنواع الحداثة والتقدم، وكي تنجح في إعادة إنتاجهما في إطار تأخر مادي وروحي لا ينى يتعاظم ويتفاقم ويدفع ثمنه المواطن". ويعتبر كيلو أن ليس هناك في وطن العرب نظام لا يجسد هذه الحالة بصورة تكاد تكون نقية، وليس هناك نظام تجسدت فيه أكثر مما جسدها نظام تونس . وهنا نسجل خلافاً حول هذا التحديد . فتونس ليست الأكثر تجسيداً لهذا النظام، وإذا تطلعنا من حولنا لوجدنا على العكس بأن تونس واحدة من دول المنطقة التي تتميز بمجملها بهذا النوع من الانظمة. فكلها أنظمة ينطبق عليها توصيف كيلو لحالة تونس، من توحيد السلطة وإضفاء الطابع الأمني عليها، وشق الشعب وإلغاء الأحزاب، ومطاردة النخب والنقابات، وتقويض المجتمع المدني ووضع اليد على أرزاق الناس وأموال الدولة، وشخصنة الحياة العامة والسياسية وتحول الرئيس إلى إله سياسي يفرض عبادته على الشعب ويخضع لسيطرته المطلقة الإعلام والتعليم والسلطة والثروة والضمائر، ويضفي طابعاً أسرياً عائلياً إقطاعياً وعصبوياً على الحقل السياسي، وخاصة منه السلطة التي يحولها إلى سلطة دولة تملكها وتستأثر بمقدراتها أرضاً وشعباً، أسرة الرئيس، بينما تفتك البطالة والهامشية بالمواطنين.

قصارى القول، إن الثورات في بلدان العالم الثالث لطالما مهدت لصعود الأنظمة الاستبدادية، الأنظمة التي تغّيب مشروع الدولة، على حساب مشروع سلطة الفرد. فالسلوك الشعبوي بكل مكوناته والذي تحدثنا عنه بالتفصيل في الجزء السابق، هو المسؤول الأول عن هذا المصير الذي واجهه مشروع الدولة في مجتمعات العالم الثالث. إن تلك المجتمعات لم تتعرف بعد على مشروع الدولة، بل هي تنتقل من حكم سلطة إلى سلطة أخرى. وهناك فرق بين الدولة والسلطة.

إن الشعبوية تفرز السلطوية على مستوى الحكم وهي المسؤولة عن تخبط المجتمع وغرقه في التخلف، كما وتخلق فيه ثقافة تعيق أيّ امكانية للتقدم.

الثقافة الشعبوية

إنّ الشعبويين، وبالطريقة التي يمارسون السلطة فيها، يخلقون ثقافة خاصة في المجتمعات التي يحكمونها، فهم بمجملهم ينظّفون مجتمعاتهم من أولئك الذين يعتبرونهم خارجين عن الإجماع الشعبي، عن الصوت الخارج عن الجماهير وكأنه من حنجرة واحدة، وهؤلاء الخوارج يتمثلون دائماً في تلك الشريحة التي ينظر إليها على أنها النخب الثقافية في تلك المجتمعات، هذه النخب إذا لم تندرج في

المشروع السلطوي، ستكون العدو الأول الذي يجب إقصاؤه؛ فكل فرد منها لا ينصهر في هذا الكل الذي يسمى الشعب الواحد ذا الصوت الواحد، يجب أن يبقى خارجاً، وتتم بحقه الإجراءات اللازمة لعملية الإقصاء هذه، وهي قد تتخذ أشكالاً مختلفة من الإبعاد إلى الاعتقال وحتى التصفية الجسدية. وكذلك لإبعاد النخب يتم رفع من هم في أدنى السلم الاجتماعي ليقوم بمهمات النخب . إنه حكم الشعب . لذلك تتم الاستدارة إلى صفوف هذا الشعب لاختيار من يقوم بمهمة تمثيله دون الالتفات إلى موضوع الكفاءة. يكفي أن يكون من أكثر المتحمسين للوضع القائم، صاحب الحنجرة الأقوى في الصراخ وإطلاق السباب بحق أعداء الأمة، ليتعزز وضعه ويتدرج في الصفوف القيادية. تستبدل في تلك المجتمعات النخب المتعلمة بتلك التي لا تعرف من العلم والمعرفة إلا الكتابة والقراءة، ولا بأس ببعض الأميين أحياناً. أوليس الحكم للشعب، وهم جزء من هذا الشعب! وتحت شعارات غوغائية كتلك التي تقول بتشكيل حكومة من الفقراء يتم إشراك، لا بل وضع مقدرات المجتمع بين يدي تلك الشريحة التي كان يسميها ماركس . البروليتاريا الرثة، الجماعات التي تقف خارج الطبقات- تتصدر هذه الشريحة الواجهة في المجتمعات التي تصبح شعبوية على مستويي القيادة والجماهير.

فموسوليني على سبيل المثال بنى حزبه من اولئك العاطلين عن العمل والجنود المسرحين من الخدمة وذوي السوابق الاجرامية، ومن فلول عصابات الاجرام المنظم، المافيا والكومورا وفايدا.

كذلك كان الحال في الارجنتين، لقد اعاد التمرد الشعبي في بوينس آيريس الذي استولت من خلاله الفئات الشعبية الدنيا القادمة من الضواحي الفقيرة، خوان بيرون إلى السلطة. وقد اشتهر المتمردون آنذاك بلقب الصدور العارية بحيث إنهم جميعاً خلعوا قمصانهم بسبب الحر فنسب اليهم ذلك اللقب. كما ويفتخر تشافيز بأنه استطاع وللمرة الأولى أن ينتزع السلطة من اثرياء البلاد ليضعها بيد فقرائها.

وتبدأ مسيرة الصياغة الجديدة للمجتمع على ايدي هذه القوى مجتمعة. فتنطلق الحقبة التي اقل ما يمكن أن توصف به بأنها غوغائية.

ولعل أبرز الأمكنة التي يتجلى فيها هذا المناخ، تكون وسائل الإعلام، بحيث توضع هذه الآلة الاعلامية بيد مجموعة من المبتدئين، الذين لا ثقافة ولا خبرة لهم، سيكونون هم الذين سينيرون درب الجماهير، فينشرون ليل نهار إضافة للتحريض والتعبئة الجماهيرية باللغة الخشبية التي تتميز بها تلك الانظمة، ثقافة هابطة، تغرق الجمهور في جهل يتراكم فوق الجهل الغارق فيه أساساً، فينحدر المجتمع بكل

مكوناته إلى الحضيض. كل مُنتَج في تلك المجتمعات يكون هابطاً ورديئاً، من الإنتاج الفكري إلى الإنتاج الفني إلى السياسة إلى الاقتصاد إلى التعليم؛ تنسحب الرداءة على كل شيء، حتى على لغة التخاطب بحيث يتم استخدام الألفاظ البذيئة والشتائم ومصطلحات التهديد والوعيد، كونها إحدى أدوات المعركة. وتزداد الأمية، والبطالة، يكثر الفساد، وتتفشى ظاهرة المخدرات، تكثر الأعمال غير المشروعة، وكلها أمور يتم التغاضي عنها في سبيل الهمّ الأكبر لقيادات تلك المجتمعات، المشروع الثوري. يركز الشعبويون على العامل الثقافي، وهو احياناً من اقسى معاركهم؛ فأدلجة المجتمع، وصياغته من جديد تتطلب مجهوداً ضخماً، ويتم على المستويات كافة، في السياسة، والادب، والفن، والاقتصاد، وقواعد السلوك، والخطاب.

يحول الشعبويون المجتمعات إلى مجتمعات بؤس على المستويات كافة؛ وكان ماركس قد كتب عن تعميم البؤس في المجتمعات واعتبر بأن البؤس حين يصبح معمماً، تصعد حثالة المجتمع القديم إلى السطح مجدداً.

يروي لنا ماك مارغوليس عن معاداة هوغو تشافيز للمفكرين والفنانين والشعراء والطلاب الجامعيين[25]، "فقد

(25) مارغوليس، ماك، مقالة بعنوان: "هوغو تشافيزاستديو أفلام خاصاً به..اهلاً بكم في هوغوود أضواء، كاميرا، ثورة" http://vb.6lal.com

قام بإبعاد الرسامين والنحاتين البارعين وطردهم من المتاحف العامة والمعارض، كما أغلق مؤسسة "اتينيوم" في كاراكاس فلجأوا إلى المعارض الخاصة. وقد حظّر كذلك ظهور الفرق المسرحية المستقلة على المسارح العامة، وألغى حتى الشعارات التي كان فنانون مشهورون قد ابتكروها لكل من المتاحف والمسارح الرسمية الـ35 في فنزويلا، مستبدلاً اياها برسمٍ بدائي بالقلم الاسود يجسد كلباً وضفدعاً... إن كاراكاس التي كانت تفتخر في الماضي بأنها تحتوي على افضل مجموعات القطع الفنية في اميركا اللاتينية، الآن توقفت المتاحف التي يديرها اتباع تشافيز عن شراء اعمال فنية نخبوية، وانخفضت بالتالي نسبة زوارها. الأمية بدأت تزداد. والانتصار الأهم في حملة ايصال الثقافة إلى عامة الشعب يتمثل بأوركسترا سيمون بوليفار للشباب التي تعلّم الموسيقى في كل الأحياء الفقيرة، وهذه الفرقة اساساً كانت قد تأسست قبل ربع قرن من توليه السلطة. يقول دييغو آريا، وهو سفير فنزويلي سابق إلى الامم المتحدة: "قد تكون هذه الثورة الوحيدة في التاريخ التي تفتقر إلى المفكرين أو الطلاب أو الشعراء. الناس لا يعون ذلك، لكن هذه ليست حكومة اشتراكية، إنها حكومة عسكرية".

هذه الثقافة التي تنشرها الانظمة الشعبوية تمتد آثارها لأزمنة لاحقة، فالارجنتين مثلاً لم تزل وحتى اليوم تحت

تأثير الحقبة البيرونية، تلك الحقبة التي خلقت أزمة قيم تتفاقم مع مرور الزمن، ولعل أسوأها الازمة الاخلاقية في نظام شاعت فيه الشطارة للاحتيال على القانون من خلال شبكة الوساطات لدى الأصدقاء من أصحاب النفوذ، وأزمة القيم المدنية القائمة على الامتناع عن دفع الضرائب وعن إعادة استثمار الأرباح في الوطن وتفضيل تهريبها إلى إحدى الجنات الضريبية خارج الارجنتين.

وفي النهاية ولو طال الزمن، سيكون لهذه الحالة المصير نفسه الذي لاقته كل الحركات الشعبوية التي عرفها التاريخ، والتي كانت بمجملها نهايات كارثية، إلا أنَّ أحداً لا يتعظ من التاريخ. فالشعبويون لطالما تميزوا بالغرور والمكابرة لا بل اكثر بجنون العظمة و"المغالومانيا"، ذلك الداء الذي يعمي البصيرة ويُفقد صاحبه القدرة على تقدير الأمور، مما يدفعه في نهاية المطاف إلى السقوط المدوي، وكأنهم يرسمون بأنفسهم نهاياتهم. هذا ما حصل لهتلر، ولموسوليني، ولإنجازات ماو، وستالين، ولصدام حسين، لزين العابدين بن علي،لحسني مبارك، ولمعمر القذافي، والتاريخ مليء بالشواهد.

وبالإضافة إلى كل ما تقدم عن الشعبوية وسماتها، لا بد لنا من عدم إهمال العنف الملازم لتلك الظاهرة.

الشعبوية والعنف

تترافق الظاهرة الشعبوية بالضرورة مع العنف. إنه صفة ملازمة لها، بحيث إنها لا تحضر بمعزل عنه. فهو يدعّمها، يعززها، ويزيد فاعليتها. والعنف هنا ليس بالضرورة أن ينحصر باستخدام السلاح، فللعنف أيضاً وجوه عدة. والشعبوية تستعمل مجمل تلك الوجوه. ففي ايطاليا إبان حكم موسوليني، كان يكفي أن يتجول أصحاب القمصان السود لكي يبثوا الرعب في النفوس. كما وتتصف الطريقة التي يتم بها التعامل مع المعارضين بالعنف ايضاً، فاستبعادهم وتهميشهم سلوك عنفي. كما وقد يتحول في مرحلة لاحقة إلى عنف جسدي من خلال اعتقالهم وتعذيبهم واحياناً قد يصل إلى حد التصفية الجسدية. ولطالما اشتهرت تلك الانظمة بعمليات القتل الجماعي، والتطهير للمعارضين. كذلك تتسم طريقة التعامل مع صورة العدو بعنف ملحوظ، والاسلوب الذي تتمّ به التعبئة ضده اسلوب عنفي، فهو يُنعت بأقسى العبارات، كما يحمل الخطاب الموجه ضده التهديد بهزمه وسحقه وازالته من الوجود، وهذا أيضاً وجهاً من وجوه العنف. كما أنّ السلطة في تلك المجتمعات، ولفرض هيبتها تتقصد القيام باعمال استعراضية إن من خلال القمع أو

التنكيل بمن تعتبره مستحقاً لهذا العقاب امام أعين الجماهير وذلك بهدف طبع تلك الصورة في اذهانهم كي تكون درساً لكل من تخّوله نفسه الانحراف عن الخط المرسوم من قبل تلك السلطة، وهذا أيضاً مظهر من مظاهر العنف. لقد تميزت النظم التوتاليتارية والديكتاتوريات بالعنف، وهذا العنف كما تقول حنة ارندت ليس موجهاً للخارج فقط، بل إن خطورته تنبع من كونه موجهاً أيضاً إلى الداخل، فتقول[26] "إنّ ذروة الإرهاب تكون حين تبدأ الدولة البوليسية بالتهام ابنائها، فيصبح جلاد الامس ضحية اليوم".كما وتعتبر بأن الاستدارة في اتجاه النقاشات حول ظاهرة السلطة، سرعان ما تضعنا امام ذلك التوافق بين المفكرين يساريين كانوا أم يمينيين، على أنه ينظر إلى العنف[27]: "باعتباره لا شيء اكثر من التجلي الاكثر بروزاً للسلطة. كل سياسة انما هي صراع من اجل السلطة. والعنف انما هو اقصى درجات السلطة... السلطة والعنف، على الرغم من كونهما ظاهرتين متمايزتين، عادة ما يظهران معاً".

وكما ذكرنا سابقاً، فإذا كانت الحركات ذات الملمح

---

(26) أرندت، حنة، في العنف، ترجمة اراهيم العريس، دار الساقي.
(27) المرجع نفسه.

الشعبوي في المجتمعات الديمقراطية تنهار قبل بلوغ نهاياتها كون الدولة الحديثة الديمقراطية قادرة على ابتلاعها، فإنها على العكس، وفي المجتمعات ذات المناخات الشعبوية تقف هذه الاخيرة في وجه أيّ ملمح ديمقراطي لأي حركة بداخلها.

الفصل الرابع

هل تشكل الديمقراطية مقتلاً للشعبوية

قد يرى بعضهم أنّ اعتبار الديمقراطية مقتلاً للشعبوية أمر مبالغ فيه، لا بل على العكس يجدون أنّ الديمقراطية في المجتمعات الحديثة، بما تعانيه، ومنذ فترة غير وجيزة، من أزمة في قدرتها التمثيلية ستكون اكثر قابلية لصعود الحركات الشعبوية فيها. وقد يبني أولئك آراءهم على ما جاء في كتابات الذين تناولوا ظاهرة اليمين المتطرف في المجتمعات الحديثة والذين تجنبوا تصنيفها بالحركات الشعبوية، إلا انهم جميعاً اعترفوا بأزمة تعانيها المجتمعات الديمقراطية من الناحية التمثيلية. هذه الأزمة ستكون الدافع الرئيسي وراء انبعاث الشعبوية، بحيث تشهد، أي تلك المجتمعات بروز طبقة واسعة من المواطنين يشعرون بالتهميش؛ يتحدث ديفيد ماثيوز عن هذه الأزمة في الولايات المتحدة الاميركية فيرى[1]، "أنّ الجماهير في عالمنا اليوم تعيش في حالة من

(1) ماثيوز، ديفيد، السياسة للشعب، تعريب عفيف تلحوق، دار الجديد، بيروت.

الركود والكمون والرضوخ والتبعية اكثر من أي وقت مضى، فعلى مستوى المشاركة وما تمدها به من قوة تشعر بنفسها في ظل هذه الانظمة مهمشة، ولا تملك سوى حق الاقتراع من مجمل ما يمكن ادراجه تحت عنوان المشاركة. لقد شعر الاميركيون بانهم اخرجوا من النظام السياسي على يد طبقة احتراف سياسي مؤلفة من جماعات الضغط، والسياسيين الموجودين في الحكم، ومديري الحملات الانتخابية، ونخبة الاعلاميين... فالإقبال على الاقتراع يتراجع... وقد حاولنا إيجاد ذريعة نسوّغ بها غياب أبسط وجوه المشاركة في السياسة، بقولنا إن المواطنين يسقطون في الصناديق أصواتاً غير مكتوبة تؤيد الوضع القائم، ولكن كلما انخفض عدد المقترعين تضاءلت قوة هذه الذرائع في اقناعنا. ومع انتخابات العام 1992 بات من الصعب تجاهل المقترعين، إلى أن أخذت الإعلانات تحث الشعب على الاقتراع لإطاحة الموجودين في الحكم لكونهم موجودين فيه فقط".

انطلاقاً من هذا النص الذي يجمع كثيرون على صحته يعتبر بعضهم بانه، اذا كانت الشعبوية تنطلق من ذلك الشعور عند الجماهير بالرضوخ والتبعية والتهميش فهذا عامل متوافر ويتراكم سنة بعد اخرى، واذا كانت الاعلانات الانتخابية تحث المقترعين على التوجّه إلى صناديق الاقتراع للإطاحة بالنخب الحاكمة فان اعتبار الشعبوية كظاهرة مقابل النخبوية أيضاً عامل آخر يقف إلى جانب ما سبقه.

واذا كان للفرد فرصة للمشاركة بشكل فاعل غير متوافرة إلا بإنضوائه تحت جناح ما يعرف بمجموعات الضغط فانه أيضاً سيكون خاضعاً في تلك الجماعات إلى المكان الذي يحيده عن فردانيته لينضوي ضمن جماعة يستمد قوة من اتحادها مع بعضها بعضاً من خلال وضعية مشابهة لحال الفرد في مجتمعات العالم الثالث.

وهذا أيضاً عامل آخر جديد يضاف إلى ما سبقه. أخيراً فإن انتشار الخطاب المعادي للمسلمين، والذي يساهم في رفع منسوب الكراهية بين الجماهير هناك، وهو خطاب مليء بالاكاذيب وتشويه الحقائق، ويعتبر خطاباً تضليلياً بكل ما للكلمة من معنى، فان هذا الخطاب شعبوي بالمطلق من ناحية المضمون كما أنه وفيما يتعلق بصورة العدو فإنها تتشكل بالطريقة نفسها التي تتشكل بها في العالم الثالث أيضاً. وهذا يعني أنّ للشعبوية حضوراً أيضاً في الانظمة الديمقراطية، حتى تاغييف اعتبر بأن هناك[2] "أنواعاً من الشعبوية تضرب جذورها بعمق في ديمقراطيات أوروبا الغربية". لكنه يعود ليبين أنها لا تعمل بالطريقة نفسها التي تعمل بها في دول أوروبا الشرقية أو دول أميركا اللاتينية، أو

(2) Taguieff, *L'illusion populiste. Essai sur les démagogies de l'âge démocratique*, Champs-Flammarion.

ما يعرف بالديمقراطيات الضعيفة، "إنها أسلوب سياسي، يتوخى شعبويو أوروبا الغربية من خلاله أن يقولوا للجمهور ثقوا بي، أو اتبعوني".

كما ويرى بعضهم أنّ الديمقراطية ليست نظاماً تتفرد به دول الغرب، بل إن في العالم الثالث أيضاً دولاً تعتمد النظام الديمقراطي، ومع ذلك نجد تفشياً للظاهرة الشعبوية فيها، مما يقودنا إلى نفي مقولة "إن الديمقراطية تشكل مقتلاً للشعبوية".

وانطلاقاً من ذلك سيكون ضرباً من الغرور والمكابرة وتزييف الحقائق والتحيز عند الذين يحاولون ابعاد صفة الشعبوية عن حركات اليمين المتطرف في كل من اوروبا أو الولايات المتحدة، بحيث إن هذه الحركات تتضافر فيها ما تحمله الشعبوية من سمات.

والواقع أنّ هذا التحليل فيه الكثير من المغالطات بحيث إنّ ديمقراطيات الغرب مختلفة اختلافاً جذرياً عن تلك التي تعتمدها دول العالم الثالث. كيف ذلك؟

يعتبر كابلان ان الديمقراطية لا تجعل المجتمعات دائماً اكثر تحضراً، لكنها تفضح دوماً، وبلا رحمة، صحة المجتمعات التي تعمل فيها؛ فكما جاءت الديمقراطية بكرومويل -أحد الذين شاركوا في وضع دستور الولايات

المتحدة الاميركية، والذي اعتبر من اهمهم- فانها اوصلت أيضاً كلاً من هتلر وموسوليني إلى السلطة.

إنّ مبدأ الانتخاب المرتبط بالنظام الديمقراطي لا يختصر الديمقراطية. فالدول حسب محمد الرميحي لا تتشكل ابداً من خلال الانتخابات، لكنها تتشكل[3] "من خلال الجغرافيا والتاريخ، ونماذج الاستقرار، وصعود البرجوازية المتعلمة، ووحدة المجتمع بمؤسساته وتماسكه... إنّ الديمقراطية الناجحة في أيّ مجتمع تتطلب وصول هذا المجتمع إلى درجة معينة من التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي يكفل نجاحها . بينما قد تؤدي الديمقراطية في غياب هذا التطور، إلى وثوب أيّ مغامر غوغائي إلى السلطة ليقود مجتمعه إلى أوخم العواقب.. والاسوأ أنها قد تأتي بقوى فاشية معادية للتقدم وللديمقراطية ذاتها.. وهنا ستكون الديمقراطية ليس محفوفة بالمخاطر فقط، بل وكارثية أيضاً... ففي رواندا قادت الديمقراطية إلى مذابح يندى لها الجبين... وفي اوروبا الشرقية أدت الديمقراطية في يوغوسلافيا إلى تمزيق أوصالها، وبينما كان الانفصال هادئاً بين التشيك والسلوفاك، كان مروعاً بين الصرب والكروات... وقادت الانتخابات في سيراليون

(3) الرميحي، محمد، أزمة الديمقراطية في البلدان العربية، تحرير علي الكواري، دار الساقي.

والكونغو إلى الفوضى... وتتمتع ديمقراطية اميركا اللاتينية بسجل مظلم... ففنزويلا مجتمع محنة... وتحفل كولومبيا الديمقراطية بحمامات دم... ثم في البيرو، حيث تم تحقيق درجة من درجات الاستقرار، من خلال التراجع عن الديمقراطية... وتواجه الديمقراطية في البرازيل وبلدان اخرى ردود فعل سلبية وسخطاً من ملايين السكان، المتدينين الجدد، السيئي التعليم، الذين يقطنون احياء الفقراء المكتظة".

وفي هذا السياق، فإنّ ديمقراطيات الغرب، الديمقراطيات الليبرالية، كانت عامل استقرار لتلك المجتمعات، فهي إضافة لكونها نظاماً للحكم فهي أيضاً نمط حياة، وبذلك تكمن اهميتها. وهذا ما يحدث فرقاً بين العالم الحديث والعالم الثالث.

الليبرالية كمعوق للشعبوية

إنّ الديمقراطية الغربية يميزها سلم قيم، يغيب عن ديمقراطيات العالم الثالث. ففي حين تتميز الديمقراطيات الغربية، بالاضافة لإطلاقها للحريات والحقوق السياسية، بارتباطها الوثيق بحقوق الإنسان، بتكريسها الفردانية، أيّ اعتبار الفرد قيمة بحد ذاته، ومبدأ التسامح والحياد القيمي، والعقلانية، والمساواة أمام القانون، والإرتيابية، أي عدم

الادعاء بامتلاك المعرفة الخاصة باليقينيات والحقائق المطلقة.

إنّ الديمقراطية في الغرب جاءت حصيلة مفهوم الدولة التي ترعى شؤون الناس وتعمل لخيرهم العام ولمصالحهم والتي تعلي شأن الإنسان فيها وتحمي حياته وحريته. إن الإنسان الذي كان مكبلاً ومقيداً بشكل أعمى إلى الطبيعة في تطوره تحوّل، نتيجة ذلك التحول في الغرب، من تحويل علاقاته إلى ذاته بدل الطبيعة. وبحسب إريك فروم، فإنّ الإنسان في المجتمعات الحديثة خرج من طور قاعدة التطور الفج للإنسان[4] "كفرد لم يقطع حبل الصرة الذي يوّحده مع اقرانه في الجماعة القبلية البدائية، أو على اساس علاقات الاخضاع المباشر". لقد استطاع الإنسان في الغرب أن يتجاوز تاريخ "الماقبل إنساني" الذي كان يرزح تحته ليبدأ التاريخ الإنساني في الواقع، الذي يمّكن كل فرد من تحقيق إنسانيته بابعادها الكلية .

لقد وفرت الديمقراطية للإنسان الحرية والتي هي حسب توكفيل[5] "التحكيم الحر. حرية خيار الشخص الإنساني،

---

(4) فروم، اريك، مفهوم الانسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، دار الحصاد، دمشق.

(5) شفاليه، جان جاك، المؤلفات السياسية الكبرى، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة ، بيروت.

سلطته الاخلاقية على مصيره الخاص، واجبه وحقه في أن يأخذ نفسه على عاتقه مع عدم ترك هذا الاعتناء المقدس على أيّ شخص آخر". للإنسان في الانظمة الديمقراطية سلطان فريد، يتابع توكفيل، ويضيف إلى إنجاز الحرية إنجازاً آخر أكثر اهمية قدمته الديمقراطية للإنسان، ويتعلق بمبدأ المساواة، فيعتبر أنه إذا كانت الحرية تعطي من وقت لآخر لذّات رفيعة فان المساواة توفر في كل يوم تمتعات صغيرة لكل إنسان. محاسن المساواة تُحس في كل اللحظات وهي في متناول الجميع، "في قرون المساواة، كل إنسان يبحث عن افكاره، آرائه، معتقداته، في نفسه. يدير كذلك كل عواطفه نحوه وحده (هذه هي الفردوية)... في معظم عمليات الذهن لا يستنجد الفرد إلا بعقله... في ازمنة المساواة ليس عند الناس ثقة ببعضهم بعضاً بسبب تماثلهم، ولكن هذا التماثل نفسه يعطيهم ثقة غير محدودة تقريباً بحكم الجمهور، اذ لا يبدو لهم معقولا، بما أنّ عندهم جميعاً انواراً متماثلة، أن لا تصادف الحقيقة في جانب العدد الاكبر".

إنّ المساواة تلغي التراتبية التي تشيعها الانظمة السلطوية التي تربط رعاياها بسلسلة طويلة من الخضوع والتسلط. فكل واحد يخضع لحماية شخص فوقه وهو بدوره يحمي من هم دونه. الديمقراطية تحطم هذه السلسلة. إن الانظمة التي كانت تخلق اتصالاً دائماً بين الاجيال، بين الأموات والأحياء،

والذين سيولدون، بحيث إنّ كل واحد يعرف اجداده وكان يعتقد أنه يلمح أبناء أحفاده، وكل واحد كان مستعداً للتضحية بمتعه الشخصية لهذه الكائنات التي لم تعد موجودة، (أي الماضوية)، جاءت الديمقراطية لتحطم أيضاً هذه السلسلة .

إنّ هذا الإعلاء لشأن الإنسان، وجعله غائية اخيرة ورفض تشييئه، واعتبار أنّ له حقوقاً أساسية تحميها الدولة، هو الذي يعطي المجتمعات الحديثة الديمقراطية المناعة الكافية التي تمكنها من مقاومة أيّ ظاهرة قد تهدد انجازات تلك المجتمعات ومن ضمنها الظاهرة الشعبوية.

إنّ قضية الإنسان كانت محور اهتمامات كل المفكرين الذين استطاعوا، وبعد معارك ضارية مع التقليد، أن يطلقوا عصر الانوار، الذي قدم قيمة الإنسان على أي قيمة أخرى، ولم يزل، منذ ذلك الوقت وحتى الآن، يتصدر واقع الإنسان الهّم الاساسي للنخب الفكرية التي لم تزل ومن خلال النقد (الفكر النقدي) تدير معارك مع النخب الحاكمة في المكان الذي تشعر فيه بانحراف هذه الاخيرة عن احترام الإنسان والحفاظ على كرامته وحقوقه وحرياته، أو محاولة قمعه تحت أيّ عنوان أو أيّ سبب من الاسباب. وهي لا تتوانى عن القيام باي شيء يساهم في مراكمة، قيم جديدة ومضافة له .

ولعل هذا الحوار الشهير بين ميشال فوكو وجيل دولوز يبين لنا كيفية ملاحقة المفكرين للسلطة عند انحرافها. ففي

سياق الجدل بينهما حول المثقفين والسلطة يتوقف ميشال فوكو عند نظام العقوبات الذي يعتبر الشكل الذي تظهر فيه السلطة كسلطة، فيقول[6] "وضع شخص في السجن، والاحتفاظ به محتجزاً، ومنعه من الاكل ومن التدفئة، ومنعه من الخروج ومن ممارسة الجنس... الخ، هنا بالتأكيد يظهر الطابع الأكثر هذياناً للسلطة الذي يمكن تصوره. كنت أتحدث مع امرأة كانت في السجن وكانت تقول لي: عندما أفكر أنا صاحبة الأربعين سنة بأنني كنت معاقبة يومياً بالخبز الحاف الجاف". ما يثير في هذه الحادثة أو القصة ليس سخف ممارسة السلطة فقط، ولكن الوقاحة التي تمارس بها، وفي شكلها الاكثر عتاقة وسخفاً وصبيانية. اختصار شخص أو إحالته أو رده أو تحويله إلى مجرد الخبز والماء أو الاكل والشرب... السجن هو المكان والوسط الوحيد الذي تظهر فيه السلطة في شكلها العاري. وفي بُعدها الاكثر تجاوزاً وتبرر نفسها بوصفها سلطة أخلاقية. "لي الحق في العقوبة بما انكم تعرفون أنه شنيع وممنوع أن تسرق أو أن تقتل.... هذا ما هو رائع في السجون، لأنه للمرة الأولى، السلطة لا تتخفى ولا تتستر ولا تتقنع وانما تظهر بوصفها طغياناً شاملاً ومنتشراً في

(6) دولوز، جيل، سياسات الرغبة، تحرير د.احمد عبد الحليم عطية، دار الفارابي.

ادق التفاصيل، طغياناً وقحاً، في الوقت نفسه، وخاصة أنه مبرر تماماً ما دام يستطيع أن يتشكل داخل اخلاق تؤطر عمله وممارسته".

كما وانشغل مفكرو مدرسة فرانكفورت ولسنوات طوال بمصير الفرد في المجتمعات الصناعية المتقدمة، انطلاقاً من اعتبار أنّ التكنولوجيا في هذه المجتمعات تعزز وتطور أشكالاً جديدة ومبتكرة من الرقابة الاجتماعية التي تسحق الإنسان وتحرمه من حريته. وقد اطلق ماركيوز، أحد أعمدة تلك المدرسة، مصطلح "إنسان البُعد الواحد" على الإنسان الذي يتحول إلى منتج مستهلك، إلى حد أنه يخنق في نفسه كل حاجة غير حاجة الإنتاج والاستهلاك. من هنا يرى ماركيوز أن الإنسان في تلك المجتمعات يضحى[7] "متشيئاً ذا بعد واحد، هو البعد المتمثل المتكيف المتصالح مع الواقع، لانه يفقد قدرته على المعارضة، وحتى على مجرد احساسه بالاغتراب، فيما التفكير النقدي هو اهم ما يميز الإنسان الحر".

كذلك يصف تومبسون إنسان البُعد الواحد بأنه[8] "نصف

---

(7) بوتومور، توم، مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعد هجرس، مراجعة د.محمد حافظ دياب، دار أويا.

(8) المرجع نفسه.

ابله، حسن التغذية، ضحل في عواطفه، فقير في علاقاته الإنسانية، دمية سوقية، يسيطر عليه الخداع من ميلاده إلى وفاته".

إنّ أهمية الديمقراطية لا ينحصر في كونها تزَود العدد الاكبر بأكبر قسط من الحرية وتحمي اوسع تنوع ممكن وتعترف به، ولا على مجموعة الضمانات المؤسساتية، ولا على حكم الاكثرية فقط، بل تكمن اهمية الديمقراطية في احترام المشاريع والتطلعات الفردية والجماعية التي تقرن بين التأكيد على الحرية الشخصية وبين الحق بالتماهي مع جماعة مجتمعية اخرى حسب آلان تورين، كما أنّ أهمية الديقراطية لا تقوم على القوانين فقط بل على ثقافة سياسية؛ إنها تفترض القضاء على سستام التراتب وعلى النظرة الجميعية للمجتمع، كما تفترض الاستعاضة عن إنسان المراتب بإنسان المساواة؛ وحتى تكون المساواة ديمقراطية ينبغي أن تعني حق كل فرد باختيار طبيعة وجوده وتدبر هذا الوجود، حقه بالفردنة ضد كل الضغوطات التي تمارس باتجاه التخليق والتطبيع، إضافة لكونها تنبذ بشدة هاجس الهوية الذي يجعل كل إنسان حبيساً ضمن طائفته، ويختزل الحياة المجتمعية إلى حيز التسامح والتساهل، مما يدع الساحة مشَرعة على كل احتمالات الفرز والتقوقع.

إنّ هذه المنظومة من القيم التي ارستها الديمقراطية في الغرب، هي التي تشكل عائقاً أمام ما يعرف بالحركات الشعبوية. وقد تجد هذه الاخيرة حيزاً لها إلا أنّها ستكون تماماً كما وصفها تاغييف[9]، "مرض عابر قد تتسبب في ايذاء المجتمعات التي تصيبها، لكن في نهاية المطاف تختفي من دون أن تترك لها أيّ أثر".

يؤكد سلستان بوغليه، [10] "أنّ الديمقراطية ستكون في نطاق الجمهورية، مطبقة على المجتمع، نتيجة لتطور العقلانية الديكارتية وانواع التقدم العلمي التي تكون قد قهرت النخبوية والسلطوية والعنصرية بشكل نهائي، وسمحت بتوكيد ملموس لحقوق الإنسان".

كذلك كان ألكسي دو توكفيل منبهراً بالتحول الديمقراطي في الغرب وفي اميركا تحديداً[11] "في أيّ جهة نلقي انظارنا نشاهد الثورة نفسها التي تتواصل في كل الكون المسيحي،

---

(9) Taguieff, L'illusion populiste. *Essai sur les démagogies de l'âge démocratique*, Champs-Flammarion.

(10) شاتليه، فرنسوا، دوهامل، اوليفيه، بيزيه، كوشنير، افلين، تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة د.خليل احمد خليل، معهد الإنماء العربي.

(11) شفاليه، جان جاك، المؤلفات السياسية الكبرى، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة ، بيروت.

رأينا مختلف حوادث حياة الشعوب تدور لصالح الديمقراطية. كل البشر ساعدوها بجهودهم. الذين كانوا يبغون الاسهام في نجاحاتها والذين لم يكونوا يفكرون بخدمتها، الذين قاتلوا من اجلها والذين لم يكونوا يفكرون بخدمتها، الذين قاتلوا من اجلها وأيضاً الذين اعلنوا انفسهم اعداءها. كلهم دُفعوا في الطريق نفسه، وكلهم عملوا بصورة مشتركة، بعضهم رغماً عنهم، والآخرون خفية عنهم... أيكون من الحكمة الاعتقاد أنّ حركة اجتماعية تأتي من بعيد كهذه يمكن أن توقفها جهود جيل؟ هل يفكرون ان الديمقراطية بعد أن دمرت الاقطاع وهزمت الملوك ستتراجع امام البرجوازيين والاغنياء؟ هل ستتوقف الآن بعد أن أضحت بهذه القوة واضحى خصومها بهذا الضعف؟"

إنّ شعوب المجتمعات الحديثة عندما تشعر بالتهميش أو بالضغط تبحث عن وسائل تمكنها من تحقيق حاجاتها واهدافها بسبل وادوات قد يكون من بينها على سبيل المثال خطاب فيه بعض الملامح الشعبوية، فتستعمله إلى حين، إلا أنّها لا تغامر بانجازات مجتمعاتها، بل تحاول أن تجد سبلاً تمكنها من المراكمة فوق ما هو محقق لها من حريات وامتيازات. في حين أنّ شعوب العالم الثالث حين تتفاقم عليها الضغوطات، تنفجر وبشكل عنيف وفوضوي وتحاول

تدمير الهيكل على من فيه؛ والسبب أن الإنسان المهدور في تلك المجتمعات ليس لديه ما يخسره سوى أغلاله. من هنا يمكن للشعبوية أن تصل إلى اقصى حدودها هناك وتشكل - اضافة لتدمير السلطة التي كانت قائمة - الأسس التي ستبنى عليها السلطة فيما بعد والتي غالباً ما تكون اعادة إنتاج لسابقتها.

إنّ ديمقراطيات العالم الثالث، تستعير من الديمقراطية بعض مبادئها إلا أنَّها وفي ما يتعلق بذلك الشق الذي يُعلي شأن الفرد فانها تُغَيّبه وبشكل سافر. ترفض هذه المجتمعات "الفردية" حسب سعيد زيدان، وهي خلافاً[12] "لمجتمعات اوروبا الغربية واميركا الشمالية، بحيث إن الجماعة وليس الفرد هي الوحدة صاحبة الحقوق لانها هي القيمة بحد ذاتها، الفرد في تلك المجتمعات هو جزء (عضو) من كل اكبر (القبيلة، العائلة، الطائفة، الدولة، القومية)، بمعنى أنّ تلك المجتمعات تُغَيب الفردية، تلك القيمة التي تشكل قاعدة الارتكاز لمفهوم حقوق الإنسان من جهة وللمفهوم الليبرالي للديمقراطية من جهة اخرى".

وبذلك يكمن الفرق بين كل من المجتمعات الحديثة وتلك المنتمية إلى العالم الثالث.

---

(12) زيدان، سعيد، حول الخيار الديمقراطي، مركز دراسات الوحدة العربية.

لا شيء يحمي المجتمع حسب ياسين الحاج صالح إلا الديمقراطية الليبرالية، فيقول[13] "دون التقليد الليبرالي يحتمل أن تنزلق الديمقراطية إلى استبداد شعبوي أو شمولي".

من هنا لا يمكن الحديث عن ديمقراطية حقة من دون اقترانها بالليبرالية.لا يكفي أن تحمل حركة سياسية ملمحاً شعبوياً لكي تصنف بالظاهرة الشعبوية، والا اصبح الامر اعتباطياً، أو كمن يطلق الاحكام جزافاً، من دون تمعن وتدقيق وفهم عميق للأشياء، بل حكم يتصف بالارتجالية والبعد عن المنطق السليم في النظرة إلى الامور والمعالجة الجدية للموضوع. يجب أن لا نحكم على قائد أو رجل سياسة بأنه شعبوي انطلاقاً من خطاب له، بل يجب أن نحكم على طريقة ممارسته للسلطة أو نمط شرعنته لسلطته إذا ما كانت شعبوية أو لا، وانطلاقاً منها نطلق الحكم عليه، عندها نتمكن من تصنيفه إما أن يكون شعبوياً، وإما رجل دولة.

خلاصة القول، إنّ الشعبوية رحابها تلك الامكنة التي لم تتعرف بعد إلى الحداثة، والتي تقفل الباب على إعمال

(13) صالح، ياسين الحاج، مقالة بعنوان: "في شأن ما يطرحه علينا الاستفتاء السويسري من أسئلة أخلاقية وسياسية"، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني، تاريخ 27/ 12/ 2009.

العقل، وتطارد اصحابه بالنفي، بالطرد، بالاعتقال، واحياناً أخرى بالاغتيال.

حين يهزم العقل في مجتمع من المجتمعات، ترفع الشعبوية راية النصر. فهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باللاعقلانية.

بعد هذه المحاولة في تقديم الظاهرة الشعبوية، قد يجد بعضهم أنه تم القفز في الحديث عن هذه الظاهرة فوق ما يعرف بحركات اليمين المتطرف في كل من اوروبا واميركا، بحيث إنه تم التعرض لها بشكل عرضي، أو تم التعاطي معها بنظرة غير معمّقة، في الوقت الذي يدلّل بالشعبوية عليها من قبل عدد كبير من المفكرين، وبالتالي فإن التعاطي معها بهذا الشكل يُعد إما إهمالاً وإما تحيزاً.

كما ويعتبرون أنّ الدافع وراء تناول عدد من مفكري الغرب للظاهرة الشعبوية، جاء نتيجة لنوعية الخطاب الذي تتبناه حركات اليمين المتطرف هناك، والذي يرّكز بشكل اساسي على العداء للاسلام والمهاجرين، ويستعمل اللغة ذاتها التي يعتمدها شعبويو العالم الثالث. وهذا الامر يدحض ما جاء في سياق هذه الدراسة من نفي أو استبعاد لظاهرة الشعبوية عن الحركات اليمينية المتطرفة.

لذلك لا بد لنا من التوقف عند هذه الظاهرة بشكل اكثر تفصيلاً، علَّ ذلك يساهم في توضيح وجهة نظرنا حول طبيعة هذه الظاهرة في المجتمعات الحديثة وأفقها من ناحية،

والآلية التي يتم التعاطي بها مع هذه الظاهرة في تلك المجتمعات من ناحية ثانية.

يفيدنا تقرير حديث من براغ بأنه[14]: "من بلغاريا إلى بريطانيا مروراً بسلوفاكيا وهولندا وفنلندا، يتبارى اليمين المتطرف في اطلاق الشعارات المناهضة للمسلمين وللهجرة وغيرها، آملاً بلورة الاستياء الناجم عن الازمة وتسخيره لمصلحته في الانتخابات الاوروبية. ففي جمهورية تشيكيا، بث الحزب القومي شريطاً دعائياً يدعو إلى ايجاد حل نهائي لمشكلة الغجر، وفي النمسا تطالب ملصقات حزب الحريات علناً بأن يكون الغرب في ايدي المسيحيين... وفي بلغاريا يشن حزب "ناكا" حملة تحت شعار لا لتركيا في أوروبا".

وفي اسبانيا لم يزل السجال قائماً حول مسألة المهاجرين غير الشرعيين، منذ بادر عمدة بلدة "فيك" في اقليم كاتالونيا إلى اجراء اداري وقانوني ينص على أنه، لكي يحصل الأجانب على سندٍ للإقامة في البلدية التي يديرها عليهم أن يثبتوا قانونية وجودهم في اسبانيا، وبالتالي منع المهاجرين غير الشرعيين من الحصول على مستند اقامة وكل ما يتفرع

---

(14) تقرير من براغ عن AFP بعنوان: "تصاعد الشعارات العنصرية ضد المسلمين والمهاجرين، الأزمة الاقتصادية تزيد شعبية اليمين المتطرف"، جريدة البعث، العدد 13684 ، تاريخ 1/ 6/ 2009.

عن امتلاك المستند من حقوق مثل الصحة والتعليم المجانيين وغيرهم.

كذلك في فرنسا وبعد احداث 11 أيلول/سبتمبر- تصاعدت الحملات ضد الاسلام والمسلمين. وينقل إلينا قيس العزاوي بأن[15]: "معاداة الاسلام تحولت إلى تجارة رابحة، وصارت الصحافة الفرنسية تضع على عاتق المسلمين الازمة الاقتصادية برمتها والبطالة واختلال الأمن والإرهاب، وأصبح الناخبون الفرنسيون في مواقع عدة يصوتون لأكثر المرشحين عدوانية للاسلام...". ومؤخراً، أصدرت مجلة الإكسبرس موضوع غلاف تصدرت ملصقاته الإعلانية ولوحات الإشهار أغلب واجهات المدن الكبرى، وهو "تحقيق حول أموال الإسلام"، وعنوان آخر "إرهاب: بن لادن لايزال حياً"، ما يترك صورة ذهنية لدى المتلقي بأن أموال المسلمين مخصصة للإرهاب. ويتحدث بعضهم عن تمويل الجوامع في فرنسا من قبل دول إسلامية يقول إنها تتدخل في شؤون المسلمين الفرنسيين، وهو ما تعترض عليه الدولة لأنها تريد إسلاماً فرنسياً وليس إسلاماً في فرنسا، كما يقول الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي، مؤكداً ضرورة العمل على علمنة الإسلام الفرنسي.

---

(15) العزاوي، قيس، مقالة بعنوان: "صورة الاسلام والمسلمين في فرنسا"، عن الموقع الإلكتروني www.arabic.bayynat.org.lb

وفي هذا السياق، تبرز إشكالية بناء المساجد في فرنسا على كلِّ لسان، ففي وقت ترفض فيه الدولة مساعدات المسلمين من خارج فرنسا لبناء المساجد، فإنها لا تساعد بدورها، ولا تطلب من البلديات منح قطعة من الأرض على الأقلّ لكي يجمع المسلمون الأموال اللازمة للبناء. والأدهى من ذلك، أنها ترفض بشدة منح رخص البناء التي أصبحت عسيرةً جداً باعتراف المسؤولين الفرنسيين أنفسهم. ويشير إلى هذه الوضعية جان بيير شوفينمو، وزير الداخلية الفرنسية الأسبق، إذ يقول بأن المسلمين يضطرون لممارسة شعائرهم الدينية في أقبية البنايات أو مرائب السيارات، لأن السلطات البلدية لا تمنحهم الموافقات اللازمة لبناء مساجد لهم. تؤكد ذلك الصحافية الفرنسية ماريون فستريت في مقال لها بعنوان "المسلمون في فرنسا: مشاكل الاندماج والهوية" (مجلة الإكسبرس أواخر كانون الأول ـ ديسمبر2000)، إذ تقول بأن فرنسا هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي ترفض منح المسلمين موافقات لبناء مساجد لهم، وتشير إلى عشرات الطلبات لبناء المساجد التي تنتظر منذ سنوات من دون موافقات بلدية. كما تأتي على ذكر إقدام رئيس بلدية فرنسي على هدم مسجد كبير بالبلدوزر، ثم تشير إلى رئيس بلدية نيس الذي كتب صراحةً: "ذقت ذرعاً بالمسلمين ولن أسمح ببناء مساجد في دولة علمانية".

اما في سويسرا فكلنا يتذكر الضجة التي اثارها الاستفتاء ضد تشييد المآذن هناك، والذي حصد اكثرية شعبية إلى جانبه، واعتبر استعداءً للاسلام وللمسلمين.

وفي هولندا، حزب الحرية لزعيمه فيلدرز، حزب يعتبر شعبوياً لا بل عنصرياً، ويقوم برنامجه على المطالبة بتحديد الهجرة وتحريم النقاب وطرد المهاجرين غير الشرعيين، وهو يكتسب شعبية ملحوظة هناك.

وفي الدنمارك، وصلت موجة العداء للاسلام إلى الحد الذي بات يشكل ازمة حقيقية مع العالم الاسلامي قاطبة بعد نشر الرسوم الكاريكاتورية التي طاولت النبي(صلعم) والاسلام، كذلك أشارت إحدى الدراسات الجديدة الصادرة عن مكتب خدمات في صحيفة «بوليتكن» اليومية الواسعة الانتشار في الدنمارك أن نسبة اللاجئين الوافدين من البلدان الإسلامية التي اعتادت الدنمارك على استقبالهم عبر مكاتب المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة إلى الأمم المتحدة أخذت تتقلص خلال السنتين الأخيرتين بشكل ملحوظ.

كما ويعرض لنا رضوان زيادة استطلاعاً للرأي أجراه معهد(بيو)الدولي للأبحاث في تموز/يوليو 2005 يظهر[16]:

---

(16) زيادة، رضوان، مقالة بعنوان: "المنظور الغربي لحركات الاسلام السياسي"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://www.biblioislam.net

"أن غالبية الأمريكيين والأوربيين قلقون إزاء تزايد التطرف الإسلامي حول العالم، وقد شمل الاستطلاع 17 دولة، إذ أبدى ثلاثة أرباع المواطنين في الولايات المتحدة والدول الأوروبية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وهولندا وإسبانيا وروسيا قلقهم إزاء التطرف الإسلامي حول العالم.

ووصف معظم مَنْ استطُلعتآراؤهم - في أمريكاوالدول الأوروبية والهند-الإسلام بأنه أكثر الأديان عنفاً، وذلك عندما طُلبإليهمالاختيار بين الإسلام والمسيحية واليهودية والهندوسية. واعتبر 87 في المائة من الفرنسيين،و88 في المائة من الهولنديين أن الإسلام هو الدين الأعنف بين باقي الأديان.

وأشار 22 في المائة من المستطلعين في الولايات المتحدة إلى أن لديهم نظرة سلبية إلى الإسلام، مقارنة بـ 57 في المائة يملكون نظرة إيجابية. وقال 34 في المائة في فرنسا إن لديهم نظرة سلبية مقارنة بـ 64 في المائة إيجابية. وأشارت غالبية المستطلعين في الدول الأوروبية إلى أنهم يشعرون بتصاعد الهوية الإسلامية في بلادهم، ويعتبرون هذا الأمر سيئاً لبلدانهم".

اما في الولايات المتحدة الاميركية وبعد احداث 11 ايلول تصاعد أيضاً الخطاب المعادي للاسلام والمسلمين.

ينقل إلينا علاء بيومي صورة عن الوضع هناك، فيقول[17]:
"كتب إدوارد سعيد يوم 2 أغسطس/آب 2003 في جريدة ذي غارديان البريطانية ما يلي: أتمنى أن أقول إن الفهم العام للشرق الأوسط وللعرب وللإسلام في أميركا قد تحسن (بعد 11/ 9)، ولكنه في الحقيقة لم يتحسن؛ إنّ رفوف المكتبات الأميركية بعد 11 سبتمبر/أيلول امتلأت بكتب عن الإسلام ولكنها كتب سيئة مليئة بعناوين رئيسية صارخة عن الإسلام والإرهاب والتهديد العربي والخطر الإسلامي، أما الإدارة الأميركية فقد أعطت آذانها لبعض أشهر المستشرقين الغربيين مثل برنارد لويس الذي استدعته الإدارة لعرض أفكاره عن الإسلام على العاملين في البيت الأبيض. ويروج لويس لفكرة أن نظرة المسلمين للغرب والولايات المتحدة في الفترة الراهنة يحكمها شعورهم بالمهانة الدولية بعد سقوط حضارتهم وحقدهم على الغرب المسيحي المتقدم... وقد تجلت هذه الرؤى العنصرية في موقف بعض قيادات اليمين الأميركي المتدين تجاه الإسلام... كما امتلأت الأسواق

---

(17) بيومي، علاء، مقالة بعنوان: "صورة الاسلام والمسلمين في اميركا.. الجذور والحاضر"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://www.aljazeera.net

الأميركية بكتابات عدد من أكثر الكتاب الأميركيين تطرفاً في موقفهم من المسلمين والعرب مثل دانيال بايبس مؤلف كتاب "الإسلام المسلح يصل أميركا" الصادر عام 2003، وستيفن إمرسون مؤلف كتاب "جهاد أميركي.. الإرهابيون الذين يعيشون وسطنا" الصادر في العام نفسه. فهؤلاء روجوا لنظرية أن المسلمين والعرب المقيمين في أميركا والغرب هم أعداء مقيمون في الولايات المتحدة يتحينون الفرص للانقضاض عليها، ومن ثم يجب السعي لمراقبتهم والتضييق عليهم وتهميش منظماتهم".

وانطلاقاً من هذه الصورة، أطلق الكثير من المفكرين صفة الشعبوية على خطاب حركات اليمين المتطرف، كما ذهب البعض الآخر إلى وصف ذلك الخطاب بالعنصري.

والواقع أنّ الوصف الثاني (أي العنصري) يلامس مضمون ذلك الخطاب اكثر مما تلامسه الشعبوية، لماذا؟

لا بد لنا من المقارنة بين الخطاب العنصري والخطاب الشعبوي لنتبين الفرق.

بداية لا بد من تعريف العنصرية.

العنصرية[18]، "هي تعصب فرد أو فئة من الناس لجنس

---

(18) تعريف العنصرية، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.almahrah.net

أو عرق أو قبيلة أو عشيرة أو دين أو طائفة أو معتقد أو حتى لون بشرة واباحة قتل أو اضطهاد أو حتى ازدراء الفئات الاخرى من دون وجه حق أو سبب واضح سوى أنها تختلف عنه في جنسها أو عرقها أو طائفتها أو لون بشرتها. والعنصرية موقف سلبي ظالم تجاه إنسان آخر لمجرد انتماء هذا الإنسان إلى جماعة عرقية".

ويمكننا انطلاقاً من هذا التعريف أن ننسب محتوى خطاب اليمين المتطرف في الغرب إلى "العنصري" اكثر منه إلى "الشعبوي"، بحيث إنه خطاب معاد للإسلام والمسلمين ومعاد للمهاجرين والاجانب، ويتطلع إلى هذه الفئة انطلاقاً من نظرة مسبقة طابعها سلبي، ويرّوج لحملات دعائية عبر تمرير صور نمطية عن الاسلام تختزله كديانة تتبنى العنف وتحرّض على التطرف وتعارض الحداثة. وانطلاقاً من ذلك ترى صعوبة في اندماج المهاجرين، وخصوصاً المسلمين، في مجتمعاتها.

في حين أن الخطاب الشعبوي خطاب قد يتقاطع في مكان ما مع العنصري من حيث التحريض والتعبئة والتخويف من عدو معين، ولكنه يتمايز عنه أيضاً بأمور عديدة. يقدم لنا موريس ابو ناضر قراءة في الخطاب السياسي اللبناني، وهو على الرغم من أنه لم يطلق عليه صفة الشعبوية، إلا أنَّه يقدم صورة للخطاب الشعبوي على حقيقته، فيعتبر أنّ اللغة

السياسية في خطاب الساسة اللبنانيين[19]: "لاتهدف إلى التعبير المعرفي، ولا يهمّها كثيراً نقل الوقائع والحقائق، وإنما هي اللغة - الأداة التي توظّف لخدمة موقع، أو هيئة، أو شخص، وبالتالي فهي ليست لغة صريحة، وإنما.. ملتبسة متعدّدة المعاني والإيحاءات والإحالات، وهي لغة تجمع بين الاستدلال العقلي والمغالطات المنطقية، بهدف إثارة الأذهان وتعبئة النفوس، وبذلك تلتقي بلغة الإيديولوجيا التي هي في الغالب فكر في خدمة السلطة... لغة السياسيّين تركّز على الإنجازات، وتتناسى الوقائع السلبية التي تكشف مراوغتهم وتفضح وعودهم الكاذبة. وهي تقوم بعملية إظهار وإخفاء، إخفاء ذات السياسي باعتبارها الذات المثالية في أعمالها وأقوالها، والحطّ من قيمة المعارضين لهذه الذات، وإظهارهم بأنهم المخربون، والعاملون على تقويض السلامة العامة.

ولغة السياسة تجري على عكس لغة الفلسفة، فهي لا تطرح الإشكالات، ولا تثير الأسئلة، وإنما تقدّم الأجوبة والحلول التي هي في طريقها إلى الإنجاز، خوفاً من سقوط شرعيّتها. من هنا نرى لغة السياسة تسعى إلى الغاء كل مظاهر

---

(19) ابو ناضر، موريس، مقالة بعنوان: "اللغة السياسية اللبنانية حجج كاذبة ووعود بالجنة"، جريدة النهار اللبنانية، عدد 24338، تاريخ 20/ 3/ 2011.

التعقيد بحيث يختلط في كلامها العقل بالهوى، والواقعي بالمتخيّل... يختلط الإنسان الصانع بالإنسان الساحر، بحيث يحل في مخاطبتها للرأي العام الإلهام مكان الحجّة والدليل.

يلاحظ في لغة السياسيين اللبنانيين بشكل عام، اللجوء إلى تعابير تنقل باستمرار حراجة الوضع السياسي أو الاقتصادي أو الأمني لتبرير ما يحدث من إهمال وتخلّف، وعدم القدرة على استئصال الفساد، فنسمع مثلا "الأزمة في السلطات على مستوى الرؤساء"، "الوضع الاجتماعي المتأزّم بسبب غلاء الأسعار"، "الحالة الإقليمية المتأزّمة". إن اللجوء إلى فكرة الأزمة هو في الواقع مهرب سهل للسياسيين في السلطة لتبرير ممارساتهم، واستدرار الظروف التخفيفية لإهمالهم وفشلهم في إدارة أمور الوطن العامة... إن اللجوء إلى الحجّة الكاذبة في الحديث عن "الأزمة " بضاعة سائدة عند رجال السياسة في لبنان، لأنها أيسر السبل لتبرئة الذات، وحمل المواطنين على القبول بأن رجال السياسة الحاكمين لا تقع المسؤولية عليهم، وإنما على الحرب الأهلية بين اللبنانيين، والصراع العربي الإسرائيلي".

ويلاحظ في لغة السياسيين اللبنانيين أيضاً اللجوء إلى "حجّة الوعد بالجنة"، حيث لا يردّ الحاكمون منهم سوء الأوضاع المعيشية إلى أسباب خارجة عن إرادتهم، كالحرب اللبنانية الأخيرة، واحتلال اسرائيل لبعض الأراضي في

الجنوب، والوضع الإقليمي المتأزّم، وإنما يعترفون جزئياً بسوء الأوضاع على طريقة نعم ولا. يقول أحد السياسيين: "إن الأوضاع الاقتصادية حرجة، ولكن تمكنّا من إعادة فتح المدارس والجامعات، وتوسيع المطار، وتشجيع الاستثمارات، ونكاد ننجز البنى التحتية". ولا تتوقّف حجّة الدفاع عند هذا الحدّ، وإنما يعطف عليها "حجّة الوعد بالجنّة". ومنطق هذه الحجّة أن الأوضاع إذا بدت للبعض سيئة في حدودها الحاضرة، فإن المستقبل سيحمل معه المن والسلوى. يقول أحد السياسيين في هذا السياق "إن لبنان قطع شوطاً في إعادة بناء نفسه ومستقبله. الحرب انتهت ولبنان سيعود كما كان لؤلؤة الشرق الأوسط". هذا الأسلوب يُسكت المشكّكين والمعترضين، ويُخدّر المواطنين المستائين بتحويل واقعهم المزري إلى آمال متروك أمر تحقيقها للمستقبل.

ويُلاحظ في لغة السياسيين اللبنانيّين نمط آخر من أنماط التعبير، هو اللجوء إلى "تأنيب المواطنين" المعارضين والمعترضين حيث يحمّل الساسة الحاكمون مسؤولية الأوضاع المتردّية إلى الناس على اختلاف طبقاتهم. من ذلك أنّ المعارضة تنشر "الغسيل الوسخ" وتهدّد الثقة بالبلد، وأن العمال يهدرون أوقاتهم بالإضرابات، وأن الموظّفين يتقاضون الرشاوى على كل شاردة وواردة، وأن الأساتذة والمعلّمين عددهم يزيد عن الحاجة، وأن الصحافة مرتشية، وتعمل من

الحبّة قبّة. والكل كما يقول أحد السياسيين الكبار "يعيشون فوق مستوى إمكانياتهم". أما أولئك الذين ينهبون خيرات الوطن من الحاكمين وأعوانهم من المستزلمين والمساهمين في الاحتكارات والتعهدات والاستثمارات فهم بمنأى عن أي لوم أو عتب.

ويلاحظ أخيراً في اللغة السياسية عند اللبنانيين التأسيس لمنطق "إستثارة العواطف النبيلة". ففي مواجهة الأزمة المعيشية يطلب أحد السياسيين من الناس أن "يشدّوا الأحزمة" حرصاً على الأمن الاقتصادي. وفي مواجهة العدو الإسرائيلي يطالب سياسي كبير بتناسي المطالب مؤقتاً، من أجل الوقوف في وجه العدو الرابض على أرض الجنوب. ومن أجل تعزيز الوفاق الوطني يطلب سياسي مصلح من السياسيين المعارضين والحاكمين، ومن الناس أن يترفّعوا عن المهاترات السياسية التي تؤدّي إلى الفتنة، وتهدّد وحدة البلد. ومن أجل سلامة نظامنا الديموقراطي يطالب السياسيّون القادة من الجميع أن يتنازلوا عن المطالبة بحرياتهم في التعبير والتظاهر، وأن يتوقّفوا عن رفع شعارات العيش الكريم والحرية والسيادة والاستقلال، في انتظار ظروف وطنية وإقليمية ودولية مؤاتية... في النتيجة يمكن القول إن اللغة السياسية عند الساسة اللبنانيين لا تفرض احترامها وتقديرها بمنطق العقل والحجج والإثباتات البرهانية... بل باساليب

تراوح بين الترغيب والترهيب، بين الإقناع والإكراه، وذلك لأن اقتناعاتها الإيديولوجية ليست وليدة العقل، بل وليدة الأهواء الطائفية، والمصالح الاقتصادية، والاستيهامات الجماعية. وبذلك تلعب دوراً كبيراً في تكريس السيطرة، كما يقول الفيلسوف الألماني هابرماس، وتعميم الأوهام، وتدعيم النظام الاجتماعي".

إنّ هذا النوع من الخطاب، خطاب شعبوي بالكامل، فهو مليء بعبارات تتصف بالتعمية على الحقائق ومحاولة لإزاحة المشاكل الحقيقية التي تواجه المجتمع واحلال بدائل لها، وذلك لا يعود لأهمية البدائل ولاعتبارها اكثر خطورة في تهديدها للمجتمع، بل لكون الحلول للمشاكل الاساسية التي يعاني منها المجتمع غير متوافرة، هذا إضافة إلى ذلك البعد الغيبي الذي يتضمنه الخطاب الشعبوي، من وعود بالجنة والنار. إنّ هذه المكونات الاساسية في الخطاب الشعبوي غير متوافرة في خطب اليمين المتطرف في الغرب، ولعل التقاطع الوحيد يكمن في ذلك الجانب المتعلق بالعداء للآخر، وهذا التقاطع لا يكفي وحده لكي نطلق على هذا الخطاب صفة الشعبوية .

هنا قد يسجل بعضهم ملاحظة بأن الخطاب العنصري اخطر من الخطاب الشعبوي، مما أيضاً يطرح التساؤل امام كل ما سبق من حديث عن اهمية الديمقراطية الليبرالية

للوقوف في وجه كل ظاهرة تتعارض مع سلَّم القيم الذي ذكرناه آنفاً، والتي تحرص تلك المجتمعات على عدم المساس به كونه أحد أهم انجازاتها بعد الحرب العالمية الثانية.

لإيضاح هذه النقطة، لا بد لنا من العودة إلى خطاب حركات اليمين المتطرف ووضعه في البيئة الحاضنة له، من أجل رصد مدى تفاعل الجماهير، والنخب الحاكمة، والنخب الفكرية معه على حد سواء، لنتبين الفرق بين طريقة التعاطي معه في المجتمعات الحديثة، بعد أن كنا استفضنا في الحديث عن طريقة تعاطي مجتمعات العالم الثالث مع الظاهرة الشعبوية، وكيف تقوم بتغذيتها وبفتح الأفق أمامها والتفاعل معها، مما يحول المناخ المجتمعي إلى مناخ شعبوي.

هل أن هذا الامر متاح في المجتمعات الحديثة؟ هذا ما سنحاول ايضاحه.

كيفية تفاعل المجتمعات الحديثة مع خطاب حركات اليمين المتطرف

فإذا عدنا إلى تقرير براغ، فهو وبعد استعراضه لتلك الاحزاب اليمينية المتطرفة التي تنتشر على مجمل خارطة

اوروبا الغربية، يعود ليقول، إن كل هذه الاحزاب لم تشكل تحالفاً دائماً على المستوى الاوروبي بسبب خطابها القومي المتعصب. وهذا يعني أنّ موانع تقف في وجه تحقيق هذه الاحزاب لأهدافها، وتلك الموانع تتعلق بطبيعة الثقافة السائدة هناك والتي تتناقض مع ما تحاول هذه الاحزاب المطالبة به.

اما في اسبانيا، وفور انتشار خبر قرارعمدة بلدة "فيك" تجاه المهاجرين، فقد ثارت زوبعة إعلامية كبيرة، وازدادت عندما قرّر أحد المجالس البلدية القريبة من مدريد تطبيق القرار نفسه في حال نجحت بلدية "فيك" في تطبيقه.. وانتهى الخلاف القانوني عندما أصدرت دائرة الشؤون القانونية لرئاسة وزراء اسبانيا تقريراً يؤكد أن هذا القرار غير دستوري، وبالتالي يمنع تطبيقه ويطالب بلدية فيك بالتراجع عنه، وهذا ما حصل، إلا أنَّ النقاش لم ينته هنا بل تحوّل إلى مسألة سياسية وخلاف بين الأحزاب حول وضع المهاجرين غير الشرعيين ومسؤولية الدولة تجاههم. فالمناهضون لهذا الإجراء أشاروا إلى أنه لا يمكن معاملة المهاجرين غير الشرعيين كمجرمين، كما أن منع الشخص من الحصول على سند الإقامة البلدي يعني منعه من الحصول على الطبابة والتعليم المجانيين، وهذا مناهض للوائح حقوق الإنسان قبل أن يكون مسألة تباين آراء في إجراء إداري.

كذلك في سويسرا، وعلى الرغم من أنّ الاستفتاء ضد بناء المآذن حصد الاغلبية هناك، ولكن لنتطلع إلى ردود الفعل عليه[20]. "فقد رفضت كل من الحكومة والبرلمان السويسريين المبادرة باعتبارها انتهاكاً للدستور السويسري والحرية الدينية والتسامح المرتبط في الذهن بهذا البلد"، كما أعرب مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة عن قلقه. كما وعبرت معظم الدول الاوروبية عن رفضها لهذا الاستفتاء، بحيث أعلن وزير الخارجية الفرنسي برنار كوشنير أنه صُدم بتصويت السويسريين لمصلحة حظر المآذن، معتبراً أن هذا الأمر يعبر عن عدم التسامح، واعتبر اننا إذا كنا لا نريد بناء مآذن فهذا يعني أننا نقمع ديانة، وأمِل أن يتراجع السويسريون عن هذا القرار. وأعلن الفاتيكان الموقف نفسه الذي تبناه الاساقفة السويسريون الذين اعتبروا أنّ التصويت لصالح حظر بناء المآذن فى بلادهم يشكل ضربة قاسية لحرية المعتقد. من جهتها أعربت السياسية في حزب الخضر الألماني كاترين جورينج ايكارت عن صدمتها من نتيجة الاستفتاء، ورأت أنّ الحرية الدينية لا يجب أن تخضع

---

(20) تقرير بعنوان: "قانون حظر المآذن بسويسرا... المزيد من الضغوط على مسلمي أوروبا.. شكراً للجماعات المتطرفة"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.el-wasat.com

لاستفتاء، وأن الأمر لا يتعلق بالمآذن فحسب، ولكنه يتعلق في الحقيقة بحرية الأديان.

في الدنمارك، ينقل إلينا هاني الريس[21]، " بأن بعض الساسة ونشطاء حقوق الإنسان في الدانمارك يرون أن هناك أسباباً كثيرة ومهمة كانت تحول دون رغبة الائتلاف اليميني الحاكم باستقبال المزيد من اللاجئين والمهاجرين من المناطق الإسلامية، ومن أبرزها على الإطلاق نظرة الحكومة الدانماركية تجاه كل الأقليات العرقية وليس المسلمين فقط، وتعزيز التعديلات التي أجريت على قانون الأجانب للعام 2005 والتي كانت تشدد على ضرورة اختيار اللاجئين من قبل هيئات الأمم المتحدة. واستناداً إلى ما كانت تراه الحكومة من أن قابلية اندماج الأقليات من غير المسلمين في المجتمع الدنماركي وانصهارها تتم عادة بصورة أسرع، وبتكلفة أقل مما يتطلبه إعداد وتأهيل ودمج الأقليات الأخرى وخصوصاً من الأصول الإسلامية ذاتها. إلا أنَّه وفي مقابل ذلك هناك من يعارض... تقول رئيسة حزب يسار الوسط الراديكالي لشؤون اللاجئين مارغريتا فيستانة: لم نكن نعرف

---

(21) الريس، هاني، مقالة بعنوان: "اجراءات قاسية ضد المسلمين في الدنمارك"، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 2053، تاريخ 20/ 4/ 2008.

تماماً تلك الأسباب التي تم على أساسها أن تختار الحكومة ما تشاء من اللاجئين وترفض ما تشاء. ولكن كما يبدو يتم اليوم رفض اللاجئين القادمين من دول إسلامية من دون ذكر الأسباب الموجبة أو السالبة لإجراءاتها. وشددت على أن مثل هذه الإجراءات المجحفة يعارضها حزب يسار الوسط بقوة لأن برامجه السياسية والاجتماعية والاقتصادية تسعى دائماً لتقديم المساعدات الإنسانية للاجئين من دون النظر إلى خلفياتهم الدينية أو المذهبية. المتحدث في شؤون الاندماج من حزب الشعب المعارض "يسبر لانغالة" اعتبر عملية غض الطرف عن استقبال اللاجئين من المناطق الإسلامية عملية مقصودة من الحكومة وتدخل ضمن مزايداتها المستمرة لكسب المزيد من تأييد المتشددين المعارضين للأجانب. وقد دعا الحكومة إلى أن لا تتخذ من هذه القضية الإنسانية أية ذريعة لتضييق الخناق على الأقليات أو تحويلها إلى حرب دينية مع الآخرين".

ويضيف كاتب المقال بأنه من المعروف أن الدنمارك بعد أن فتحت أبواب الهجرة واللجوء منذ منتصف القرن الماضي، شكلت الجاليات الإسلامية في البلاد أكبر الجاليات بحيث أصبح المسلمون اليوم يمثلون نسبة كبيرة بين السكان الأصليين. أي قرابة 221 ألف مسلم ويشكلون الديانة الثانية بعد الديانة المسيحية. وظلت الحكومات الدانماركية المتعاقبة

توفر لهم ضرورات الحد الأدنى من الحقوق والواجبات حرصاً منها على التمسك بكل التقاليد الديمقراطية التي تكرست وتعززت في البلاد منذ عقود طويلة مضت.

ولكن مع تزايد عزلة الجاليات الإسلامية عن جسم المجتمع الأصلي، وظهور الجماعات الدينية المتمسكة بتقاليد وعادات وتراث مواطنها الأصلية، وتصاعد الأحداث والاضطرابات المنسوبة عادة إلى بعض الجاليات المسلمة، اتسعت الفجوة بين أتباع هذه الجاليات وبين المجتمع الدنماركي وشعر بعض علماء الدين المسلمين في البلاد أنه يتعين عليهم التصدي لأعمال العنف التي ترتكب باسم الإسلام، ولكن من دون أن يتعرضوا لانتقادات من أتباعهم قد تزعزع الثقة بدفاعهم عن الدين.

اما في فرنسا، حيث تمكنت تيارات اليمين المتشدد من الفوز بأصوات كثير من الناخبين في الانتخابات الرئاسية التي جرت في فرنسا العام 2002 يحلل أوليفيه بوسك ما حصل هناك فيقول[22]: "إن وجود التنظيمات اليمينية يعني بشكل ما تعبيراً عن أزمة الهوية كما هي موجودة وفق المقياس

---

(22) بوسك، اوليفيه، مقالة بعنوان: "الحد المتذبذب بين الصداقة والعداوة، اليمين الأوروبي المتشدّد في مواجهة الاسلام"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://www.aljazeera.net

الأوروبي. فبينما تعرف هذه الدول الأوروبية أزمة سيادة وطنية . إنشاء عملة اليورو المشتركة يمثل عند بعضهم فقدان وظيفة أساسية لقيام الدولة . وبينما تتم إزالة الحدود ويقوى التحرك السكاني على المستوى الأوروبي الداخلي والخارجي، يتشكل توجه نحو تحقيق الهوية يتجسد في مساندة تشكيلات اليمين المتشدد. والخطاب واللغة الوطنيان اللذان ظلا لفترة طويلة مهمشين من طرف اليسار المهيمن فكرياً، وَجَدا حق المواطنة وبأساليب عديدة. وبعبارة أوضح، في عهد تعدد الثقافات وحين تتشكل هويات معقدة (الشواذ، والصيادون، والفرنسيون من أصل أجنبي من الجيل الثاني) تسعى لإثبات وجودها، وتشكيل ذاتها، تجري محاولة كبيرة للاعتراف بالقبيلة داخل هوية وطنية ثائرة. لقد شوهد في باريس أثناء تجمع أول مايو/ أيار السنوي وفي مقدمة مسيرة نظمتها الجبهة الوطنية، رجال يرتدون قبعات ويحمل كل منهم تحت إبطه رغيفاً مستطيلاً، وهي مظاهر تصور عادة - وبشكل هزلي- الفرنسي المتوسط، وهذا ما يشخص فرنسا الحقيقية التقليدية المعادية للتقدم. لقد تفاقم هذا الشعور بالانتماء إلى طبقة مقاومة نتيجة رد الفعل الصادر من الصحافة والإعلام والمجتمع المدني بعد نجاح هذه التنظيمات اليمينية؛ فأيديولوجية معارضي اليمين المتشدد التي يصفها هذا اليمين "بالمهيمنة"، تعارض التفكير اليميني وتحسبه رجعياً وخطيراً. وقد زادت من قوة هذا الشعور تعبئة

الشارع وتعبئة بعض قطاعات المجتمع المدني (النقابات، الأحزاب السياسية، الجمعيات) في الاتجاه نفسه عندما انتظمت في الفترة بين دورتي الانتخابات الرئاسية لسد الطريق أمام جان ماري لوبن. وأخيراً فقد اعتبر المثقفون والكتاب والشخصيات العامة والفنانون أن من واجبهم توعية الجماهير الجاهلة والمهددة بالضياع في انتخاب متطرف، لإعادتها إلى جادة الصواب".

إنّ ما أوردناه يقدم لنا صورة عن مقاومة المجتمعات الحديثة بمعظم نخبها السياسية والثقافية للحركات المتطرفة، لكن حتى لو تمكنت هذه الحركات من استقطاب شريحة مقلقة بنسبتها المرتفعة من بين شرائح المجتمع، إلا أنَّ هناك صوتاً يعلو فوق صوتها وهو قادر على وضع العوائق أمامها؛ إنه صوت الفكر النقدي الذي لا يعلو صوت فوق صوته في تلك المجتمعات، وكان هو الاساس في تظهير تقدم هذه المجتمعات بالصورة التي هي عليه، ودولة مؤسسات ينتظم الجميع تحت سقفها، وكلا الأمرين تفتقدهما مجتمعات العالم الثالث، مما يحدث الفرق بين ما يمكن أن تحققه ظاهرة متشابهة في كل من هذه المجتمعات. قد يحدث أن نرى على منبر من منابر المجتمعات الحديثة سياسياً يلقي خطاباً، فلنقل شعبوياً بالكامل، إلا أنَّه وفي مجتمعات العالم الثالث التي تضج بالمناخات الشعبوية، فإن القادة الشعبويين

والذين يفضلون الشرفات على المنابر لا تنحصر المشكلة في خطبهم فقط، بل إن خطورتها تكمن في الذين يصطفون تحت تلك الشرفات. قصارى القول، إنّ الشعبوية لا تختصر بخطاب ولا بسلطة رجل الشرفة بل أيضاً بسلوك الذين يصطفون تحت تلك الشرفة.

هذا إضافة إلى أنّ مجمل مفكري الغرب والعرب يعتبرون، أنّ حركات اليمين المتطرف وخطابها المعادي للاسلام والمسلمين، يتحمل المسلمون قسماً كبيراً من شيوعه، فهم لم يبذلوا الجهد الكافي لتبديل تلك الصورة السلبية الشائعة عنهم في الغرب، لا بل إنهم أحياناً كثيرة كانوا مساهمين في تثبيتها. ولن ندخل هنا في هذا الجدال طبعاً لانه خارج موضوع بحثنا.

إنّ القراءة لحركات اليمين المتطرف في الغرب، وإن كانت تبدو حتى الآن حركات لا ينطبق عليها تصنيف الشعبوية بالكامل، إلا أنَّه وفي المستقبل لا يمكن لأحد الجزم ما إذا كانت هذه الحركات قادرة على التغيير في المجتمعات الحاضنة لها. حتى اليوم لاتزال هذه المجتمعات محصّنة ضد هكذا ظواهر للأسباب التي ذكرناها آنفاً، إلا أنَّه من الصعب التنبؤ حول مآل الامور، فالتاريخ لم تكن حركته تسير دائماً باتجاه التقدم، على العكس من ذلك، قد تحدث ارتدادت باتجاه الخلف أو التخلف، وقد تشهد مجتمعات

متقدمة تراجعاً في مسارها، وهناك مفكرون يتطلعون اليوم إلى حركات اليمين المتطرف كحركات شعبوية، ويعتبرون الشعبوية مرضاً تعاني منه الديمقراطية اليوم في الغرب لكنه ليس داءً، ولكن من يستطيع ان يجزم بأن لا يتحول إلى داء. والامر نفسه ينطبق على مجتمعات العالم الثالث الغارقة في المناخات الشعبوية، فمن يمكنه الجزم أنها لن تعرف طريقها إلى التغيير. واذا كانت حركة التاريخ، وكما ذكرنا غير محكومة بالتقدم، كذلك فإنه هو ليس بثابت، ولعل ثابتته الوحيدة أنه متحرك، ومليء بالاحداث المباغتة واللامتوقعة.

وفي النهاية، إنّ الشعبوية تُختصر احياناً في كونها خطاباً فحسب، وهذا اجتزاء في النظر إليها كظاهرة. إنها كما سبق وذكرنا مناخ عام في المجتمع، كما وأن الالتباس في تعريفها يتأتى من مكونات هذا الخطاب الشعبوي، والذي يتقاطع في مكوناته مع مفاهيم سياسية اخرى، يقول تاغييف بأن الفاشية والديماغوجية هما القطبان اللذان تتراوح بينهما الدلالات الشعبوية، إلا أنَّه في الواقع، وبعد كل ما أوردناه عنها كظاهرة، نجد أنّ هناك اكثر من قطبين تتراوح بينهما دلالات الشعبوية، بحيث يمكننا أن نضيف إلى قطبي تاغييف الديمقراطية المطلقة (كالنموذج الشافيزي في فنزويلا) والاشتراكية، خصوصاً اشتراكيات العالم الثالث، التي يمكننا ايجاد دلالاتها في معظم الايديولوجيات؛ ولعل هذا الامر هو

الذي أحاط تعريفها بالالتباس. كما وأنه في تقييم هذه الظاهرة، فقد أجمع كل المفكرين على اعتبارها احدى الآفات التي تصيب المجتمعات، وخطورتها ليس في كونها تهدد الديمقراطية كما انطلق عدد كبير من المفكرين عند تناولها كظاهرة، بل إنّ خطورتها تكمن في وقوفها في وجه قيام مشروع الدولة، بمعنى إما أن يكون هناك سلطة شعبوية وغياب لمفهوم الدولة وإما أن تحضر الدولة وتنكفىء الشعبوية.

الفصل الخامس

القادة الشعبويون

قد يكون من المفيد في نهاية هذا البحث أن نتوقف عند بعض النماذج لما يعرف بالقادة الشعبويين، لنتبين، ومن خلال نقاط التقاطع في ما بينهم والتي سنوردها لاحقاً، كيف انهم ينتمون إلى صنف واحد، ولون واحد، وبيئة واحدة، وخطاب واحد.

بداية، لا بد من ذكر بعض الاسماء قبل الشروع في المقارنة أو بالأحرى لتسهيل عملية المقارنة. فلنأخذ على سبيل المثال، الرئيس الايراني احمدي نجاد، والرئيس الفنزويلي هوغو تشافيز، والرئيس الكوبي فيديل كاسترو، والقائد الليبي معمر القذافي، والرئيس السابق للارجنتين خوان بيرون وزوجته ايفا. وهنا لا بد من الملاحظة وقبل أيّ شيء السمات المشتركة بين هؤلاء القادة، فهم جميعهم آتون من خلفية واحدة وحاملون لمشروعٍ واحدٍ، المشروع الثوري، الذي يتوخى التغيير الشامل في المجتمع وارساء ما يسمونه

"بالعدالة الاجتماعية"، كما وانهم جميعاً أو بمعظمهم خريجو الكليات الحربية أو كان للعمل العسكري حيّز في مسارهم. وباستثناء فيديل كاسترو نصير الفقراء على الرغم من أنه نشأ وترعرع في بيت ميسور مادياً، فإن بقية القادة المصنّفين كشعبويين يتميزون بكونهم جميعاً ابناء بيئات فقيرة عانت الفاقة والحرمان والظلم. وانطلاقاً من ذلك كانت الشرائح الاجتماعية الفقيرة هي القبلة التي يتوجهون إليها، فمنها انطلقوا وبها يحاربون ومن أجلها يعملون، كما ويحرصون على الاحتفاظ بكل سلوكيات البيئة التي نشأوا فيها، بمعنى أنهم يبقون على عفويتهم وبساطتهم في التعاطي مع الآخرين، وكذلك في ما يتعلق بذلك المظهر الذي يقدمون فيه انفسهم لجماهيرهم، فهم يحرصون أن يُظهروا للعيان التواضع في نمط العيش والبعد عن مظاهر البذخ، علماً أنّ معظمهم ينهب ثروات بلاده الوطنية برمتها، إلا أنَّ الفتات الذي يقدمونه لأبناء الثورة، وفقراء المجتمع كافٍ للتغطية على عملية الاستيلاء الكبرى على مقدرات بلدانهم. ولعل عرضاً موجزاً لكل منهم يقدم لنا صورة اوضح عن المشترك في ما بينهم، ليس من الناحية الشخصية فحسب بل وحتى في اسلوب ادارة الحكم واللغة التي يخاطبون بها الداخل والخارج على حد سواء، وعملية الخداع التي يمارسونها على جماهيرهم، وايهام هذه الجماهير بأن

قضاياها هي الهمّ الاوحد والهدف الاوحد الذي يناضلون من اجله، في حين أنهم يعملون، واقعاً، على تحقيق مآربهم الشخصية واشباع نهمهم للسلطة وللتسلط، وتسخير الجماهير وكل المؤسسات المجتمعية لخدمتهم. كما وأنّ الظروف التي تعيشها مجتمعاتهم متشابهة من كل النواحي، فهي مجتمعات يتقدم فيها العمل الثوري إلى الواجهة كغطاء لكل الارتكابات القمعية التي يمارسونها داخل مجتمعاتهم، كما وأنها بمجملها مجتمعات مغلقة ومعزولة؛ الفقر معمم على الشرائح الاجتماعية كافةً، ما عدا تلك الحلقة المرتبطة بالقيادة التي تشارك في عمليات النهب والسرقة الشائعة جداً في تلك المجتمعات. وبغض النظر عن الطريقة التي يعتلي فيها هؤلاء القادة إلى سدة الحكم، سواء أكانت من خلال انقلاب عسكري أو من خلال ثورة شعبية أو من خلال انتخابات ديمقراطية، فإنهم جميعاً ما أن يتسلموا الحكم حتى نراهم يحولونه إلى حكم آحادي ديكتاتوري.

وستبين لنا هذه النماذج التي سنعرضها في ما يلي هذه التقاطعات بين القادة الشعبويين.

هوغو تشافيز

اعتبر انتخاب هوغو تشافيز رئيساً لفنزويلا انتقاماً للمحرومين، أما الشعار الذي خاض على أساسه الانتخابات

فكان: "انا طاعون الاوليغارشية المتسلطة وبطل الفقراء". وهؤلاء الفقراء هم الذين جاءوا به إلى سدة الرئاسة. يروي بارت جونز في كتاب له بعنوان " قصة هوغو تشافيز من الكوخ الطيني إلى الثورة المستمرة"، قصة طفولة تشافيز المحرومة، ومسيرته في الجيش، ويرى أنّ وصول تشافيز إلى الرئاسة يشكل انتزاعاً للسلطة من قِبَل الفقراء في فنزويلا وللمرة الاولى. وفي الواقع يعتبر بعضهم أنّ تشافيز حقق للمعدمين والمهمشين في فنزويلا نجاحات عدة في مجالي التعليم والصحة، كما أن عدد الفقراء قد انخفض إلى النصف، ولكن هذه السياسة رأى فيها البرتو باريراتيسكا الذي كتب أيضاً سيرة ذاتية غير رسمية لتشافيز "تسيساً للفقر" بحيث اتكأت على هياكل موازية للمؤسسات الرسمية والخاصة، وشكلت ما يمكن اعتباره سياسة زبائنية، في اقتصاد يعتمد في شكل مطلق على النفط الذي يشكل 90% من العملة الصعبة. ويضيف أنه وبعد تحقيق فنزويلا لمعدل نمو مرتفع بين عامي 2003 و2008 دخلت فيما بعد هذا التاريخ بمرحلة انكماش، بلغ خلالها التضخم نحو 30%، وهي النسبة الاعلى في أميركا اللاتينية، ناهيك عن تراجع مستوى الخدمات العامة، خصوصاً انقطاع التيار الكهربائي، وفضائح الفساد في الحكومة، كما وسجل عام 2009 مقتل

أكثر من 19 ألف شخص أي أربع مرات أكثر من عام 1997، قبل تولي تشافيز إلى السلطة.

وإذا كان كتّاب سيرة تشافيز لم يقدّموا صورة معتمة عن فترة حكمه، فإن الوافدين من فنزويلا يقدّمون صورة قاتمة عن الوضع هناك ويروون، انطلاقاً من تجربتهم، أنّ الفقر كان قبل تشافيز ينتشر في أوساط شريحة كبيرة من الشعب هناك، بينما مع تشافيز فقد أصبح الفقر معمماً، ويؤكدون أنّ هذا التعميم هو الإنجاز الذي ميز حكمه حتى الآن. أضف إلى ذلك شيوع الفساد في الاوساط والدوائر المقربة منه، كما يتندّرون بقصص لا تنتهي عن الأموال التي يجنيها من خلال سيطرته على كل مقدرات البلاد، هذا إضافة إلى أنّ أبناءه جميعهم يعيشون خارج فنزويلا ويتلقون تعليمهم في أفضل الجامعات الغربية، في حين أنّ الفرد الفنزويلي ينتظر كل آخر شهر ليحصل على حصة غذائية (كيلوغرام واحد من السكر ومن الحليب الخ).

ويعتبر ماك غوراليس بأن تشافيز أكثر منتهكي السنن الديموقراطية جرأة، فهو منذ بلوغه الرئاسة، في 1999، لم يتردد في تسخير وسائل الإعلام الحكومية، وتقديم المساعدات إلى الفقراء، وإعمال الأمرين في خدمة انتخاباته واستفتاءاته. وفي آخر استفتاء، في 2008، ألغى الحظر على تقييد الترشح إلى الانتخابات الرئاسية.

كما ويتطابق سلوك تشافيز وادارته لبعض الامور مع سلوك المراهقين، وعادة ما يسمى الشعبويون بمراهقي السياسة؛ فلنأخذ مثلاً عداءه ليس لأميركا فقط بل للرئيس الاميركي السابق جورج بوش وكيفية التعاطي معه. خلال صيف 2004 راهن تشافيز بوش الابن بمئة دولار كشرط على من منهما سيبقى على كرسيه للسنة المقبلة، والواقع أنّ الرجلين بقيا تلك السنة. وحادثة أخرى افتعلها تشافيز أيضاً في سياق عدائه لبوش الابن، عندما حرص أن يقوم بزيارة موازية لزيارة بوش إلى اميركا اللاتينية في العام 2007 ليفسد على هذا الاخير رحلته. إنّ هذا السلوك لن نحمله أي صفة سوى كونه لا يمت لسلوك رجل الدولة بشيء، كما ان البعض اعتبروا أن تشافيز اختار تحديداً جورج بوش كخصم ليرسخ شعبيته داخلياً وليبنيها خارجياً، ويضيفون أنّ هذا العداء لاميركا ولرئيسها حولته إلى شريك لايران وفتح لها عدداً من ابواب دول المنطقة، وعقد حلفاً تسلحياً مع روسيا وكذلك نسج علاقة مماثلة مع الصين. وهو اليوم مدافع عن معمر القذافي وكل اولئك الذين تتظاهر شعوبهم في الساحات مطالبةً باسقاطهم. بمعنى آخر إنه صديق لمجمل ديكتاتوريي القرن الحالي والمنصرم.

أحمدي نجاد

ولدَ الرئيس الايراني محمود أحمدي نجاد في قرية اردان بالقرب من طهران من عائلةٍ متواضعةٍ وفقيرة. في العام 2003 إنتُخبَ رئيساً لبلدية طهران، ويروى عنه اثناء توليه لهذه المهمة أنه كان في كثير من الاحيان ينزلُ إلى الشارع ويعملُ بنفسه. وذاتَ مرة، وبينما كان عمال البلدية يعملون على فتح بعض مجاري المياه الماء في احد شوارع العاصمة والذي أُغلق بسبب هطول امطار كثيفة، شاهدوا شخصاً يرتدي ملابس عمال النظافة ويقومُ بمساعدتهم على فتح أحد الممرات، وعندما دققوا النظر واقتربوا منه تفاجأوا بأنَّ هذا الشخص هو رئيس البلدية محمود احمدي نجاد. كما ويحكى عنه أيضاً، أنه يعيش في بيت قديم صغير ورثهُ عن أبيه منذ اربعين سنة في أحد أفقر أحياء إيران، وهو رفض في أعقاب فوزه برئاسة بلدية طهران السكن في المقر الفخم المخصص لرئيس البلدية، مُفَضِلاً البقاء في منزله المتواضع.

في العام 2005، أصبح محمود احمدي نجاد رئيساً للجمهورية الاسلامية الايرانية، كما أعيدَ انتخابه رئيساً للبلاد في العام 2009، إلا أنَّ رئاسة الجمهورية لم تغير من سلوكياته، فهي حسب رأيه، اسوة برئاسة البلدية، ليست سوى موقع وظيفي لخدمة الشعب الايراني، ويحلو للكثيرين

كما يحلو له أيضاً اللقب الذي يطلقونه عليه "صديق الشعب". ولطالما صَدَمَ احمدي نجاد كل العاملين معه وخصوصاً اولئك الذين يعملون في مقر الرئاسة، فهو يرفض تناول الطعام الرئاسي ويفضل أن يحمل كل يوم كيساً من سندويشات الجبن والزيتون التي تعدها زوجته. كما أنه لا ينام على الأسرّة، فهو ابن الحداد الذي اعتاد على افتراش الارض والنوم عليها، حتى في أسفاره التي يضطر فيها لأن يكون مقيماً في إحدى غرف الفنادق فإنه يفترش الارض لينام. ومن صفاته المناقبية والنزاهة ويعرف عنه أنه كلما عين وزيراً، كان يطلب منه التوقيع على تعهدٍ ويشترط عليه شروطاً عديدة، منها: أنه سيبقى فقيراً، كما دخل إلى الوزارة عليه أن يخرجَ منها.

إلا أنّ صديق الشعب، لم يقدم لشعبه خلال فترة حكمه إلا تراكماً للازمات الدخلية والعقوبات الخارجية على إيران والشعب الايراني، وهو لم يكن ليعاد انتخابه لولا عمليات التزوير الفاضحة التي اشعلت الثورة الخضراء في ايران. ويعتبر محمد كروبي أحد زعماء المعارضة الإيرانية[1]: "أنّ

---

(1) تقرير من طهران، تحت عنوان " كرّوبي: سياسات أحمدي نجاد «لا عقلانية».. والحرس الثوري مستفيد من العقوبات"، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ 1 حزيران/يوليو 2010، العدد رقم 11549.

السياسات الخارجية اللاعقلانية لمحمود أحمدي نجاد، وقمع المنتقدين في الداخل تسببا في وضع مزعج للغاية في البلاد، وبدلاً من الخطاب غير المسؤول ونشر الأكاذيب، يتعين على السادة أعضاء الحكومة التماس الصفح من الأعداء وتفادي عقوبات جديدة". ويضيف إنّ بعض أعضاء النظام الحالي الإيراني وأيضاً الحرس الثوري يستفيدون من هذه العقوبات، كما أنهم يحققون أرباحاً ضخمة من ورائها، مشيراً إلى أن بعض قادة الحرس الثوري أعربوا عن استعدادهم للإشراف على مشاريع في قطاع الطاقة كان الغرب قد تخلى عنها بسبب العقوبات الدولية، اما الشعب الايراني فيقع عليه الوزر الاكبر لهذه العقوبات.

كما وكثرت في فترة تولي نجاد الحكم في إيران عمليات القمع وخنق الحريات. ويعتبر الرئيس السابق للجمهورية الاسلامية الإيرانية محمد خاتمي[2]: "إنه ينبغي أولاً على أحمدي نجاد وقف قمع شعبه وتسوية الخلافات الداخلية بالإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين ورفع أشكال الحظر المفروضة على الأحزاب السياسية والسماح بحرية الصحافة".

ويلتقي احمدي نجاد مع تشافيز حول ذلك العداء للولايات المتحدة الاميركية، ومثله أيضاً لا ينفك يهاجم

(2) المرجع نفسه.

المجتمع الدولي ويهدد ويتوعد ليل نهار، ولا تحصد الجمهورية الاسلامية الايرانية من وراء خطبه وسياساته إلا المزيد من العقوبات الاقتصادية، والمزيد من العزلة الدولية، الامر الذي بات يخنق الشعب الايراني بأكمله.

والواقع أنّ ثمة أمراً آخر مشتركاً بين كل من نجاد وتشافيز يتعلق بإطلالتهما، فهما دائماً ما يثيران ردات فعلٍ عند كل ظهورٍ لأي منهما، وخصوصاً على المنابر الدولية. كما وأنه قبل سماع خطبة من خطبهما، يمكننا مباشرة أن نتوقع النبرة العالية والمسرحة في حركتهما، إضافة لما يحويه الخطاب من تهديد ووعيد اقل ما ينذر به محو نصف العالم عن خريطة الكون. ولطالما طالعنا كل منهما بخطبة رنانة تقول كل شيء ولا تقول شيئاً. أضف إلى ذلك مناخات خطبهما وأبعادها السحرية البعيدة عن كل منطق وعقلانية.

سنقدم جزءاً من خطابٍ للرئيس الايراني أحمدي نجاد ألقاه في مدينة بنت جبيل اللبنانية أثناء زيارته إلى لبنان يوضح لنا بشكل افضل ما سبق وأوردناه. فقد بدأ طابه بالتالي[3]:

"أعزائي وأحبائي راية العدالة قادمة لا محال.. أعزائي العشق والمحبة قادمان لا محال.. المستضعفون سوف يصلون إلى

(3) خطاب الرئيس أحمدي نجاد في بنت جبيل، تاريخ 14/ 10 / 2010، عن الموقع الإلكتروني www.masrawy.com

الحرية.. رجال الله سوف يأتون.. المهدي المنتظر سيأتي باذن الله.. السيد المسيح عليه السلام سوف يكون رفيقاً وعوناً له.. الظلم سوف يزول.. والطغيان سوف يمحى وكل مستضعفي هذا العالم سوف يكتب لهم النجاة والانتصار.. أعلن للعالم بأن الصهاينة إلى زوال.. وأعلن للبنانيين أن الإيرانيين سيبقون إلى جانبكم إلى الأبد.. وأعلن أن بنت جبيل ستبقى حية وثابتة.. وأعلن إلى شعوب المنطقة أن إيران ستبقى إلى جانبكم".

يتبين لنا من هذا النص المضمون الغيبي للخطاب الشعبوي، والتركيز على العامل الديني، وهو هنا لا يعود لكون أحمدي نجاد رئيساً للجمهورية الاسلامية الايرانية فحسب، بل لأن مجمل القادة الشعبويين يستعملون هذا العامل لقدرته العالية في التأثير على مخيلة الجماهير، وهو في الواقع هروب إلى الأمام من المشاكل الاساسية العالقة ومحاولة معالجتها بواقعية. كما ويعتبر هذا المضمون محاولةً لتخدير اذهان الجماهير من خلال تلك الوعود التي لا يد لهم في تحقيقها، هذا اذا ما كانت حقاً ستتحقق وموعد تحققها. كما ويتضمن الخطاب وبشكل دائم، لغة التهديد لمن يناصبونه العداء، إما بالزوال وإما بالهزيمة الساحقة، علماً أنّ كلاً منهما جدد ولايته، إلا أنَّ أيّ انتصار لم يتحقق خلال فترة حكمه. هذه هي الشعبوية، معارك دنكيشوتية يصارع معها

القادة طواحين الهواء، ويقدمون الاوهام وعوداً لجماهير اكثر شعبوية في عملة التلقي والتفاعل مع ما يسمعونه.

ولنأخذ الآن جزءاً من خطاب لهوغو تشافيز لنتبين مدى التشابه في نوعية الخطاب ومضمونه بين خطابه وخطاب نجاد. ففي زيارة لتشافيز إلى حرم الإمام الرضا في إيران قال: "أشعر وأنا هنا في هذا المكان المقدس بأن ظهور المهدي والنبي عيسى المسيح أصبح قريباً جداً لتحقيق العدالة العالمية".

وفي خطاب آخر له أمام الآلاف من أنصاره قال : "أنا الشعب، أريد ولاءً مطلقاً لقيادتي، فأنا لست فرداً واحداً، انا الشعب وواجبي أن أطالب بالاحترام للشعب. إذا كنتم تحبون أرض الآباء انضموا لتشافيز، مرة أخرى علينا أن نكسب الغالبية في المجلس الوطني ونواصل بناء دولتنا وندافع عن بلدنا ونقول "لا" للامبريالية الأمريكية".

وهنا يلتقي في نبرته التهديدية مع نجاد إلا أنَّه يختلف عنه بتظهير اناه، تلك الأنا التي قلما تظهر لنا مع نجاد، فهذا الأخير على المستوى الشخصي يبدو اقل غروراً بكثير من تشافيز الذي يتشارك هذه السمة مع معلمه كما يحب أن يسميه فيدل كاسترو اشهر ثوار القرن المنصرم وملهم الكثيرين من ثوار العالم لا سيما قادة دول أميركا اللاتينية.

فيدل كاسترو

ولد فيدل كاسترو عام 1926، وككل الثوار حاكى فقراء بلاده، إلا أنَّه على عكس الكثير من القادة الذين عرفوا حياة قاسية في طفولتهم فإن كاسترو تربّى في كنف أسرة ثرية، لكنه كان يتمرد على حالة الترف التي كان يعيشها خصوصاً عندما راح يقاربها بحياة فقراء كوبا. عمل في مطلع حياته في حقول قصب السكر التي كان يملكها والده. في العام 1953حمل السلاح ضد الرئيس فالجنسيو باتيستا على رأس اكثر من مائة من أتباعه، إلا أنَّ محاولته أحبطت وسجن هو وشقيقه راؤول. وبعد عامين صدر عفو عنه فواصل حملته لإنهاء حكم باتيستا من المنفى في المكسيك. وشكل قوة مقاتلة عرفت بحركة 26 يوليو.

وقد اجتذبت مبادئ كاسترو الثورية تأييداً واسعاً في كوبا. وتمكنت قواته في عام 1959 من الاطاحة بباتيستا. وتسلم كاسترو سدة الحكم فحوّل كوبا إلى النظام الشيوعي لتصبح اول بلد يعتنق الشيوعية في محيطها، الامر الذي أرسى القطيعة لا بل العداء بينه وبين المحيط مباشرة بعد توليه لأول رئاسة حكومة في كوبا وشروعه بتأميم كل الشركات الاميركية هناك. عاشت كوبا إبان حكمه في عزلة مع محيطها اضافة لوقوعها تحت تأثير قوبات اقتصادية نتيجة سياساته، مما جعل

كل الآمال والوعود التي اغدقها على فقراء كوبا اوهاماً، وهو طيلة فترة حكمه كان يبرر المصاعب الاقتصادية التي تواجهها بلاده على أنها نتيجة للحظر الاقتصادي الذي تفرضه واشنطن على بلاده. ومما زاد الوضع سوءاً انهيار المعسكر الاشتراكي عام 1991 بحيث انعكس ذلك الانهيار تفاقماً للازمة الاقتصادية.

يُعرف كاسترو بين أفراد شعبه باسم "فيدل" أو "القائد"، وهو لطالما اعتبر أحد ملهمي قادة العالم خصوصاً أنه كان وحتى استلامه السلطة رفيق درب اشهر ثائر في التاريخ الحديث تشي غيفارا. اشتهر كاسترو بالكثير من المواصفات البارزة على المستوى الشخصي وفي اسلوبه بإدارة الحكم. اتسمت مجمل سياساته بالتحدي والاستفزاز، وما يطالعنا به نجاد وتشافيز من تحدٍ للمجتمع الدولي ليس سوى غيض من فيض مما اتسمت به مسيرة كاسترو في هذا المجال. كذلك اشتهر كاسترو في خطبه النارية الطويلة وسجل أرقاماً قياسية في توقيتها، فهو ألقى إحدى المرات خطاباً امام انصاره لثماني ساعاتٍ متواصلة، كما والقى خطبة في الجمعية العمومية للامم المتحدة دامت لأكثر من اربع ساعات ونصف الساعة. اما عن مضمون خطابه، فهو اسوة بالقادة الشعبويين، يكتنز خطابه كل عناصر التعبئة والتحريض والتضليل، والوعود بتغيير وجه العالم وإرساء العدالة

الاجتماعية؛ هذه الاخيرة التي لم يتمكن في تسعة واربعين عاماً من الحكم أن يؤمنها للكوبيين الذين يعيشون بمعظمهم على خط الفقر اضافة لغياب كل مظاهر الحريات في المجتمع الكوبي، وكذلك تفشي الفساد وكل ما يرافق الانظمة الديكتاتورية من عُدّة الحكم.

وفي اطلالة على مضمون خطب كاسترو تَتَظهّر لنا ملامح الخطاب الشعبوي. ففي مناسبة إحياء عيد ميلاد إليان غونزاليز والسنة الرابعة لبدء معركة الأفكار، في الخامس من كانون الأول/ديسمبر 2003، ألقى فيدل كاسترو خطاباً في المدرسة الابتدائية "مارسيلو سالادو"، في كارديناس اقتطعنا منه الآتي[4]: "يجب أن تكون حنجرة المرء في حالة جيدة إذا أراد التكلم، أليس كذلك؟ وقد توجب عليّ أن أتكلم في الأيام القليلة الماضية عدداً لا يحصى من الساعات... أتعرفون ما أنتم فاعلون، هل فكرتم بالأمر جيداً؟ وإذا ما خطبت بكم لمدة ساعتين؟ قولوا لي شيئاً: عمَّ تريدونني أن أحدّثكم؟ عن كل شيء؟... لم تكن المدرسة (في الماضي عندما كنت تلميذاً) بالمظهر الذي تبدو عليه اليوم، مطليّة، مع

(4) خطاب الرئيس الكوبي فيديل كاسترو في المدرسة الابتدائية "مارسيلو سالادو"، في كارديناس بمناسبة إحياء عيد ميلاد إليان غونزاليز في الخامس من كانون الأول/ديسمبر 2003، عن الموقع الإلكتروني http://technology.alwatanvoice.com

مجموعة من التحسينات التي لم تكن متوافرة آنذاك. ... لن أشرح أنا لكم الآن لماذا لم تكن المدرسة بالجمال الذي تبدو عليه اليوم... لأن هذا الأمر ستعرفونه أنتم يوماً ما، سوف تأخذون باكتشافه، ما كانت عليه الأسباب ولماذا يتلقى أطفالنا، أطفال كوبا، منذ سنوات عناية لم يسبق أن قُدِّمت أبداً في هذه القارة، أو في أيّ مكان آخر من العالم.

لقد سمعتم أنتم عن الثورة؛ لا أود أن أشرح لكم ماذا يعني ثورة، وإنما أن أروي عليكم بكل بساطة أنه عندما انتصرت هذه التي نسميها ثورة، أي عندما ألحقت الهزيمة بخصمها في صراع قاسٍ، كان يوجد في البلاد مئات الآلاف من الأطفال لم يكن لديهم مدارس... لأنهم كانوا أبناء عمال، أبناء فلاحين، أو أشخاصاً فقراء يحتاجهم أهلهم لكي يساعدوا العائلة في تأمين لقمة العيش... في ذلك اليوم الذي بدأت فيه الثورة التي كلمتكم عنها، لم يكن يوجد شيء مشابه لما يمكننا أن نسميه هكذا: المعهد العالي للفنون...

إنّ طالباً من هذه المدرسة كان غائباً بسبب ارتكاب ظلم كبير... آلاف الأطفال والأمهات وأشخاص آخرون لقوا حتفهم في هذه البحار نتيجة قانون نسميه نحن قانوناً قاتلاً، نشأ من أجل التضييق على الثورة وخنقها، من أجل تدمير الثورة من دون أن يهمّ ما يزرعه هذا القانون الهمجي من بكاء وحداد وحزن في قلب شعبنا العزيز والبطل.وليس هو

أيضاً العمل الوحشي الوحيد الذي يتم ارتكابه ضد شعبنا... إنّ أعتى قوة عرفها العالم، تحاول منذ خمس وأربعين سنة سحق الثورة من دون أن تتمكن من تحقيق ذلك...

في هذا اليوم بالذات، وللمصادفة، جاءت برقية صحفية بأنباء عن مافيا رفيعة المستوى من موظفين لا وجل عندهم وكذّابين على نحو فظ. كانوا مجتمعين في البيت الأبيض - هكذا يسمونه-، وهو المكان الذي يجتمع فيه قادة الإمبراطورية، وذلك في لجنة تم تشكيلها ليس إلا من أجل استنباط وتطبيق طريقة لتصفية الثورة، وهذا بعد خمس وأربعين سنة من المحاولات غير المجدية ومن الإخفاقات. يستطيع أصحاب أوسع المعارف في القضايا السياسية أن يضحكوا، عند تصورهم لاستعراض تلك الزمرة المجتمعة هناك ومشاهدتهم لوكالات الأنباء تتحدث عن صيغ سحرية سوف يضعونها حيز التنفيذ من أجل تصفية الثورة...

إنني أؤكد لكم أن مثل هذه المخططات المثيرة لكل هذا القدر من الاشمئزاز إنما يعدّونها لسبب بسيط جداً، لأنهم لا يريدون عدالة، يكرهون العدالة، يكرهون استقلال الشعوب، يكرهون الحرية، يكرهون الفقراء، يتمنون أن يعيدوا من جديد ما كان يحلّ هنا، وما كان يحلّ هنا هو ما ذكرته لكم عندما بدأت كلامي.

إذا ذهبت إلى ذلك البلد ستجد أن هناك عشرات الآلاف

من الأشخاص يعيشون تحت الجسور، ويلتحفون صحفاً. إذا ذهبتم إلى ذلك البلد ستجدون أنه بالرغم من كونه الأكثر جبروتاً وأكبر ثروة على وجه الأرض، يوجد فيه أربعون مليون شخص لا يتمتعون بحق الوصول إلى الصحة العامة، ملايين هم أميون، يعيشون في الأحياء الفقيرة حيث هم ضحايا التمييز بسبب لون البشرة... لن يكون بإمكانك أبداً أن ترى مدرسة كهذه... لا يتمتعون ولن يكون بإمكانهم أن يتمتعوا أبداً بمدرسة كهذه، بمعلّم واحد مقابل كل عشرين تلميذاً أو أقل.

تلك المجموعة الصغيرة من السفهاء الذين اجتمعوا يوم أمس في البيت الأبيض سيموتون من المرارة، سيموتون من الفشل وسيموتون حتى من دهشتهم لرؤية الطريقة التي قاوم بها هذا البلد خمساً وأربعين سنة من الحصار، ويصرّون على قطع الوعد بأنهم سيتخذون مجموعة من الإجراءات السحرية من أجل إلحاق الهزيمة بالثورة الكوبية... أستطيع أن أؤكد لكم بأن نظام النهب المتزايد هذا لن يكون بوسعه أن يعمّر طويلاً...

ما الذي يمكن أن يخطر على بال شخص نزيه... عندما يقرأ برقية صحفية عن أفراد العصابات أولئك، وهم يبحثون ويستنبطون صيغاً للتضييق أكثر على كوبا... الأوغاد الذين يصيغون السياسة تجاه كوبا... المتواطئون مع المافيا الإرهابية

في ميامي؟ بكل بساطة... يفزعون من مكانة كوبا المتنامية. لا يجدون نقطة صغيرة يهاجمونها منها. إنهم يحتاجون لتبرير كل شيء على أساس الأكاذيب والافتراءات الفظة.

بل وإن الأمر وصل بهم لاتهامنا بأننا نقوم بصنع أسلحة بيولوجية، ونحن البلد الذي تكرِّس مراكز بحثه كلياً من أجل إنتاج أدوية تنقذ الأرواح... بلد يتقدم في اتجاهات كثيرة... من المستحيل عليهم أن يتمكنوا من اللحاق بنا. إنهم لا يحتملون ذلك، فكبرياؤهم، يمنعهم من ذلك. ولكن سيكون عليهم احتماله! أعاهدكم بذلك باسم شعب كوبا.

آه... إنهم يقومون بعدّ ما تبقى لي من ثوانٍ في هذه الحياة من دون أن يتذكر هؤلاء الأغبياء جداً بأن الأمر يتعلق بقائد ثوري كان له امتياز عيش السنوات التي عاشها، على الرغم من محاولات الاغتيال التي لا تحصى المحاكة ضده في الولايات المتحدة.

مصيبتهم أيضاً هي أنني أتمتع على ما يبدو بجينات حياة طويلة. إنني أعيش بنفس هادئة... أحد المشاركين في الاجتماع التاريخي قال: "نرى النظام أكثر وهناً يوماً بعد يوم. إنه يعتمد بشكل حصري تقريباً على شخصية شخص. وهذا الشخص يتقدّم سناً يوماً بعد الآخر وصحته لا تبدو على ما يرام".

إنه أمر يستحق القهقهة. فالاكتشاف الآن أنه في كل دقيقة

تمرّ يتقدم الشخص في السن هو أمر يستحق جائزة نوبل. ويا له من شرف عظيم، يا له من تمييز هائل! إنه أكبر من تمثال الحرية، ذلك الذي يقوم على مدخل نيويورك، النصب الهائل. إني أخاف من مواصلة ازدياده ضخامة لدرجة ارتطامه بالقمر. شرف إعادة أسباب إخفاقاتهم وفشلهم وهزائمهم، والحقيقة غير المعهودة بأن الإمبراطورية العظمى قد ارتطمت بالمزايا المزعومة لفرد... إن الغطرسة تعمي بصيرتهم... إن هذا البلد هو بلد ذو تاريخ بطولي من واجبهم أن يمعنوا النظر في هؤلاء الشبان ويدركوا بأنه يمكنهم أن يلقوا على هذه الجزيرة وابلاً من القنابل النووية، ولن تستسلم أبداً. نحن بلد نفذ مئات الآلاف من مواطنيه مهامَّ أممية، ويتمتعون اليوم بالمعارف العسكرية الكافية لتحويله إلى جحيم لأي غازٍ... يتحدثون وكأنهم يصدِّقون فعلاً بأن هذه الثورة ستسقط غداً، وأن هذا البلد لا يمكنه أن يقاوم. إنهم لا يتنبّهون إلى قضية الثورة الكوبية، حقيقتها، قوّتها... من واجبهم أن يعرفوا، ما هي عليه كوبا قبل أن يتفوّهوا بوافر الحماقات والبلاهة؛ أجدر بهم أن يُعنوا باحتساء الويسكي أو مزج كؤوسهم مع شيء آخر، بدلاً من إضاعة وقتهم في اجتماعات البيت الأبيض الفارغة هذه التي لا تخيفنا... ليس هناك مثال واحد يستطيعون إعطاءه للعالم ويكون نافعاً للمقارنة مع إنجاز هذه الثورة. إنما سيكون أشبه بمقارنة الجحيم بالجنة".

لا يحتاج هذا الخطاب إلى الكثير من التفنيد والتدقيق لاستخراج السمات التي يتصف بها الخطاب الشعبوي، فهو غني بالتعمية على الحقائق وبالتضليل خصوصاً في ذلك الجانب الذي ينبري فيه كاسترو للمقارنة بين كوبا والولايات المتحدة الاميركية. أضف إلى ذلك التعبئة ضد صورة العدو المتمثل هنا بأميركا، من وصفها بأقذع الاوصاف، وكذلك المستقبل الذي يتوعدها به، بالمعركة التي ستنتهي بانتهاء ذلك الكيان الغاصب،هذه المعركة التي لم تتمكن زهاء خمسين عاماً ليس من تحقيق الانجازات بل بالتخفيف مما تعانيه كوبا جراء عزلتها والعقوبات الاقتصادية عليها. إنها معارك اوهام، بينها وبين الواقع بون كبير. هذا من ناحية خطاب القائد، اما عن متلقي الخطاب فانه وعند كل جملة كان التصفيق يقاطع كاسترو، مما يدلل على شعبوية الجماهير، جماهير المشروع الثوري اللانهائي، وكأن الثورة ليست مرحلة للانتقال من حال إلى حال بل أنها نضال إلى ما لانهاية. إنها الثورة الدائمة حسب ما جاء في الكتاب الاخضر لمعمر القذافي.

معمر القذافي

اضافة لكون معمر القذافي من اكثر الشخصيات السياسية المثيرة للجدل، فهو أيضاً اكثر نماذج القادة شعبوية.

ولد معمر محمد عبد السلام أبو منيار القذافي عام

1942 في قرية جهنم، أرسله والده للدراسة بمدينة سرت وسط ليبيا وهي مدينة تابعة لقبيلة القدادفة. درس في الاكاديمية العسكرية في بنغازي وتخرج فيها العام 1965 ضابطاً في سلاح الإشارة. العام 1969 كان عام التحول في حياة القذافي الشاب، فقد شكل مجموعة من الضباط الاحرار على غرار ما فعل ملهمه جمال عبد الناصر، ونفذ انقلاباً عسكرياً على حاكم ليبيا آنذاك الملك ادريس السنوسي، ونَصَّبَ نفسه رئيساً لمجلس قيادة الثورة، حتى العام 1977 الذي صاغ فيه لليبيا نظرية سياسية في الحكم تقوم على سلطة الشعب عن طريق الديمقراطية المباشرة، وذلك من خلال المؤتمرات الشعبية الأساسية كأداة للتشريع واللجان الشعبية كأداة للتنفيذ، وقدم شرحاً وافياً عنها في الكتاب الاخضر الذي ألفه في سبعينيات القرن الماضي، والذي يحتوي أيضاً نظرية تطرح الاشتراكية بصورة لم تظهر من قبل، وطرحاً للركن الاجتماعي لهذه النظرية التي تعرف بالنظرية العالمية الثالثة تمييزاً لها عن سابقتيها الرأسمالية والماركسية. ويقول معمر القذافي عنها إنها خلاصة التجارب الإنسانية .

يكتب مؤلف كتاب "ليبيا الحديثة"، البروفسور الأميركي ديرك فاندويل من جامعة كولومبيا لصحيفة النيويورك تايمز، قائلاً: إنّ القذافي ومنذ منتصف السبعينيات أظهر فقدانه الرؤية السليمة للأمور حين نشر بيانه الذي حمل اسم

"الكتاب الأخضر"، وهو كرّاس يضمّ مجموعة نصوص غير مترابطة قدمها باعتبارها الدليل الايديولوجي لما رآه بثورة ليبيا "الدائمة". وبعد فترة قصيرة أصبحت محتويات هذا الكراس شعارات وطنية. يقول أحدها: "البيت لمن يسكن فيه"، مجبراً بذلك أصحاب البيوت الذين يملكون أكثر من بيت إلى التخلي عن عقاراتهم أو التسريع بعقد زواج لضمان بقائها لعوائلهم.

كذلك يقول شعار آخر إن "الديمقراطية هي إجهاض لحقوق الفرد". وبفضل هذا الكراس أصبح العقيد القذافي يشار إليه باعتباره "القائد" أو "المرشد"، العرّاف الذي يقود ثورة متقلبة. لكن أفكار القذافي الفلسفية المسلية أصبحت أكثر فأكثر في صدام مع المجتمع الجديد ما حوّلها إلى الجزء الأكثر عتمة في النظام. وبفضلها وجد الليبيون أنفسهم يعيشون في كابوس من القمع يجعل أيّ نوع بسيط من الاحتجاج سبباً كافياً لاختفاء المحتجين، مع فترات حجز طويلة من دون محاكمات مع تعذيبهم. وأصبح العقاب يطال العائلة بأكملها إن كان أحد أبنائها معارضاً للنظام. بل وحتى المقيمون في المنفى لم ينجوا من رعب القذافي الذي أمر بقتل من سمّاهم بـ "الكلاب الضالة". ولهذا الغرض شكل فرقاً للاغتيال في الخارج.

كذلك كانت رغبة العقيد القذافي في السخرية من التقاليد

الدولية وتورط حكومته بأنشطة إرهابية موثقة قد أديا إلى مواجهة قوية مع الغرب ما جعل القذافي شخصاً منبوذاً على الصعيد الدولي. كما وتكرست صورته باعتباره زعيماً حريصاً على تدمير المصالح الغربية بأي ثمن وبأي الوسائل.

تميز القذافي في العمل بكل الطرق لتخليد ذكراه والترويج لفكره حيث حوّل بيته المهدوم مثلاً إلى مزار ومتحف تساق إليه الرحال وزوار الجماهيرية (العظمى)، وكذلك الحال بالنسبة للغرفة التي كان يقطنها في القسم الداخلي بمدرسة سبها، فهي أيضاً حوّلها إلى مزار ومتحف من أجل تمجيد تاريخه السياسي والنضالي، وكذلك الحال بالنسبة لغرفته في معسكر قاريونس. إلا أنَّ ما ينتظر هذه الانجازات هو ما لم يكن يتوقعه معمر القذافي، حيث إن الشعب الذي ضاق ذرعاً من طغيانه وانطلق في مسيرة "الشعب يريد إسقاط النظام" منذ مطلع العام 2011 لن يترك من اثره شيئاً يذكّر اجيال المستقبل به، فمصيره سيكون مشابهاً لمصير مجمل الديكتاتوريين الذين مروا عبر التاريخ، سيكون سقوطاً مدوّياً وتدميراً لكل ما يتعلق بهم أو يحث المخيلة على تذكرهم.

اما في ما يتعلق بخطابه، فهو خطاب شعبوي بامتياز وفريد كإطلالته، مثير للغرابة كشخصيته. وسنتناول هنا نصين

للقذافي اقتطعنا النص الأول من خطاب له قبل الثورة في ليبيا وآخر اقتطعناه من خطاب له ابان الثورة.

في العام 2007 احيت ليبيا الذكرى الواحدة والعشرين لإغارة الطائرات الأمريكية في عهد ريغان على بيت القذافي (الذي اطلق عليه الصامد) وتوجه قائد الثورة إلى الشعب الليبي في مهرجان سماه "وأعدوا" بهذا الخطاب[5]: "على الامة العربية عموماً والليبية خصوصاً النهوض والكفاح ضد أعدائها سواء أكانوا في الخارج أم في الداخل... على العرب أن يتحدوا... إنّ الخلاف بين الشيعة والسنّة يرجع إلى سبب سياسي وليس طائفياً... والقول بأن ايران شيعية والعرب سنّة هي كذبة كبيرة يحاول بعضهم تسويقها من أجل دق إسفين كبير بين الشيعة والسنّة... إن أول دولة شيعية هي الدولة الفاطمية التي أسسها الشيعة في شمال افريقيا والتي حكمت تونس، ومصر، والشام وعلى فترات في الجزائر، والمغرب والجزيرة العربية وصقلية وكان لها نفوذ قوي في بلاد النوبة عبر إمارة الكنوز... كيف يقولون إن في العراق أغلبية شيعية وأقلية سنّية؟ والعرب هم كلهم شيعة بما في ذلك شمال افريقيا، بل كلنا شيعة. إنّ هذا الانقسام بين الشيعة والسنّة

(5) مقتطفات من خطاب القذافي، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ 23 شباط/فبراير2011، العدد 11775.

يعود إلى انقسام بين الإمام علي ومعاوية... فمن هو علي ومن هو معاوية؟

علي ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وزوج فاطمة وابو الحسن والحسين، ومن لم يسجد لصنم ومن نام في فراش النبي في تلك الليلة المشهودة حينما أراد الكفار قتله، وهو اول الشباب المؤمنين...

ومن هو معاوية؟ اليس هو ابن أبي سفيان من أشد أعداء الاسلام ومن لم يدخل الإسلام إلا أثناء فتح مكة مضطراً، بل إن البعض يشكك بإسلامه، واما أم معاوية فهي هند بنت عتبة وهو من اعتى الكفار أما هي فقد اكلت كبد سيد الشهداء حمزة... هذا هو معاوية... وذاك هو علي... فمن منا ينحاز إلى معاوية ضد علي؟ العرب هم الشيعة لأنّ الجميع مع علي ضد معاوية... بل المسلمون كلهم شيعة!

والكل يشايع علي ونحن في ليبيا والجزائر ومصر وموريتانيا... كلنا شيعة علي والحسن والحسين، ولاحظوا العرب، من يحتفل اليوم منهم باسم معاوية ومن يذكره ومن يرفع اسمه، أما علي والحسن والحسين فالكل يحتفل بهم في وطننا العربي، ولذا لا اتباع لمعاوية وهم إنْ تواجدوا فهم قلة لا يعبأ بهم".

قد يعارض كثيرون هذا الطرح للقذافي، وقد يوافق عليه الكثيرون أيضاً ولكن ما يهمنا هو المكون الشعبوي فيه، هذا

المكون الذي يتضح لنا إذا ما وضعنا الخطاب في إطاره السياسي. ففي الفترة التي ألقاه خلالها كانت ليبيا تعاني من عزلة دولية بعد أزمة لوكربي، وكان معمر القذافي يحاول مغازلة إيران في تلك الفترة، فصاغ خطابه الفاطمي. مما يعني أنّ هذا الطرح ليس وليد قناعته بقدر ما هو نوع من الديماغوجيا والنفاق السياسي يلعب على العنصر الديني من اجل صياغة تحالف سياسي مع ايران. وهذا السلوك شعبوي بامتياز. فتحالفات الدول لا تصاغ بهذه الطريقة الغوغائية. وهي إن فعلت فإنها لا تعود تسمى بسياسات دولة بل بالسياسات الشعبوية.

أما عن خطابه الثاني الذي أطل به على العالم بعد تفجّر الثورة في ليبيا فهو يبين لنا كيف يتعاطى الشعبويون مع شعوبهم متى ثارت هذه الشعوب على الظلم الذي تلحقه بها الانظمة الاستبدادية، وحال القذافي هنا لا يختلف عن حال أي ديكتاتور يقف امام خطوط النهاية.

فيقول: "تحدينا أميركا بجبروتها وقوتها في هذا المكان. تحدينا الدول الكبرى النووية في العالم وانتصرنا عليهم. طأطأوا رؤوسهم، إيطاليا قبّلت يد ابن الشهيد شيخ الشهداء «عمر المختار». هذا مجد ما بعده مجد.

هذه بلادي، بلاد أجدادي وأجدادكم غرسناها بأيدنا

وسقيناها بدماء أجدادنا. نحن أجدر بليبيا من تلك الجرذان وأولئك المأجورين.

من هم هؤلاء المأجورون المدفوع لهم الثمن من المخابرات الأجنبية، لعنة الله عليهم، تركوا العار لأولادهم إذا عندهم أولاد. وتركوا العار لعائلاتهم إذا كان عندهم عائلات. تركوا العار لقبائلهم إذا كان عندهم قبائل، ولكن هؤلاء ليس عندهم قبائل.

الثورة تعني التضحية دائماً وأبداً حتى نهاية العمر.

اليوم تقول أنا ليبي. يقولون: آه ليبيا القذافي، ليبيا الثورة... أنتم هنا في الساحة الخضراء تقولون ليبيا تريد المجد، تريد قمة العالم، ليبيا تقود القارات، قارات آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية، وحتى أوروبا، كل القارات تعقد قممها في ليبيا. هذا مجد لليبيين والليبيات، حتى أصبح الليبي الآن يشار له بالبنان في جميع أنحاء العالم.

لا يمكن أن يعطل هذه المسيرة الظافرة حفنة من شذاذ الآفاق المأجورين، من هؤلاء القطط والفئران التي تقفز من شارع إلى شارع ومن زنقة إلى زنقة في الظلام.

أنا مقاتل، مجاهد، مناضل، ثائر، من الخيمة، من البادية، والتحمت معي المدن والقرى في ثورة تاريخية جابت الأمجاد لليبيين، سيتمتعون بها جيلاً بعد جيل، وستبقى ليبيا

في القمة تقود أفريقيا وتقود أميركا اللاتينية وتقود آسيا، بل تقود العالم.

أنا دافع ثمن بقائي هنا، أنا جدي «عبد السلام أبو منيار» أول شهيد سقط فوق الخمس في أول معركة عام 1911. أنا لا يمكن أن أسيء إلى هذه التضحية العظيمة. لا يمكن أن أترك رفات جدي الطاهر في المرقب، أنا سأموت طاهراً وشهيداً. وفي النهاية ها هو رفات والدي في الهاني مجاهد بطل من أبطال القرضابية وتالا، وها هو جدي، عمي الشيخ الساعدي في مقبرة منيدر.

لو كنت رئيساً لرميت الاستقالة في وجوهكم".

بالطبع إنّ هذا الخطاب ليس بالنداء الأخير بل النزاع الأخير، وهو خطاب بدل الاعتراف بالإجحاف والظلم الذي يعيشه الليبيون تحت حكم القذافي، فإذا به كقائد شأنه شأن غيره من الديكتاتوريين يمعن في النفاق والتضليل وتعمية الوقائع والغش السياسي، بحيث إنّ ليبيا إبان حكمه لم تعرف شيئاً من هذا الذي يسرده في خطابه. وكل جملة فيه تزاحم بشعبويتها ما يليها.

خوان وايفا بيرون

ولد خوان بيرون في العام 1895 بجنوبي الارجنتين، يُحكى عنه أنه كان شخصاً غامضاً معجباً بالنزعة الجرمانية،

هو العقيد العائد من دورة تدريبية في كل من ايطاليا الموسولينية واسبانيا الفرنكوية، ولديه من النبوغ ما يكفي لكي يجعل من سكرتارية الدولة للعمل، سلاحاً حاسماً لتغيير المجتمع الارجنتيني. في أعقاب الثورة التي اندلعت في الأرجنتين في العام 1943 شارك خوان بيرون للمرة الاولى في الحكم، وأكسبته برامجه الإصلاحية . إبان تقلده منصب وزارة العمل والخدمة آنذاك . مساندة العمال، فقد اتخذ بعض القرارات ذات الشأن مثل زيادة الاجور وخفض ساعات العمل اليومية وابرام عقود جماعية وتأمين تسهيلات شرعية للنقابات اكسبته شعبية أقلقت الجنرالات،وللتخلص منه أجبره الجنرالات على الاستقالة، مما أدى إلى تمرّدٍ شعبي غير مسبوق في بيونس أيرس، إذ استولت على المدينة الفئات الشعبية الدنيا القادمة من الضواحي الفقيرة، وراح الرجال ينزعون قمصانهم بسبب الحر مطالبين بعودة "الجنرال الطيب" الذي قدّم إلى هؤلاء المساكين ليس مستوى معيشة أفضل فقط بل شيئاً لن ينسوه أبداً وسوف يورثونه إلى الأجيال المقبلة ألا وهو الشعور الحاد بكرامة جديدة. وسمي ذلك اليوم بيوم الصدور العارية، واعتُبر تاريخ تأسيس (الحركة البيرونية) التي ستتحول إلى أوسع حركة جماهيرية في تاريخ الارجنتين، ما فتئت منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم تضطلع بدور كبير في

الحياة السياسية والاجتماعية.أُقصي من منصبه الوزاري العام 1945 وعاد في العام 1946 رئيساً للارجنتين.

سمحت بداية الازدهار الأرجنتيني والقائم على التصدير بأسعار ممتازة للغذاء والكساء نحو أوروبا الخارجة من الحرب العالمية الثانية[6]: للجنرال الرئيس بتطبيق سياسة تأميمات واسعة النطاق وإقامة نظام شعبوي فريد، لكنه استعار من الفاشية التقليدية ملامحها الأساسية: العلاقة الكاريزماتية مع القائد، "اغتصاب الجماهير" من طريق الدعاية المنتشرة في كل مكان (احتلال الادراك الجماهيري)، إقامة تنظيمات مهنية تسمح بالرقابة على الأداة النقابية، الحصول على تعاون طبقي من شأنه طمأنة ارباب العمل، حيث وقف امامهم في العام 1944 ليقول[7]: "قيل، أيها السادة، إني كنت أُناصب الرأسمال العداء لكنكم سوف تدركون أني افضل المدافعين عن مصالح رجال الاعمال، علينا معاملة العمال بالعاطفة كي يبذلوا جهوداً أفضل، وعلى من لديهم عمال تحت إمرتهم أن يدخلوا عليهم من هذا الباب للسيطرة عليهم".

ويبين لنا هذا المقطع من خطابه أحد أهم المكونات

---

(6) خوان بيرون، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://lalipost.almountadaalarabi.com/

(7) ايفا بيرون، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://ar.wikipedia.org

الشعبوية المتمثلة بالديماغوجية والازدواجية في المعايير التي يحرص الشعبويون على استعمالها في التعاطي مع الجماهير. فهو يعطي للفقراء من ناحية، ويتواطأ مع أصحاب رؤوس الأموال عليهم من ناحية أخرى. فالشعبوية ليس لها برنامج أو خطة عمل، إنها سياسة عشوائية ارتجالية تتحكم فيها اللحظة السياسية. وإذا كانت الشعبوية كما يظهر التاريخ المعاصر[8]: "لا تتحول إلى ديكتاتورية شرط أن لا نمزجها مع الفاشية"، فإن بيرون قام بهذا المزج مما جعل تجربة الحكم التي خاضها هي الأكثر شعبوية في تاريخ اميركا اللاتينية؛ كما وشكلت البيرونية نموذجاً احتذي به على بقعة واسعة من دول اميركا اللاتينية، بحيث توالت فيما بعد الحركات الشعبوية في سياق البيرونية منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا. تحكمت الديماغوجية في العقد البيروني باكمله [9]: "وذلك بالتناغم مع انعدام تام للضوابط الاخلاقية من جانب وجهاء النظام وجماعاتهم وفي إطار الخدمات المتبادلة والاختلاسات، متجاوزين ما كان يعتبر قاعدة سياسية محصورة في "اعلى

(8) دونّا، الكسندر، مقالة بعنوان: "هل يجب أن نخاف من الشعبوية"، الموند ديبلوماتيك، عدد تشرين الثاني، نوفمبر 2003.

(9) خوان بيرون، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://lalipost.almountadaalarabi.com/

الهرم فقط". ولايزال المجتمع الأرجنتيني يعاني حتى اليوم آثار تلك الممارسات".

هذا في ما يتعلق بخوان بيرون، أما لإيفيتا السيدة الأولى حكاية خاصة، فهذه المرأة التي ساعدته في الوصول إلى السلطة والتي تعتبر ملهمة الشعب الأرجنتيني الوحيدة وإحدى أبرز الشخصيات في تاريخه، كانت فتاة غير شرعية لإحدى الأسر الأرجنتينية الفقيرة، وقد بقيت عند الأسرة التي تبنتها حتى بلغ عمرها خمسة عشر عاماً، ثم ذهبت إلى العاصمة بيونس أيرس لتجد عملاً لها، وقد حاولت في البداية أن تعمل في التمثيل مستغلة جمالها الصارخ، إلاّ أنَّها اتجهت إلى الإذاعة. وفي أحد الأيام قام الكولونيل "خوان بيرون" بزيارة للإذاعة، وعندما رآها أحبها وتزوجها، وتمكنت ايفيتا من خلال عملها في الإذاعة، الأرجنتينية أن تصبح المتحدث الرسمي باسم "خوان بيرون"، وقامت بجهد هائل من أجل دعم شعبيته وزيادة نفوذه. فعندما أطاح به تمرد عسكري عام 1945 تحركت إيفيتا بنشاط بين الضباط وعمال المصانع وجماهير الشعب الأرجنتيني فتمكنت من إعادته إلى موقعه قائداً للجيش ورئيساً للحكومة بل أكثر من ذلك فقد ساعدته للوصول إلى سدة الرئاسة حتى اتفق المقربون والأعداء على أن حكم بيرون لا يمكن لأحد الإطاحة به أو حتى إضعافه والسبب يعود للسيدة الأولى التي تربعت على قلوب

الملايين، بالطريقة التي تعاطت بها مع فقراء الارجنتين، وبخطبها النارية التي كانت تلهبهم. فقد استطاعت خلال فترة وجيزة من تسلم بيرون للحكم أن تقوم بتأسيس "صندوق إيفا للأعمال الخيرية"، ولم تتوان عن استغلال منصبها ومركزها لتوزيع المساعدات وتقديم الخدمات للمحتاجين حتى أنها كانت تقوم بزيارات مفاجئة للقرى وتدخل بيوت الفلاحين والفقراء لتقدم لهم المواد الغذائية ولأطفالهم الحلوى، كما كانت تقوم بجمع وشراء الملابس الأوروبية وإعطائها لهم، ووصل اهتمامها بهم إلى حد شِراء اللعب لأطفالهم في المناسبات. وقد كان جميع أفراد الشعب يحبونها ويطلقون عليها ألقاب عدة منها (القديسة إيفا والملاك الصغير إيفيتا). وعندما كانت تخرج إلى الشارع كان الشعب الأرجنتيني يخرج ليرى معبودته، وكانوا يضعون صورها في بيوتهم تماماً كصور القديسين. وعندما أصيبت إيفا بمرض السرطان بدأ نظام خوان بيرون في التداعي. وعلى الرغم من ذلك لم تستسلم بل ظلت مصرّة على حضور اللقاءات السياسية والجماهيرية. وفي صباح 26 يوليو من عام 1952 ماتت "إيفا بيرون" عن عمر يناهز 33 سنة، وبمجرد أن لفظت آخر أنفاسها قام أحد الخبراء بتحنيط جثمانها، وعلى الفور اجتاحت الأرجنتين حالة من الرعب لموتها ومشى في جنازتها مليونان من البشر وتوفي سبعة أشخاص سحقا بالأقدام من شدة الزحام.

ولأنّ عمر الكذب والخداع قصير كان لا بدّ للحقيقة أن تنجلي كاملة، فعندما سقط حكم "خوان بيرون" عام 1955 قام الرئيس الجديد للأرجنتين الجنرال لوناردي بفتح قصور الرئيس السابق وبيوته فكانت المفاجأة الكبرى عندما شاهد الناس لأوّل مرة كيف كان يعيش "خوان بيرون" وزوجته؛ ففي أحد القصور كان هناك خمس عشرة سيارة سبور ومائتان وخمسون دراجة نارية، وفي قصر آخر تمّ العثور على ثروة هائلة قُدِّرت بحوالي عشرة ملايين دولار نقداً بالإضافة إلى مجوهرات ثمينة ومقتنيات غالية كلها جُمِعَت من أموال الشعب؛ حيث تمّ تهريبها إلى الخارج بعد أنْ حُوِّلت إلى حسابات سِرية في البنوك الأجنبية.

وعلى الرغم من أن السُلطات العسكرية الجديدة في "بوينس أيرنس" أثبتت أنّ إيفيتا اختلست أموال المشروعات والمؤسسات الخيرية التي كانت تُشرف عليها، ومع أن السلطات قامت بعَرض مجوهراتها وملابسها الباهظة الثمن على الفقراء والتي جمعتها من الأموال المخصَّصة لهم، وعلى الرغم من ذلك كله فقد ظلّ الفقراء يحبونها، فكان الردّ من الجميع "نحن جميعاً ملك لإيفيتا فلتأخذ ما تشاء ولتفعل ما تشاء ولكننا سنظل نحبها إلى الأبد".

بعد موت إيفيتا، وفي العام 1955 تمتالاطاحة بالرئيس بيرون في انقلاب عسكري أرغمت خلاله البورجوازية

المحافظة المتحالفة مع سلاح البحرية الرئيس الارستقراطي على الفرار بطريقة غير مشرفة. وهرب إلى باراجوايوبناما وفنزويلا ثم أسبانيا حيث استقر، وقد تزوج راقصة في أحد الملاهي اسمها (ماريا استيلا مارتينيز)، وعلى الرغم من نفيه فإن البيرونية استمرت حية لدى الشعب الفقير وقسم من الطبقات الوسطى التي تناست كل مظالم عهده ولم تستذكر سوى فترات الرخاء التي عرفتها فيه. ومنذ ذلك الحين لم يعد ممكناً تعريف الحياة السياسية الأرجنتينية إلا بكونها "ما بعد البيرونية".

وفي العام 1973عندما سمح لبيرون بالعودة من منفاه، وبعد ذلك مباشرة خاض استفتاءً شعبياً موحياً لكل من اليمين واليسار أنه سيحمل أفكارهما، وحاز نسبة 62 بالمئة من اصوات الارجنتينيين. لكنه اختار بالطبع الانحياز إلى اليمين من ارباب العمل والجهاز النقابي في الاتحاد العمالي العام والجيش ليقطع صلاته بالشبيبة البيرونية اليسارية المعروفة بالـ"مونتينيروس" والتي كانت تحلم بـ"وطن اشتراكي". في العام 1974 توفي خوان بيرون واستلمت مقاليد الحكم ارملته ماريا استيلا مارتينيز دى بيرون وكانت أول سيدة تتولى السلطة في الأرجنتين من دون انتخابات، وحكمت في الفترة من عام 1974 إلى عام 1976، العام الذي حصل فيه انقلاب عسكري أطاح بها، ليعود الجيش ويتسلم مقاليد

الحكم من جديد لينتهي من هذا "العدو الداخلي" كما اسماه، طوال سبع سنوات فظيعة وقاسية سميت "سنوات الرصاص" بين 1976 و1983.

إنّ هذا العرض لسيرة بيرون ولحقبة حكمه تقدم لنا نموذجاً عن الحكم الشعبوي على كل من المستويين القيادي والجماهيري؛ إنه نموذج لرجل الشرفة وللمصطفين تحتها.

مراجع الكتاب

(1) حجازي، د.مصطفى . الانسان المهدور، المركز الثقافي العربي.

(2) أرندت، حنة، في العنف، ترجمة ابراهيم العريس، دار الساقي.

(3) الأنصاري، د.محمد جابر، الناصرية بمنظور نقدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(4) فرويد، سيغموند، الطوطم والحرام، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.

(5) ويتمر، باربرا، الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة د.ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة.

(6) كامل، مجدي، وراء كل ديكتاتور طفولة بائسة، دار الكتاب العربي.

(7) شاتليه، فرنسوا، دوهامل، اوليفيه، بيزيه، كوشنير، افلين، تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة د.خليل احمد خليل، معهد الإنماء العربي.

(8) دولوز، جيل، سياسات الرغبة، تحرير د.احمد عبد الحليم عطية، دار الفارابي.

(9) فرويد، سيغموند، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة.
(10) ارندت، حنة، في الثورة، ترجمة عطا عبد الوهاب، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية.
(11) فروم، اريك، مفهوم الانسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، دار الحصاد، دمشق.
(12) بوتومور، توم، مدرسة فرانكفورت، ترجمة سعد هجرس، مراجعة د.محمد حافظ دياب، دار أويا.
(13) فروم، إريك، الانسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، مراجعة وتقديم لطفي فطيم، سلسلة عالم المعرفة.
(14) ماثيوز، ديفيد، السياسة للشعب، تعريب عفيف تلحوق، دار الجديد، بيروت.
(15) الرميحي، محمد، ازمة الديمقراطية في البلدان العربية، تحرير علي الكواري، دار الساقي. (عن المؤتمر الحادي عشر لمشروع الدراسات الديمقراطية في البلدان العربية).
(16) زيدان، سعيد، حول الخيار الديمقراطي، دراسات نقدية لمجموعة باحثين، مركز دراسات الوحدة العربية.
(17) لاسيرنا، روبرتو، مقالة بعنوان: "ايفو موراليس

والمفارقة الشعبوية"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www. project-syndicate.com تاريخ 11/ 4/ 2010.

(18) دونّا، الكسندر، مقالة بعنوان: "هل يجب أن نخاف من الشعبوية"، الموند ديبلوماتيك، عدد تشرين الثاني 2003.

(19) مارغوليس، ماك، مقالة بعنوان: "هوغو تشافيزاستديو افلام خاصاً به.. اهلاً بكم في هوغوود أضواء، كاميرا، ثورة" http://vb.6lal.com

(20) الحروب، خالد، مقالة بعنوان: "اغتيال العقل.. والثقافة الشعبوية"، جريدة الشرق، تاريخ 26/ 12/ 2006.

(21) يحيى، د.محمد، مقالة بعنوان: "الشعبوية والتوجهات الجديدة لاحتقار الجماهير"، وكالة الأخبار الاسلامية.

(22) بلقزيز، عبد الاله، مقالة بعنوان: "الشعبوية وميتافيزيقيا الشعب"، جريدة الحياة، تاريخ 18/ 2/ 2009.

(23) عزيز، محمد، مقالة بعنوان: "حول تحديد مفهوم الشعبوية"، نقلاً عن موقع الحوار المتمدن الإلكتروني، تاريخ 25/ 11/ 2007.

(24) بول، الأشقر، مقالة بعنوان: "عقد على حكم تشافيز"، جريدة الأخبار اللبنانية.

(25) الجميل، سيّار، مقالة بعنوان: "خصائص رجال

الدولة" نقلاً عن موقع ايلاف الإلكتروني تاريخ 20/ 12/ 2009.

(26) خطاب دانيال أورتيغا وزوجته، نقلاً عن موقع www.voiceafrica.com

(27) بوروما، يان، مقالة بعنوان: "تي بارتي والقمصان الحمر وحزب الحرية..الشعبوية ملاذ عالمي من الأزمات"، صحيفة لوتان السويسرية، اعداد منال نحاس، تاريخ 17/ 5/ 2010.

(28) طاهري، أمير، مقالة بعنوان: "تقديم الشعبوية باعتبارها سياسة"، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ..................

(29) رزق، منير، مقالة بعنوان: "الديماغوجية: الجنرال بولانجيه" جريدة النهار العدد 23157، تاريخ 20/ 10/ 2007.

(30) برودر، ديفيد، مقالة بعنوان: "حفلات الشاي وجذور الشعبوية الأميركية"، صحيفة الواشنطن بوست، تاريخ 13/ 6/ 2010 نقلاً عن www.alittihad.com

(31) حمضي، الطيب، مقالة بعنوان: "الشعبوية"، نقلاً عن المدونة الإلكترونية http://tayebhamdi.blogspot.com

(32) غليون، برهان، بحث بعنوان: "معوقات الديمقراطية في الوطن العربي"، عن موقع الجزيرة الإلكتروني www.aljazeera.net

(33) النابلسي، د. شاكر، مقالة بعنوان: "مصر أم الدنيا وأم الأصولية ايضا"، عن الموقع الإلكتروني www.ahl-alquaran.com

(34) عبود، سامح سعيد، مقالة بعنوان: "الصراعات الاجتماعية وليست الشعبوية أو النخبوية"، عن الموقع الإلكتروني http:\\f asail.blogspot.com

(35) يونس، شريف، مقالة بعنوان: "البلطجي والباشا والسياسة الشعبوية"، مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، تاريخ 27/ 1/ 2009.

(36) شربل، غسان، مقالة بعنوان: "المجرم الألماني"، جريدة الحياة، تاريخ 2/ 3/ 2011.

(37) كامبريدج بوك ريفيوز، الوهم الشعبوي.. وصعود أقصى اليمين في أوروبا، نقلاً عن موقع الجزيرة الإلكتروني www.aljazeera.net.

(38) اومليل، د.علي، محاضرة تحت عنوان: "الشعب والشعبوية"، ألقيت في منتدى عبد الحميد شومان الثقافي.

(39) عيد، د.عبد الرزاق، مقالة بعنوان: "هيكل العابر للشرعيات"، موقع الشفاف الإلكتروني.

(40) صالح، ياسين الحاج، مقالة بعنوان: "في شأن ما يطرحه علينا الاستفتاء السويسري من أسئلة أخلاقية

وسياسية"، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني، تاريخ 27/ 12/ 2009.

(41) Zizek, Slavoy, *In defense of lost causes,* verso 2008, Chirambo ,Reuben Makayiko, «democracy as a limiting factor for politicized cultural-populism in Malawi», Africa spectrum magazine 2000 - http:\\scholar.google.cm.

(42) The free encyclopedia, populist, definition www.wikipedia.com

(43) "Le petit Robert", dictionnaire. Qu'est ce que le populisme http://info.france2.fr

(44) Taguieff, *L'illusion populiste, Essai sur les démagogies de l'âge démocratique, Champs-Flammarion.*

(45) يسين، السيد، مقالة بعنوان: " الثورة المصرية معضلة سلوك النخبة وسلوك الجماهير"، جريدة النهار، تاريخ 2/ 3/ 2011.

(46) تقرير من براغ عن AFP بعنوان: "تصاعد الشعارات العنصرية ضد المسلمين والمهاجرين، الأزمة الاقتصادية تزيد شعبية اليمين المتطرف"، جريدة البعث، العدد 13684، تاريخ 1/ 6/ 2009.

(47) العزاوي، قيس، مقالة بعنوان: "صورة الاسلام والمسلمين في فرنسا"، عن الموقع الإلكتروني www.arabic.bayynat.org.lb

(48) زيادة، رضوان، مقالة بعنوان: "المنظور الغربي لحركات الاسلام السياسي"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://www.biblioislam.net

(49) بيومي، علاء، مقالة بعنوان: "صورة الاسلام والمسلمين في اميركا.. الجذور والحاضر"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://www.aljazeera.net

(50) الريس، هاني، مقالة بعنوان: "إجراءات قاسية ضد المسلمين في الدنمارك"، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 2053، تاريخ 20/ 4/ 2008.

(51) بوسك، اوليفيه، مقالة بعنوان: "الحد المتذبذب بين الصداقة والعداوة، اليمين الأوروبي المتشدد في مواجهة الاسلام"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني http://www.aljazeera.net

(52) تقرير بعنوان: "قانون حظر المآذن بسويسرا... المزيد من الضغوط على مسلمي أوروبا.. شكراً للجماعات المتطرفة"، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.el-wasat.com

(53) تعريف العنصرية، نقلاً عن الموقع الإلكتروني www.almahrah.net

(54) أبو ناضر، موريس، مقالة بعنوان: "اللغة السياسية اللبنانية حجج كاذبة ووعود بالجنة"، جريدة النهار اللبنانية، عدد 24338، تاريخ 20/ 3/ 2011.
(55) النص الكامل لخطاب الرئيس الفنزويلي هوجو تشافيز أمام الجمعية العامة للامم المتحدة، تاريخ 25/ 9/ 2006، عن الموقع الإلكتروني
http://articles-to-read.blogspot.com
(56) خطاب لهوغو تتشافيز، سفارة كوبا في الكويت، تاريخ 25/ 4/ 2011، عن الموقع الإلكتروني
http://www.embacubakuwait.com
(57) خطاب الرئيس أحمدي نجاد في بنت جبيل، تاريخ 14/ 10/ 2010، عن الموقع الإلكتروني
www.masrawy.com
(58) تقرير من طهران، تحت عنوان: "كرّوبي: سياسات أحمدي نجاد «لا عقلانية».. والحرس الثوري مستفيد من العقوبات"، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ 1 حزيران/ يوليو 2010، العدد رقم 11549.
(59) عبد الجبار، د.فالح، ما بعد ماركس، دار الفارابي.
(60) شفاليه، جان جاك، المؤلفات السياسية الكبرى، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت.
(61) ، خطاب الرئيس الكوبي فيديل كاسترو في المدرسة

الابتدائية "مارسيلو سالادو"، في كارديناس بمناسبة إحياء عيد ميلاد إليان غونزاليز في الخامس من كانون الأول/ديسمبر 2003. عن الموقع الإلكتروني
http://technology.alwatanvoice.com

(62) مقتطفات من خطاب القذافي، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ 23 شباط/فبراير 2011، العدد 11775.

(63) خوان بيرون، نقلاً عن الموقع الإلكتروني
http://lalipost.almountadaalarabi.com/

(64) ايفا بيرون، نقلاً عن الموقع الإلكتروني
http://ar.wikipedia.org

(65) الوادي، محمد خير، تجارب الصين من التطرف إلى الاعتدال، دار الفارابي.

المحتويات

المقدمة 7
مواصفات للشعبوية تشترك فيها مع ظواهر شمولية أخرى .. 15

الفصل الأول

واقع الشعبوية في المجتمعات الغربية ومجتمعات العالم الثالث 27
أسباب يقظة الشعبوية 32
الشعبوية تحت سقف الديمقراطية 35
كيفية تعاطي الغرب مع الظواهر الشعبوية 44
تفاعل مجتمعات العالم الثالث مع الشعبوية 48
الشعبوية في دول أميركا اللاتينية 57

الفصل الثاني

تعريف الشعبوية 63
الشعبوية 71

الفصل الثالث

نماذج الحكم التي تنتجها الحركات الشعبوية 111
عتبة انفجار الهدر 118
الشعبوية والاستبداد 122
الشعبوية وارتباطها بنظرية العدو 128
الشعبوية واستراتيجية التضليل 132
الشعبوية واحتلال المجال الادراكي 135
الشعبوية وارتباطها بصورة القائد المنقذ 138
الشعبوية وعودة المأثور 145
الثقافة الشعبوية 154
الشعبوية والعنف 160

الفصل الرابع

هل تشكل الديمقراطية مقتلاً للشعبوية 163
الليبرالية كمعوق للشعبوية 168
كيفية تفاعل المجتمعات الحديثة مع خطاب حركات اليمين
المتطرف 193

الفصل الخامس

القادة الشعبويون 205

هوغو تشافيز 207
أحمدي نجاد 211
فيدل كاسترو 217
معمر القذافي 225
خوان وايفا بيرون 233
مراجع الكتاب 243

منذ ثمانينيات القرن الماضي، عاد مصطلح الشعبوية إلى الواجهة في توصيف بعض الحركات السياسية في العالم، وكذلك في توصيف بعض نماذج القادة؛ ولا يمرّ يوم إلا ونسمع عن خطب شعبوية وقادة شعبويين، وأحزاب شعبوية وإعلام شعبويّ.

والسؤال ما هي الشعبويّة؟

إن إيجاد تعريف دقيق لمصطلح «الشعبوية» مهمة ليست بالسهلة، حيث إنّ هذا المصطلح لم يحظَ، أسوة بغيره من المصطلحات في العلوم السياسية، بالاهتمام الكافي من قبل الدارسين والباحثين، ولم يوضع من قبلهم على طاولة البحث، وكذلك لم يتم تناوله بشكل معمق وشامل، مما يتيح استنباط تعريف محدد وواضح؛ فمعظم التعريفات التي تناولته، كانت بمجملها ملتبسة، ضبابية، لا تساعد كثيراً في تظهيره بشكل جلي.

يحاول هذا الكتاب البحث في تحديد مفهوم الشعبوية، من خلال دراسة الحركات التي تنعت بالشعبوية على مجمل الخارطة السياسية في العالم، في محاولة لتظهير هذا المفهوم بشكل دقيق بعيداً عن الالتباس الذي احيط به دوماً كمصطلح. كما يحاول أن يلاحق الحالة الشعبوية من جوانبها كافة، وذلك من خلال البحث عن المكونات الشعبوية في الخطب السياسية، أشكال الحكم، وفي الشخصية القيادية.

منى عادل خويص، كاتبة لبنانية، من مواليد بتاتر - عاليه.

عملت في كل من الصحافة المكتوبة والمرئية والمسموعة منذ العام 1986 حتى العام 1996.

اهتمت بدراسة اشكاليات القيادة، وصدر لها كتاب في هذا المجال بعنوان: «وجوه القائد» عن دار الساقي، بيروت، 2005.

في العام 2011 صدرت لها دراسة حول أزمة التغيير في الوطن العربي تحت عنوان: «الابواب المغلقة» عن دار الفارابي، بيروت.


ISBN 978-9953-71-734-0